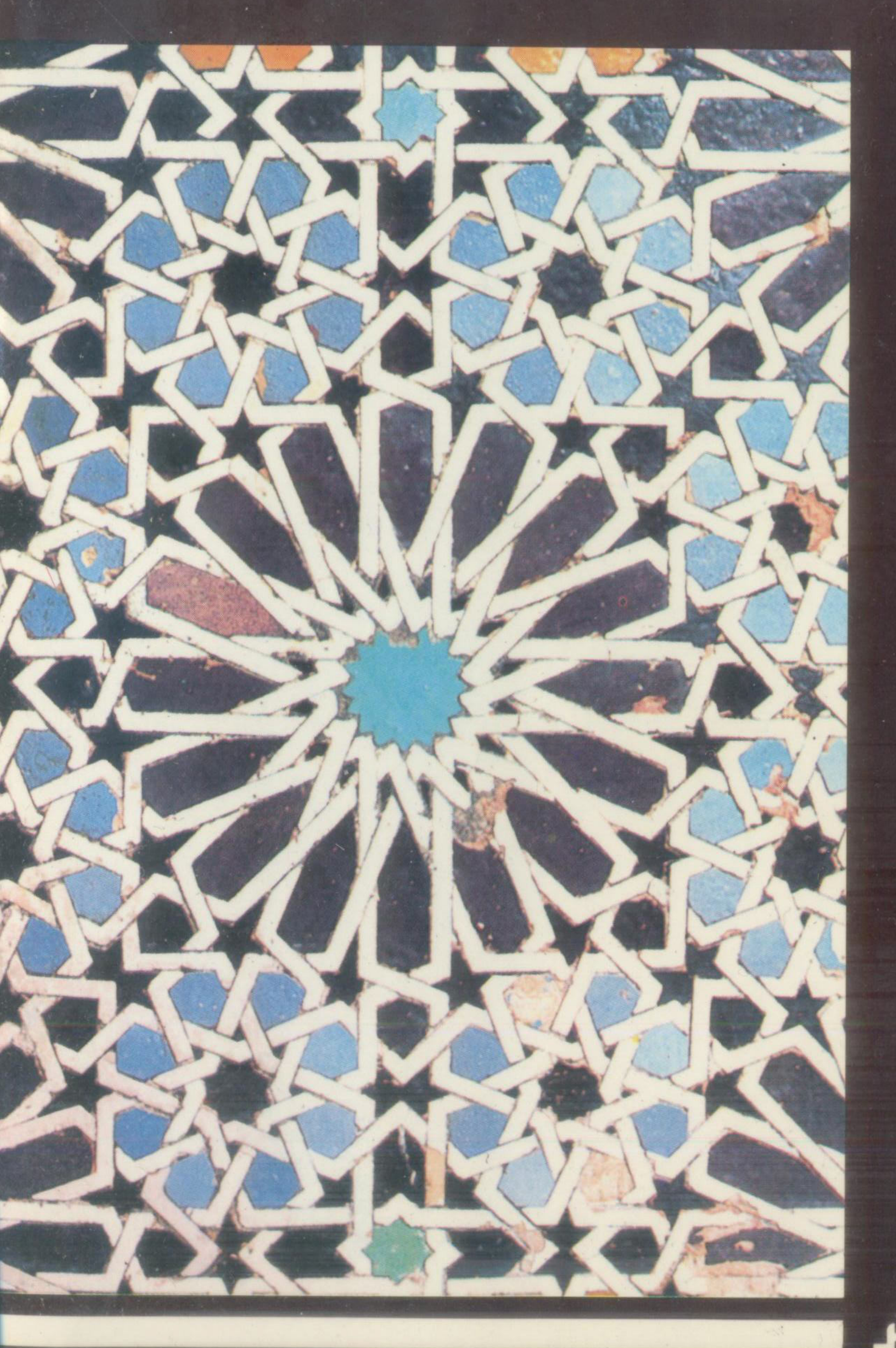
محمد المنوني

حضارة الموحدين



دار توبقال للنشر

محمد المنوني

حضارة الموحدين

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي. ساحة محطة القطار
بلفدير. الدار البيضاء 05 ـ المغرب
الهاتف : 24.06.05/42

تَمَّ نشرُ هَذَا الكِتَاب ضِمنَ سِلْسِلة
المعرفة التاريخية

الطبعة الأُولى 1989

رقم الايداع القانوني : 936\ 1989

كلمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أقدم للقارىء الكريم هذا الكتاب حول حضارة الموحدين، وهو في جزء منه عبارة عن كتاب سبق أن نشر بعنوان «العلوم والآداب والفنون على عصر الموحدين» في طبعة أولى صدرت سنة 1950، وطبعة ثانية صدرت سنة 1977، وقد أضفت إليه بحثين يرتبطان بنفس الموضوع، وهذا ما دفعني الى اختيار عنوان «حضارة الموحدين» لأنه يعبر عن مضمون الكتاب في كل أبعاده.

وتتميز طبعة دار توبقال للنشر بمراجعة جديدة وتنسيق المصادر والمراجع أسفل الصفحات، بدلا من تشتتها داخل النص، مع توضيح أكثر لهوية المستندات عند مسردها آخر الكتاب، هذا إلى أن هذه الطبعة الجديدة تظهر في شكل أكثر حداثة.

وقد ساهم في إعداد الطبع المنوه به، الأستاذ الباحث عبد الجليل ناظم مساهمة موفقة، على أن الفضل الأكبر في نشر هذا الكتاب والسهر على إخراجه في حلته الأنيقة يعود إلى الأستاذ الدكتور عبد اللطيف المنوني، فله ومعه الأستاذ عبد الجليل ناظم وأعضاء دار توبقال جزيل الشكر وموفور الثناء.

الرباط. الاثنين 8 ربيع الأول 1410
19 أكتوبر 1989
محمد المنوني

تـشـكـرات

أتقدم بآيات الشكر وعبارات الثناء للمرحوم الأستاذ العلامة المؤرخ المطلع سيدي عبد الله كنون على ما بذل من جهد مشكور في ظهور جزء من هذا البحث لأول مرة.

ولا أنسى أن أشكر العلماء الأجلة الذين تفضلوا فأعاروني كتبهم الخطية وأخص بالذكر العلامة المؤرخ المرحوم سيدي محمد داوود الذي تلطف فأهدى أخاه نسخة من تكملة ابن الابار، الذي كان عندي عارية من مكتبة المؤرخ الجليل المرحوم سيدي محمد بن بوبكر التطواني. ولا أنسى أيضا أن أسجل ممنونتي للعلامة الجليل مولاي المصطفى ابن زيدان الذي أعارني الكتب التالية : أخبار الحكماء لابن القفطي، صلة الصلة لابن الزبير، خلاصة، تاريخ العرب لسديو، تاريخ التمدن الاسلامي.

تـقـــديـم

عبد الله جنون

إنها لمنقبة جليلة لعهد مولاي الحسن، هذه الجائزة التي يمنحها كل عام لأحسن كتاب يقدم إليه في أحد المواضيع التي يعينها هو : ويكون لها مساس في الغالب الأعم بتاريخ المغرب وأدبه ورجاله. فهي أول جائزة من نوعها تقصر على المغاربة وعلى الكتب التي تؤلف باللغة العربية. وهي أول جائزة بلغت قدرا من المال لابأس به في الظروف والأحوال الحاضرة، ولا يراعى في منحها إلا الاجادة فقط بحيث إذا لم يتقدم للمعهد ما يستحق الاجازة لاتمنح. وفيها تشجيع للتأليف والمؤلفين، وبعث للتاريخ والأدب المغربيين وإحياء لتراجم رجال المغرب المنسيين، وإعانة على نشر الآثار المغربية التي كانت تبقى منبوذة في زوايا الاهمال لتعذر النشر على أصحابها، نظرا لارتفاع ثمن الطباعة وعدم وجود دور للنشر تتولى إخراجها على نفقتها، الى غير ذلك من الفوائد التي تضمنتها هذه الجائزة والصعوبات التي ذللتها.

وقد كان من الموضوعات المقترحة في السنة الماضية (1948) هذا الموضوع الذي يتناوله هذا الكتاب الذي بيد القارىء وهو (العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين) إلا أن صاحبه لم يتمكن من تقديمه للمعهد في إبانه، فهو ان لم يظفر بالجائزة فلا أقل من أن ينشره المعهد ويعمم فائدته بين الجمهور المثقف، إذ كان من سنة المعهد أن يضطلع بنشر الكتب المفيدة والتآليف القيمة التي بين أيدي الناس كثير منها الآن.

وصاحب هذا الكتاب عالم من علماء الشباب المثاليين، جمع الى العلم والاطلاع النفس الزكية والأخلاق الفاضلة، وقامت به صفة الباحث الصبور والعامل الدؤوب فلا جرم أن يجني أطيب الثمرات ويحصل على أحسن النتائج، فإنما هي همة وإدراك، واجتهاد ونجاح. وكأن الأقدار لما تطاولت فاغتالت عالم مكناس ومؤرخها وكعبة القصاد فيها المرحوم مولاي

عبد الرحمن ابن زيدان أرادت أن تعوض منه خلفا صالحا وتبقي هناك على وارث جدير بسره هو الأستاذ محمد المنوني الذي يعد بحق مفخرة من مفاخر العاصمة الاسماعيلية في هذا الصدد.

أما كتابه هذا فإنه غاية مايدرك في هذا الباب، على الأقل في هذه المدة القصيرة التي أخرج فيها، ومع إعواز للمصادر الكافية الذي يحسه كل من عانى هذه المباحث المتشعبة، لاسيما وقد سلك فيها نهجا علميا معبدا قلما تأتى لمن زج بنفسه في هذا الميدان: من الكهول والشبان، فهو عمل أدبي تام أو كاد أن يكون تاما وإنتاج علمي محرر قارب أن يكون خاليا مما يلاحظ عليه سواء في مادته وأسلوبه ونظامه وترتيبه.

ليس فيه شيء من هذه المقومات البعيدة كل البعد عن الموضوع التي إنما يراد بها الملء والتضخيم حينما يعوز العلم والتحصيل، فترى الكاتب يخبط خبط عشواء ويضرب في كل واد مدعيا أنه يهيء المداخل ويقرب الأبعاد فلا يصل الى المقصود بالذات إلا وقد استغرق جل الكتاب في أشياء لاعلاقة لها بما يقصد إليه، وإذا البحث هزيل في مخبره. سمين في مظهره، ولكن أين في نقد الكتب ذلك الميزان الذي يخلص الماء من اللبن المغشوش ؟

لقد هجم الأستاذ المنوني على موضوعه ولم يتناوله من ذيوله ولا من أطرافه، بل قصد الى اللب والصميم، وترك اللف والدوران وإن كان قد قدم بين بديه مقدمات فإنها مما يرتبط بمادته تمام الارتباط ويكون كالاطار الجميل المحيط بالصورة والمتمم لمنظرها البديع. ثم هو قد رتبه ترتيبا طبيعيا فتناول العلوم ثم الآداب ثم الفنون، وهذه أيضا تناولها بالنظام الكامل والترتيب الواجب اتباعه في كل منها، فالسلسلة متتابعة الحلقات، والأفكار متسلسلة لايجد القاريء أدنى عنت في الربط بينهما بل إنها في ذلك النظام والترتيب لتغريه بالمطالعة والاسترسال في القراءة حتى يفرغ من كل بحث وقد أحاط به علما تصوريا وتصديقيا في زمن يسير وجهد غير كثير.

على أن جوهر الموضوع ومادة البحث في كل باب من هذه الأبواب الثلاثة، قد استوفى استيفاء تاما بالنسبة لما هو موجود ومعروف في المصادر حتى الآن. فلم يترك شاذة ولا فاذة إلا أحصاها وحصلها ولا شاردة ولا فاردة إلا تتبعها وقيدها، وهذا جهد المقل الذي يستوجب الشكر الكثير. والاقلال هنا راجع الى ناحية المصادر لا الى ناحية الكاتب، فإذا ظهر قريبا تاريخ ابن صاحب الصلاة والجزء الرابع من ابن عذاري وبعض المجموعات الأدبية التي تزيد الموضوع اتساعا، فقد تمتد رحاب البحث الى أبعد مما وصل إليه المؤلف، ولكن ذلك لايزري بكتابه كدرس حافل بالغض الجني مما وصلت اليه المعارف في عصر الموحدين من نضج وإثمار.

وللمؤلف حس دقيق ونظرة نافذة في تعليل الأمور وتحقيق المسائل والتنبه الى الأخطاء التي وقع فيها بعض الكتاب فعقب هو عليها بما يبين وجه الصواب فيها كهذا النص المتعلق بنسب ابن تومرت والمحرف عند يوسف أشباخ وقد رده المؤلف إلى ما يظهر أنه الصواب، ورد أيضا نسبة كتاب في الفلسفة الى المهدي بن تومرت وقعت غلطا في كتاب تاريخ الآدب العربية لجرجي زيدان كما صحح بعض الأوهام في مبحث الجغرافية وهذا المبحث في الكتاب بلغ من الدقة والتحرير حد الاتقان فنهنى عليه المؤلف.

ونحن مع كامل التقدير لجهود المؤلف وتمام الموافقة على جل ماله من أنظار، فإننا لانخفي عدم قبولنا لبعض الآراء التي ذهب اليها في-بعض المسائل كترجيحه أن الموحدين كانوا ظاهرية في الفقه وأن دعوتهم لنبذ مذهب مالك لم تكن إلا للتمسك بمذهب داود، وتأويله للنصوص التي تدل على أنهم كانوا أهل سنة وحديث، وإن دعوتهم كانت للاجتهاد المطلق، بما يؤيد نظره ويعضد ترجيحه.

وكإنكاره للمحاورة الشعرية المشهورة التي جرت بين عبد المومن ابن علي ووزيره ابي جعفر بن عطية تاييدا لما ذهب اليه من أن الطابع الديني الغالب على الدولة جعل الشعر الغزلي يقل بل ينعدم من بين موضوعات الشعر وهذا تعمق كبير فما منع الروح الديني المسيطر على الصحابة في عصر النبوة من أن يقول كعب ابن زهير (بانت سعاد) وينشدها النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة في المسجد وتكون سببا في نجاته وإجازته.

ومخالفتنا أو مخالفة غيرنا للمؤلف في نظر يذهب اليه. لاتقدح في قيمة الكتاب، لأن الانسان قد يذهب في مسألة ما إذا كانت نظرية، مذهبا يخالف مذهب غيره، وليس بلازم أن يتفق كل الناس في كل المسائل. والذي يقدح في قيمة كتاب من الكتب هو مخالفته للقواعد المقررة والأصول المحررة وتحريفه للنصوص وعدم إحاطته بالموضوع وما الى ذلك. وقد علم أن كتاب العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين بريء من كل هذه العيوب بالغ الغاية في الجودة والاتقان يستحق عليه مؤلفه كل ثناء وشكر. فنهنيه من صميم الفؤاد على توفيقه ونجاحه ونقدمه الى الشباب المثقف والباحثين في التاريخ المغربي والحضارة الاسلامية كأحسن طرفة يقدمها صديق الى صديق.

طابع دولة الموحدين

كانت حالة العالم الاسلامي في الوقت الذي قامت فيه دولة الموحدين لاتبعث على الاطمئنان، فالدولة العباسية بالعراق ودولة الفاطميين بمصر بلغتا الى طور الهرم المزمن الذي لاقيام بعده، ودولة المرابطين بالمغرب كانت كافرة مجسمة في نظر المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين، وإن كان لم يشايعه على هذه النظرية سوى أتباعه منهم، وكان ابن تومرت هذا ساح في الشرق حيث أخذ عن الغزالي وأبي بكر الشاشي وابن عبد الجبار ببغداد، وعن أبي بكر الطرطوشي بمصر، وفي المغرب حيث قرأ على ابن حمدين بقرطبة من الأندلس، وعاين حضارة هذه البلاد التي ساح فيها، وتشبع بأفكار أهلها عامة، وبخاصة أستاذته، وبصفة أخص الغزالي.

وأدرك خطر الحالة التي عليها العالم الاسلامي، وقدر أن علاجها ليس في تأسيس إمارة أو مملكة، بل في إنشاء خلافة إسلامية عامة، تضم تحت لوائها العالم الاسلامي بكامل حدوده، وتتولى زعامتها الدولة الموحدية.

ولأجل أن تؤدي هذه الدولة مهمتها حق تأدية، أراد ابن تومرت ومؤسسوها من بعده أن تكون حضارتها مطبوعة بطابع العظمة والدين والتجديد في سائر مظاهرها.

ولتوضيح شأن هذا الطابع الثلاثي : نبين أن من مظاهر عظمة هذه الدولة تلقيب ملوكها بأمراء المومنين والخلفاء، وانظر في هذا الثاني إلى ما جاء في المعجب [1] : أن ولد الشرف الطليق المرواني لما أتم إنشاد قصيدة صنعها في مدح عبد المومن قال هذا الأخير : بمثل هذا تمدح الخلفاء. وفي المعجب [2] : «إن يعقوب المنصور كان في أول أمره أراد الجري على سنن الخلفاء الأول»، وكذا أسسوا أكبر مملكة شاهدها الاسلام في المغرب، فقد امتدت المملكة

1) المعجب 138
2) المعجب 188

الموّحدية من المحيط الأطلانطيكي الى قرب حدود مصر هذا طولها، أما عرضها فكان فيما بين الصحراء الكبرى وجبال الشارات بالأندلس.

وحاولوا الاستيلاء على مصر وأسسوا بها جمعية لهذه الغاية، جاء في المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب (3) : أنه كان للمهدي بالبلاد المصرية جمعية من أنصاره ينشرون دعوة الدولة الموحدية في البلاد المشرقية، وقد عد أسماءهم واحدا واحدا، وفي أواخر أيام يعقوب أراد أن يحقق هذه الفكرة؛ جاء في المعجب (4) : «بلغني عن غير واحد أنه صرح للموحدين بالرحلة الى المشرق، وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع، ويقول نحن إن شاء الله مطهروها. ولم يزل هذا عزمه رحمه الله الى أن مات»، ولم يكن غزوهم لمصر إلا طريقا لما وراءها من العالم الاسلامي، يشير لهذا ما جاء في ترجمة أبي الوليد القرطبي : أنه قدم مصر هاربا من عبد المومن ودولته لما ظهر على المغرب، ثم خاف من استيلائه على مصر فقدم الحجاز، فخاف أن يحج فدخل اليمن، ثم خاف أن يظهر على اليمن فأراد أن يتوجه الى الهند، فمات بزبيد (5). وكان أسطولهم أكبر أسطول في وقته، بشهادة طلب كل من صلاح الدين وملك الاسبان له (6)، وكان جيشهم في واقعة العقاب أكبر جيش شاهده المغرب الاسلامي، ونطقت بهذه العظمة آثارهم متمثلة في صوامع الكتبيين واشبيلية وحسان.

ويظهر طابعهم الديني في اهتمامهم به على أتم ما عرف. فقد كانت لهم همة عالية في الجهاد، وكان يعقوب يريد أن يجعل من الأندلس دار إسلام (7).

ولقد رمزوا لعلو همتهم في الجهاد برمزين ناطق وصامت : فالناطق يتمثل في الآيات التي كتبوها على باب القصبة الشرقي بالرباط : يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم : تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله، إلى قوله : وبشر المومنين (8). والصامت هو ما نقش حول إحدى نوافذ صومعة حسان جهة البحر : من صورة سيفين عظيمين مصلتين رؤسهما الى السماء، وفي تخصيص تلك الجهة بهاتين الصورتين إرهاب للعدو المهاجم من البحر، ورمز الى التهيء له والاستعداد (9).

3) المقتبس من الأنساب في معرفة الأصحاب 30 ــ 32
4) المعجب 188
5) الديباج ص 322. النفح (1) 435ــ436
6) لاستقصا (1) 174 و176
7) حلل 122
8) مقدمة الفتح 47
9) مقدمة سوق المهر ج ــ د

وإنهم بلغ بهم الاهتمام بإقامة الاسلام الى حد أن قتل بعض خلفائهم على شرب الخمر (10)، وقتل آخر من رؤى وقت الصلاة غير مصل (11)، وإلى حد أن لم تنعقد عندهم ذمة ليهودي ولا نصراني إنما هو الاسلام أو القتل (12)، وإن شئت شاهدا آخر على عظيم اهتمامهم بالاسلام فاستمع لشهادة رحلة عظيم ــ هو ابن جبير ــ الذي ساح في كثير من ممالك العالم الاسلامي، وقال : وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة... كما أنه لاعدل ولا حق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين... (13).

ويتجلى طابع التجديد في ابتداعهم فكرة المهدوية بالمغرب، ونشرهم عقائد الأشعرية والشيعة، وحمل الناس على مذهب الظاهرية، وتأسيسهم (لأول مرة في المغرب) المستشفيات والمدارس العديدة والمكاتب العامة ودار الضيافة، وفيما ظهر في وقتهم من كثير من العلوم والآداب والفنون، مما لم تكن شائعة من قبل، وفي ابتكاراتهم في غير ما ميدان، سيما الحرب والادارة، (14).

وبالاجمال كانوا يريدون أن ينشروا حضارة مطبوعة بطابعهم الثلاثي : العظمة ــ الدين ــ التجديد، وكانوا يريدون أن تكون هذه الحضارة لا شرقية ولا أندلسية محضة، ولكنها حضارة قائمة بنفسها، آخذة من هذه وتلك وغيرهما، وإن طغت عليها الحضارة الأندلسية فيما بعد.

المؤثرات التي أثرت في نهضة المعارف على عهد الموحدين

إن الموحدين لم يجدوا من المغرب بلادا قاحلة من المعارف، وبالعكس وجدوها بلغت شأوا كبيرا في هذا الميدان، بشهادة قول المعجب (15) : «فانقطع الى أمير المسلمين ــ يوسف بن تاشفين ــ من الجزيرة من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق

10) وفيات الاعيان (2) 432. النفح (2) 100.
11) تاريخ أبي الفداء (3) 42.
12) انظر المعجب 203 ــ 204.
13) « رحلة 49
14) انظر مجموع رسائل موحدية 53.
15) المعجب ص ــ 104.

اجتماعه في عصر من الأعصار»، وقوله «ولم يزل أمير المسلمين ــ علي بن يوسف ــ من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك، وإن المرابطين لم يكونوا يولون في عملهم إلا الفقهاء» (16)، وهذا يتطلب عددا كثيرا جدا منهم.

نعم، كان فضل الموحدين على المعارف عظيما، فإنهم حافظوا على ما اختاروه منها الى حد كبير وشجعوها، كما شجعوا كثيرا من العلوم التي لم تكن رائجة أو كان محظورا رواجها في العهد المرابطي، وطبعوا كل ذلك بطابعهم الثلاثي الخاص، وإن تشجيعهم للمعارف التي كانت شائعة في عهدهم بلغ مبلغا عظيما، وكان تشجيعا ماديا وأدبيا تفننوا فيه ما شاءت لهم هممهم الكبيرة أن يتفننوا.

فأسسوا المدارس، وعمروا المعاهد، وجلبوا كبار العلماء، واقترحوا تدوين الكتب، وعقدوا المناظرات والامتحانات، وجمعوا المجامع العلمية المتنوعة، وأسسوا خزائن الكتب، وسبقوا الى التعليم الاجباري، وابتكروا التعليم المجاني، ووضعوا مناهج التعليم، وإنهم لرغبتهم في نشر العلم علموا حتى باللسان البربري وكذا أحيوا سنة اهتمام عظماء المسلمين بالترجمة، فأمروا بترجمة كثير من الكتب المهمة، وانظر بخصوص هذا ما سنذكره في مبحث الفلسفة. هذا الى ما أضفوا على العلم وأهله من مرتبات وجوائز وصلات، وخلع ومراكب، وإقطاعات وتنويهات وولايات، فقد فعلوا في ذلك ما سارت بحديثه الركبان، بل إنهم شجعوا المعارف بأنفسهم وفي شخصهم، فكان كثير من خلفاء الموحدين وأمرائهم فقهاء علماء، قال السرخسي في رحلته : وهؤلاء بنو عبد المومن كلهم فقهاء علماء... نقله الزياني في الروضة السليمانية عن النفح. هذا الى ما وجد في المغرب على عهدهم من أعلام كبار من الأندلس والقيروان وغيرهما، حتى اجتمع في فاس ــ على حد تعبير المعجب 238 ــ علم القيروان وعلم قرطبة.

وصارت مراكش هي الأخرى عاصمة علم ثانية، الأمر الذي له دخل كبير في تسمية غير واحد لها ببغداد المغرب، وكذا سبتة وطنجة وغير مدينة من مدن المغرب، وكذا وجد في المغرب لهذا العهد عدد عديد من الأدباء والفنانين من أهله ومن الوافدين عليه.

يضاف الى هذا الحجم الغفير من العرب الذين توافد على المغرب في غضون هذه الدولة أيام عبد المومن ثم يعقوب، هؤلاء العرب الذين بلغوا من الكثرة الى حد أن قاسموا سكان المغرب الأولين الأرض، وأصبحوا يعمرون جزءا كبيرا منه. (17).

16) نص القرطاس ص 85، جذوة الاقتباس 342.

17) انظر المقدمة 27، والاستقصا ج 1، ص 166.

ولقد كان من آثر هذه الهجرة أن طبع المغرب نهائيا بالطابع العربي، وارتكزت فيه اللغة العربية والدم العربي على أساس وإلى الأبد.

وكذا عمر المغرب في هذا العهد عمارة كبيرة، والمعارف تكثر حيث يكثر العمران. (18).

وانتشر الأمن في غير ما حقبة من أيام الموحدين، حتى كانت الظعينة تخرج من بلاد نول لمطه وتنتهي الى برقة وحدها لاترى من يعرض لها ولا من يكلمها. (19).

وكان من نتائج هذه العلمية أن مهدت الطريق لمن أراد أن يسافر من المغرب أو إليه للعلم أو للسياحة.

وشاعت الحرية في هذا العهد في الجملة، حتى استطاع الشاعر الجراوي أن يرد على يوسف بن عبد المومن رده المشهور (20)، والمؤلفات التي كانت تطعن في حكومة الموحدين وفي المبادىء التي تقوم عليها، كان عبد المومن يأمر العلماء والكتاب الذين امتازوا بقوة الحجة بكتابة الردود عليها، مثال ذلك ما أمر بكتابته ضد الكاتب القرطبى أبي الحسن عبد الملك بن إياس. (21).

هذا الى أن المال تدفق على القوم تدفقا حتى كان خراج افريقية وحدها في كل سنة وقر مائة وخمسين بغلا (22). وأنفق الناصر في غزوة افريقية مائة وعشرين جملا ذهبيا، وأعطى يوسف لهلال بن سعد في يوم واحد فقط إثني عشر ألف دينار (23)، ولما تمت بيعة المنصور كان أول شيء فعله أن أخرج مائة ألف دينار ذهبا من بيت المال، ففرقها في الضعفاء من بيوتات بلاد المغرب (24)، وتصدق قبل خروجه الى غزوة الأرك بأربعين ألف دينار، قال في المعجب (25) : خرج منها للعامة نصفها، والباقي في القرابة، أدركتهم وقد قسموا مدينة مراكش أرباعا وجعلوا في كل ربع أمناء، معهم أموال يتحرون بها المساتير وأرباب البيوتات، وفرق يعقوب هذا على الجنود والأمراء والفقراء في عيد (594) : 73000 شاة من ضأن ومعز (26).

18) المقدمة ص 379.
19) القرطاس ص : 138.
20) انظر وفيات الاعيان ج 2 ص : 494 — 495.
21) تاريخ الاندلس ج 2 ص : 54.
22) المعجب 167 — 213.
23) المعجب ص : 166.
24) القرطاس 137.
25) المعجب 190.
26) النفح ج 2 ص : 100.

وكان بستان واحد ـ هو الذي غرسه عبد المومن خارج مراكش ـ يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه عام (543) : 30000 دينار، على رخص الفواكه بمراكش، قال ابن اليسع، حلل 100، وبلغ ثمن زيتون بحيرة مكناس 35000 دينار ونحوها في السنة، وزيتون بحيرة فاس 50000 دينار ونحوها كذلك، (الروض الهتون)، ورأى ابن سعيد بسجلماسة صكا لأحدهم على آخر مبلغه 40000 دينار، (27).

وبالطبع نال أهل المعرفة حظهم وافرا من هذا، ومن أمثلته : أن يوسف جعل المرتبات للأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء وغيرهم، حسبما أشار لهذا عرضا في المعجب (157)، وبديهي أنها ما كانت لهؤلاء حتى كانت لغيرهم، وأجرى يعقوب المرتبات على العلماء والطلبة عل قدر مراتبهم وطبقاتهم (28) : ووصل للقاضي الصقلي من يعقوب المذكور فقط 19000 دينار، خارجا عن الخلع والمراكب والاقطاع، «معجب 209. الذخيرة السنية 50»، وأعطى عبد المومن للشاعر التيفاشي على بيت أحد أنشده إياه من قصيدة : ألف دينار (29)، وأعطى يعقوب لرسول صلاح الدين ابن منقد لما مدحه بقصيدة تشتمل على أربعين بيتا ألف دينار لكل بيت، (30). وأمثال هذا كثير، تلك جملة من دواعي نهضة المعارف في عصر الموحدين.

وبما أنه ورد في حديثنا في هذا الموضوع ازدهار حركة التعليم بالمغرب، والجامع، والخزائن، وبما أن هذه الثلاثة تتطلب شيئا من التبسط، فسنتكلم على أوليها هنا مرجئين حديث الخزائن الى محله (مبحث الفنون).

ازدهـار المعـارف بالمغـرب

I معاهـد التعليـم

لاشك أننا سنجد في مقدمة معاهد التعليم لهذا العهد الجوامع والكتاتيب، وسأكتفي في الحديث عن هذين المركزين للتعليم بما سأذكره عنهما بعد، أما ثالث هذه المراكز ـ المدارس ـ فهي التي سأتحدث عنها في هذا المكان، وابين ـ ردا لبعض الاعتقادات ـ أنها كانت متوافرة بالمغرب لعهد الموحدين، وذلك بما أسسه هؤلاء من مدارس بمدائن سبتة وطنجة وفاس ومراكش، انتجت مدرسين بارعين سابقوا علماء قرطبة واشبيلية وغرناطة (31).

27) صبح الاعشى (5) 164.
28) القرطاس 138.
29) وفيات الاعيان ج 1 ص : 391.
30) النفح (1) 207.
31) كما تقول هذا ترجمة تاريخ العرب للاستاذ سدية المعنونة بخلاصة تاريخ العرب 215.

ويقترن اسم عبد المومن وحفيده يعقوب المنصور بكثير من المدارس المنشأة في هذا العصر، فقد أسس عبد المومن مدارس بمراكش واستدعى ابن رشد الثاني ليستعين به على تنظيمها. الاعلام (3) 47 ولا شك أن في مقدمة هذه المدارس : المدرسة العامة لتخريج الموظفين، المذكورة في الحلل الموشية (114)، المدرسة الملكية وتعليم الأمراء الموحدين أخذا مما سنذكره في مناهج المدارس قريبا. كذلك أسس عبد المومن بالرباط مدرسة تعليم فن الملاحة (32).

ويعقوب المنصور هو الآخر أسس مدارس لا في المغرب فحسب، بل وفي أفريقية والأندلس (33)، ومن المدارس التي حافظ التاريخ على اسمها مما أسسه بالمغرب : المدرسة التي أنشأها بالمدينة التي اختطها خارج مراكش، ذكرها في مسالك الأبصار. وصفها بأنها مكان جليل به خزائن الكتب. ومدرسة المسجد الأعظم بطالعة (34) المدرسة التي سلمها المنصور للامام أبي العباس السبتي. (35).

وفوق هذا فإن بعض الأفراد ساهموا كذلك في إنشاء المدارس، ونقصد بهذا البعض أبا الحسن الشاري الغافقي السبتي، ابتنى المدرسة المنسوبة إليه ببلده سبتة، ثم أراد أن يجعلها على النسق الجاري بالمدارس ببلاد الشرق، فعاق عن كمال غرضه في ذلك قواطع الفتن. (36)، ويفيد هذا المصدر الثاني : أنه كان لهذه المدرسة بقعة محبسة على دفن من يموت من طلبتها الغرباء.

وهناك بيت الطلبة : ويلحق بالمدارس بيت الطلبة بمراكش، الذي ورد ذكره عرضا في عنوان الدارية (161)، ثم في النفح (1) 369. وقالا عنه إنه امتحن به ابن عات في كتاب مسلم، ولست أدري عن هذه المؤسسة أكثر من هذا، وهو يفيد أنها كانت معهدا للمناظرة وامتحان الواردين على مراكش.

ذلك ما وقفت عليه من المدارس وما إليها المؤسسة لهذا العهد، فإذا ضمت للمركزين للتعليم المشار لهما أولا، تكون معاهد التعليم حينئذ تتنوع الى جوامع، وكتاتيب، ومدارس، بما فيها من عامة، وملكية وبحرية، وبيت الطلبة الملحق بها.

وبعد أن أؤكد أن الذي استفدته من غير ما مرجع أن منهاج الكتاتيب في هذا العهد كان جاريا على مذهب المغاربة في تعليم القرآن الذي ذكره ابن خلدون في المقدمة : 495،

32) انظر مقدمة الفتح 42 — 61.
33) القرطاس 138، رقم الحلل 55.
34) الاستقصا (1) ص : 180.
35) الاعلام ج 1 — 269.
36) صلة الصلة ج 300. اختصار الاخبار 9.

مدارس الموحدين * ــ غير البحرية ــ عامة وخاصة؛ كانت مناهجها على غرار منهاج تلك المدرسة، وإن كانت المدرسة الملكية تمتاز بمبالغة الخلفاء الموحدين في اختيار أساتذتها، الذين نذكر منهم على سبيل المثال : أبا العباس أحمد بن عبد الجليل التدميري المتوفي 555، استأدبه السلطان ــ عبد المومن ــ بمراكش لبنيه (38). وأبا العباس أحمد بن حسن بن سيد الجراوي المالقي المتوفى بعد 560 : أدب بني عبد المومن، بغية 130. وأبا محمد عبد الله بن أحمد بن محمد اللخمي الأشبيلي المعروف بابن علوش والمتوفى بعد 599 ــ استأدبه المنصور لبنيه (39)، وأبا محمد عبد الله ابن سليمان ابن حوط الله الأنصاري الحارثي البلنسي 549 ــ 612 استأدبه المنصور لبنيه. تكملة 1435، وأبا الحسن علي بن محمد بن يوسف الفهري اليابري الضرير المتوفى : 617، أدب ولد السلطان بمراكش (40).

2. الجوامع

والجوامع كانت كبارا مثل القرويين وجامع سبتة، وكذا جامعا مراكش ومكناس، وجوامع كبريات المدن المغربية الأخرى، كما كانت ــ طبعا ــ جوامع صغار.

وكانت العادة أن لاينتصب للتدريس في الجوامع الكبار إلا من انتهت إليه المهارة في العلم والدين في وقته، وكانوا ينازعون أنفسهم في هذه المرتبة، حسبما يوخذ هذا من النشر المخطوط، ورقة 286 نسخة ــ المكتبة الأحمدية ــ بفاس، وكان أسلوب التدريس عندهم ممتازا، وكان يقوم على التدريج بالمتعلمين في مدارج التعليم، ومن أمثلة هذا ما جاء عن الأستاذ أبي علي الشلوبين أنه دخل مراكش فوجد الشيخ الجزولي النحوي يدرس في مسجده علم العربية، فلما قعد إليه إذا بين يديه حلقة من المتبدئين يقرئهم على قدر أفهامهم، فألقى عليه سؤالا فأجابه بجواب متوسط على قدرهم، ثم ارتفعوا فجاءت حلقة أخرى للنجباء الشادين، فكان يلقى حينئذ الأسئلة فيجيبه بغاية التحقيق والتدقيق (41). ومن أمثلة هذا أيضا، ما جاء عن الحفيد أبي بكر بن زهر الأندلسي الأشبيلي 507 ــ 595، وهو ممن أقام بمراكش من المغرب مدة وتوفي بها، الأمر الذي يمكنه معه أن ينشر مثل أفكاره الآتية :

* لاينبغي أن تتناول المدارس بحث الطلبة الذي لم أقف من نظامه على أكثر مما ذكرت عنه سابقا.

38) التكملة ط الجزائر ع. 175

39) التكملة 1421.

40) تكملة 1892.

41) نقله في القاموس ص : 126 ــ 127.

وهو الاقتصار على تعليم الولدان القرآن، وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لايخلطون ذلك بسواه، بعد هذا نحاول فيما يلي أن نستعرض نظام الدراسة في هذا العهد.

مناهج التعليم وأساليبه

وحسب تنوع مراكز التعليم بالمغرب لابد أن تكون مناهجها مختلفة، فهناك منهاج للمدارس. وآخر للجوامع، وثالث للتعليم الاجباري.

ومن المؤسف أننا لم نقف على نصوص تلقي الضياء واضحا على المسألة، فبعض المدارس كمدرسة تعليم فن الملاحة بالرباط، لم نقف من منهاجها على قليل ولا كثير، وبعض المدارس وكذا الجوامع مع التعليم الاجباري، عثرت بفقرات عرضية تلقي بصيصا من العلم على الموضوع، وهذا ما وقفت عليه على علاته.

1. المـدارس

من حسن الحظ أن صاحب الحلل الموشية أفادنا معلومات ـ وإن كانت غير كافية ـ فهي قيمة وفريدة عن منهاج المدرسة العامة لتخريج الموظفين بمراكش، قال 114 : وربّى ـ عبد المومن ـ الحُفّاظ ـ صغار الطلبة ـ بحفظ كتاب الموطا؛ وهو كتاب أعز ما يطلب، وغير ذلك من تواليف المهدي، وكان يدخلهم في كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر فيجتمع الحفاظ فيه؛ وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة من المصامدة وغيرهم، قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريده، فيأخذهم يوما بتعليم الركوب، ويوما بالرمي بالقوس، ويوما بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانة مربعة؛ طول تربيعة نحو ثلاثمائة باع، ويوما يأخذهم بأن يحذقوا على قوارب وخوازيق صنعها لهم في تلك البحيرة، فتأدبوا بهذه الآداب، تارة بالعطاء، وتارة بالأدب.

وكانت نفقتهم وسائر مؤنتهم من عنده، وخيلهم وعددهم كذلك، ولما كمل له هذا المراد فيهم عزل بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة، وقال : العلماء أولى منكم فسلموا لهم.

ويفيد الأستاذ يوسف أشباخ في تاريخ الأندلس (2) 51 أن هؤلاء الحفاظ كانوا يدرسون أيضا عدة كتب في إدارة الولايات ومزاولة شؤون الدولة دراسة حسنة (37).

فهذا الكلام يصور لنا بعض منهاج هذه المدرسة، ويبين أنها كانت مخصصة لتخريج موظفين علماء كما قلنا أولا، كما أن الجوامع كانت تخرج العلماء الآخرين، ولا يبعد أن باقي

37) تاريخ الاندلس 2، 248 ، 252.

قال في عيون الأنباء في طبقات الأطباء (42) :(كان الحفيد أبو بكر بن زهر قد أتى إليه من الطلبة إثنان ليشتغلا عليه بصناعة الطب، فترددا إليه ولازماه مدة، وقرا عليه شيئا من كتب الطب، ثم إنهما أتياه يوما وبيد أحدهما كتاب صغير في المنطق... وكان غرضهم أن يشتغلوا فيه، فلما نظر ابن زهر الى ذلك الكتاب قال : ما هذا ؟ ثم أخذه ينظر فيه، فلما وجده في علم المنطق رمى به ناحية، ثم نهض إليهم حافيا ليضربهم، وانهزموا قدامه، وتبعهم يعدو على حالته تلك وهو يبالغ في شتمهم وهم يتعادون قدامه إلى أن رجع عنهم عن مسافة بعيدة، فبقوا منقطعين عنه أياما لايجسرون أن يأتوا إليه. ثم إنهم توسلوا إلى أن حضروا عنده واعتذروا بأن ذلك الكتاب لم يكن لهم ولا لهم فيه غرض أصلا، وأنهم إنما رأوه مع حدث في الطريق وهم قاصدون إليه فهزءا بصاحبه وعبثوا به وأخذوا منه الكتاب قهرا، وبقي معهم ودخلوا إليهم وهم ساهون عنه، فتخادع لهم وقبل معذرتهم، واستمروا في قراءتهم عليه صناعة الطب. ولما كان بعد مدة مديدة أمرهم أن يجيدوا حفظ القرآن، وأن يشتغلوا بقراءة التفسير والحديث والفقه، وأن يواظبوا على مراعاة الأمور الشرعية والاقتداء بها، ولا يخلو شيء من ذلك، فلما امتثلوا أمره، واتقنوا معرفة ما أشار به عليهم، وصارت لهم مراعاة الأمور الشرعية سجية وعادة قد ألفوها، كانوا يوما عنده وإذا به قد أخرج لهم الكتاب الذي كان رآه معهم في المنطق، وقال لهم الآن صلحتم لأن تقرؤوا هذا الكتاب وأمثاله علي وأشغلهم فيه).

ومما يذكر من مناهج التعليم الجامعي : أن التلاميذ كانوا أحرارا في إلقاء الأسئلة على الأستاذ، وانظر في ذلك ما جاء في ترجمة أبي ذر الخشي من التكملة رقم 1098 : قد منع تلاميذه التبسط في السؤالات، وقصرهم على ما يلقى إليهم دون استزادة؛ ولم يكن ذلك لأحد من أهل عصره.

كما كان التلاميذ أحرارا في اختيار الأستاذ الذي يقرءون عليه، يشير لهذا ما فعله طلبة سبتة مع أستاذها أبي علي الرندي؛ فإنه لما ورد عليها الأستاذ أبو علي ابن عاشر الملقب بقريعات، مال إليه ناس من طلبتها، وزعموا أنه أبسط عبارة من الرندي وأسهل القاء، فاستجاب إليهم غيرهم (43). ولم تخل دروسهم في هذا العهد من المناظرة.

هذه الطريقة التي بالغ ابن خلدون في الثناء عليها في مقدمته تحت عنوان : فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع (44)، وفيما سيأتي في مبحث علم المناظرة نذكر أسماء طائفة من العلماء الذين كانوا مبرزين في هذا الفن.

42) ج. 2 ص : 69 ـ 70.

43) صلة الصلة رقم 126.

44) ص : 375 وما بعدها.

3. التعليم الاجباري

وهذا نوع آخر من مناهج التعليم لدى الموحدين، وهو الذي وضعه عبد المومن للتعليم الاجباري، ويقوم هذا النهاج على أنه يجب على كل من انضوى تحت راية الموحدين أن يتعلم الضروري من العقائد وما يتعلق بالصلاة. وقد بالغ عبد المومن في هذا الأمر؛ فجعله حتما لازما على كل مكلف ــ الرجال والنساء. الأحرار والعبيد ــ ورخص لمن يفهم اللسان البربري دون العربي أن يقرأ بلسانهم عقيدة ابن تومرت البربرية ــ التوحيد ــ أما الذين يفهمون العربية؛ فكان لزاما أن يقرأوا عقيدة ابن تومرت العربية ــ المرشدة ــ وأكد على الجميع في حفظ ذلك وتدبره، وملازمة قراءته وتعاهده، كما أكد على العوام ومن في الديار في حفظ أم القرآن وما تيسر من القرآن وألزم نوابه أن يقدموا علماء أمناء من قبلهم ليعلموا الناس ماذكره«مجموع وسائل موحدية،131 ــ 133 و 137»وزيادة في الاهتمام بهذا الأمر، نرى عبد المومن يشرف بنفسه على مباشرة هذا النوع من التعليم الاجباري بمراكش وناحيتها ويكتب الى نواحي المملكة الأخرى يقص عليها عمله هذا، ويأمرها بأن تحتذي حذوه، وتقوم بدورها بتطبيق هذا المنهاج (45).

ويلحق بكتابي المهدي المقررين في التعليم الاجباري مجموع أحاديث الجهاد، الذي أمر يوسف العلماء بتدوينه ليملى على الموحدين ليدرسوه، فكان يمليه على الناس بنفسه، وكان كل واحد من الموحدين والسادة يجيء بلوح يكتب فيه الاملاء (46). وكذا مجموع أحاديث الصلاة وما يتعلق بها الذي جمعه بأمر يعقوب طائفة من العلماء، فكان يمليه بنفسه على الناس ويأمرهم بحفظه، وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السني من الكسا والأموال (47).

4. كتب الدراسة

أ. التفسير. الحديث. السيرة

الكتب الخمسة : صحيح البخاري، صحيح مسلم. سنن أبي داوود، سنن الترمذي، سنن النسائي، مسند البزار الكبير (48).

موطا مالك (49)، موطا بن تومرت ــ أعز ما يطلب (50)، أحاديث الجهاد التي أمر

45) ارجع الى المصدر المذكور 52 ــ 54.

46) معجب ص : 184.

47) معجب ص : 184.

48) صلة الصلة 300، التكملة 2006. الدر النفيس 351، الاعلام (1) 237 (3) 42. الجذوة 334.

49) صلة 208، 242، 300، الدر النفيس 351.

50) الحلل الموشية 114.

يعقوب المنصور بجمعها، (معجب 167)، الشهاب للقضاعي المسمى بشهاب الأخبار في الحكم والأمثال والاداب من الأحاديث النبوية، للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (51)، سيرة ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام، (52).

ب. الفقه ـ الأصلان ـ التصوف.

الأحاديث التي جمعها ابن تومرت في الطهارة، أحاديث الصلاة التي أمر يعقوب بجمعها (53)، الأحكام الصغرى لعبد الحق (54)، النوادر لابن أبي زيد (55)، كتاب ابن يونس (56)، تهذيب البرادعي للمدونة (57)، رسالة ابن أبي زيد (58)، تأليف عباد بن بزجان في الفرائض (59)، البرهان لامام الحرمين (60). التلخيص مختصر التقريب والارشاد له، (61)، المستصفى للغزالي (62)، رجز ابن الكتاني (63)، الارشاد لامام الحرمين (63)، الارشاد لامام الحرمين (64)، عقيدة ابن تومرت العربية ـ المرشدة ـ (65)، عقيدته البربرية : التوحيد ـ القواعد ـ الامامة ـ الاثنان لابن تومرت أيضا (66). العقيدة البرهانية للسلاجي (67)، شعب الايمان للقصري (68)، الاحياء للغزالي (69)، رعاية المحاسبي (70).

51) التكملة 1608، الجذوة 263.
52) الصلة 300.
53) المعجب 184.
54) التكملة 1067. زهرة الاس 48. الدر النفيس 351.
55) مقدمة ابن خلدون 393.
56) المقدمة 393. المعجب 185.
57) جذوة 254.
58) الديباج 129 ــ 130 الاعلام (1) 288.
59) التكملة 1674.
60) الصلة 242.
61) التكملة 1062.
62) الديباج 142.
63) التكملة 1062.
64) التكملة 868 ــ 1062
65) رسائل الموحدين 132.
66) الحلل 80.
67) الجذوة 289.
68) التكملة 1495 ــ الجذوة 247.
69) السلوة 133.
70) الجذوة 282 ــ 294 ــ 333

ج. النحو، اللغة، القرآن، الأدب الحساب.

كتاب سيبويه (71)، الجمل بشرحه لأبي العبدري (72)، شرح أبيات الجمل، نكث على شرح الأعلم لشواهد كتاب سيبويه، الاثنان لابن هشام اللخمي السبتي (73)، مقدمة الجزولي المسماة بالقانون (74). شرح أبي ذر على غريب السير لابن اسحاق (75)، المذهبة في الحلي والشياب وغيرها لابن اصبغ الأزدي (76)، شرح أبي عمرو الغافقي على قصيدة الحصري في القراءات (77)، المنصف في رسم هجاء المصحف، (شرح ابن عاشر على مورد الظمآن)، رسالة القلم والدينار لابن ماكولا (78)، مقامات الحريري (79)، مقصورة ابن دريد بشرح ابن هشام السبتي (80)، صفوة الآداب ونخبة ديوان كلام العرب للجراوي (81)، لب اللباب في مسائل الحساب لابي الحسن أبي فرحون القسي (82) منظومة ابن الياسمين في الجبر (83).

هذه الكتب هي التي أمكنني الآن استخراجها من المصادر المشار لها تصريحا في الأكثر وتلويحا في الأقل. وإن هذه الكتب وإن لم تستوعب كل كتب الدراسة في هذا العهد، ولم تتناول كثيرا من كتب الفلسفة بسائر أنواعها التي كانت شائعة في هذا العصر، ولم تتناول كتب كثير من العلوم الأخرى، فإنها بالرغم عن ذلك تعطينا مثالا يدل على ما وراءه.

5. ملاحظات

تبين مما ذكرنا عن مناهج التعليم وأساليبه لهذا العهد أمور جديرة بالاهتمام، فإن عبد المومن نشأ التلاميذ الذين جمعهم في مدرسته على حفظ كثير من الكتب. وكان هؤلاء التلاميذ كأبناء ليلة واحدة، وكانوا يمرنون على أنواع الرياضات، ويربون بالأدب تارة وبالعطاء أخرى، وكانت نفقتهم وسائر مئونتهم على حساب عبد المومن ـ كما رأينا في التعليم الجامعي؛

71) تكملة 122. الاعلام (3) 192.
72) التكملة 751.
73) التكملة 1053 ـ البغية 19.
74) الصلة 95.
75) تكملة 1098.
76) تكملة 962.
77) التكملة 1152.
78) التكملة 1674
79) التكملة ط الجزائر 461
80) التكملة 1053 بغية 19
81) التكملة ط الجزائر 223
82) صلة 238. جذوة 306
83) الذخيرة 39

أنهم كانوا يتدرجون بالتلاميذ في مدارج التثقيف ـ وفي التعليم الاجباري أنه كان حتى بالبربرية، وتناول حتى النساء.

ولانرى أن نمر بهذه النقط البارزة في تلك المناهج والأساليب، دون أن نعلق عليها في شيء من التوسع؛ ونبين أن الموحدين تأثروا بالغزالي شيخ إمامهم ابن تومرت في شيء غير قليل من تلك الأنظمة، فإنهم قلدوه.

1. في إدماج الرياضة في مناهج التعليم، هذه المسألة التي أهملت بأوربا في القرون الوسطى، وأحياها الموحدون تبعا للغزالي الذي يقول في الأحياء (84) : «ويعود الصبي في بعض النهار المشي والحركة والرياضة، حتى لايغلب عليه الكسل... وينبغي أن يوذن له بعد الانصراف من الكتب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب الكتب، بحيث لايتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعليم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا ».

2. وانهم كانوا يرمون بهذا إلى قرن الخدمة العسكرية والتمرين في فنون الحرب بالتعليم، ذلك أنهم كانوا يخشون أن يؤدي الانقطاع للعلم والدرس الى إضعاف الهمم وفتور الحماسة الحربية لدى المغاربة (85).

3. كما تأثروا بالغزالى أيضا في مزج الأدب بالعطاء، وفي هذا يقول في الأحياء (86) : ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل. وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه، ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه، فإن عاد ثانيا فينبغي أن يعاتب سرا ويعظم الأمر فيه... ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين، فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه.

4. وتأثروا به أيضا في مراعاة التدريج في ترقية التلاميذ من رتبة الى رتبة، وهذا كلام الاحياء في الموضوع (87) وفيه يقرر أن يطلب من المعلم أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لايبلغه عقله، فينفره أو يخبط عليه عقله... وأنه ينبغي أن يلقي إلى المتعلم القاصر الجلي اللائق به، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيق وهو يدخره عنه...

5. وإن الموحدين لم يقفوا عند تقليد الغزالي، فقد ابتكروا التعليم الاجباري الذي لم يفكر فيه بأوربا إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (م).

84) ج 3 ص. 63

85) انظر تاريخ الأندلس 2. 51

86) ج (3) 63

87) ج (1) 51

6. وجروا على منهاج. التعليم بأكثر من لغة.

7. سنوا التعليم المجاني بأوسع معانيه، فإن عبد المومن ـ كان زيادة على قيامه بنفقات التعليم ـ يقوم الى جانب ذلك بنفقة التلاميذ ومئونتهم وخيلهم وعددهم كما تقدم لنا.

8. وكانوا يراعون وحدة السن في التلاميذ الذين كانوا في مدرسة عبد المومن ثلاثة الاف كأنهم أبناء ليلة واحدة.

9. كذا اهتموا بالحفظ في هذه المدرسة اهتماما ظهر أثره في نبوغ حفاظ كبار في العهد الموحدي في مختلف العلوم، وسوف يمر بنا ذكر زمرة كريمة من هؤلاء في تضاعيف الحديث عن العلوم والآداب.

وبعد هذا ننبه ـ تعليقا على إدخالهم النساء في التعليم الاجباري ـ الى أنهم لم يقفوا بالمرأة عند هذا الحد من التثقيف، بل وسعوا نطاق تعليمها، وضربوا ببناتهم مثالا لما ينبغي أن تكون عليه المرأة المغربية، ومن بنات الخلفاء المثقفات التي حافظ عليها التاريخ (زينب بنت يوسف بن عبد المومن) حرم الأمير عبد الرحمن بن عمر بن عبد المومن، أخذت عن أبي عبد الله بن ابراهيم علم الكلام وغير ذلك، وكانت عالمة صائبة الرأي فاضلة معروفة بالشفوف على نساء زمانها، وترجمتها في التكملة وزوائدها عدد 2122.

وكما ضربوا ذلك المثل الملكي لتعليم المرأة، كذلك نراهم يولون النساء المثقفات على عهدهم التفاتا خاصا يفتحون أبوابهم في وجوههن، ويصلونهن، ويزيحون ظلامتهن، ويستمعون ـ هم وبعض أمرائهم ـ لأدبهن، بل لقد وظفوا بعضهن معلمات بقصر الخلافة. وعلى سبيل المثال نذكر الأديبة الشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية، كانت أستاذة وقتها، وانتهت الى أن علمت النساء في دار المنصور، وتوفيت بمراكش آخر سنة 586 (88).

ومما قالته في عبد المومن وانشدته ارتجالا بين يديه :

يا سيد الناس يا من ... يؤمل الناس رفده
امنن على بطرس ... يكون للدهر عدة
تخط يمناك فيه ... الحمد لله وحده (89)

وكتبت الى السيد أبي سعيد أمير غرناطة تهنئه بيوم عيد :

ياذا العلى وابن الخليفة ... والإمام المرتضى
يهنيك عيد قد جرى ... فيه بما تهوى القضا

88) الاحاطة (1) 318
89) التكملة 2891. النفح 2. 430

وأتـــاك من تهواه في   قيـد الانابـة والـرضى
ليعيـــد من لذاتــه   ما قد تصرم وانقضى (90)

والأديبة أسماء العامرية الاشبيلية، كتبت الى عبد المومن رسالة تمت إليه فيها بنسبها العامري، وتسأله رفع الانزال عن دارها والاعتقال عن مالها، وفي آخرها قصيدة أولها :

عرفنـا النـصر والفتـح المبينـا   لسيدنـــا أمير المومنينـــا
إذا كان الحديث عن المعـالي   رأيت حديثكـم فيها شجونـا
ومنها:رويتم علمـــه فعلمتمـــوه   وصنتم عهده فغـدا مصونـا (91)

والأديبة الشلبية ـ لم يعرف اسمها ـ كتبت الى السلطان يعقوب المنصور تتظلم من ولاة بلدها وصاحب خراجها :

قد آن أن تبكي العيون الأبية   ولقد أرى أن الحجارة باكيـة
ياقاصد المصر الذي يرجى به   إن قدر الرحمن رفـع كراهيه
ناد الأمير إذا وقـفت ببابــه   ياراعيـا أن الرعيـة فانيـــه
أرسلتها هملا ولا مرعــى لها   وتـركتها نهب السبـاع العافيــه
شلب كلا شلب وكانت جنة   فأعادهـــا الطاغــون نارا حاميـــه
خافـوا ما خافـو عقوبـة ربهم   والله لاتخفــى عليــه خافيــه

فقال : إنها ألقت يوم جمعة علي مصلى المنصور، فلما قضى الصلاة وتصفحها بحث عن القصة فوقف على حقيقتها وامر للمرأة بصلة (92).

ومن النساء الأندلسيات اللاتي دخلن المغرب لهذا العهد واتصلن بأعلامه وتوفين به : امرأة تسمى خيرونة أو خدونة، كانت فقيهة صالحة. ومما يذكر من مفاخرها أن باقتراحها وضع الامام السلالجي عقيدته الشهيرة، توفيت سنة 594، ودفنت خارج باب الفتوح بازاء قبر الفقيه دراس ابن اسماعيل (93).

الثانية أم المجد مريم بنت أبي الحسن الشاري السبتي أوردها في (اختصار الأخبار) 6. محليا لها بالمسندة وقال أنها مدفونة بالبقعة المحبسة على دفن من يموت من طلبة مدرسة والدها

90) النفح. 2. 433
91) رمائد التكملة 2830. النفح 2. 493
92) رمائد التكملة 2890. النفح 2. 494
93) مشاهير أعيان فاس في القديم المنسوب لابن الأحمر. الجذوة 290. السلوة. 2. 183

بسبتة. وهذه الفقرة الأخيرة تفيد أن أم المجد كانت طالبة بالمدرسة الشارية المذكورة، كما تفيد أن هذه المدرسة كان يقرأ فيها حتى النساء.

ونتابع هذه الملاحظات ببيان أن منهاج الموحدين في التعليم كان يقوم على اختصار مراحل الدراسة. وهذا ما يفيده ظهور نوابغ مبكرين على عهدهم.

ونشت من هؤلاء أبا محمد عبد الله ابن المعلم تولى خطابة القرويين ـ وناهيك بها إذ ذاك ـ وسنه 18 سنة، (94)، وصاحب المعجب عبد الواحد المراكشي كان من هذا الرعيل كما يفصح عن هذا كتابه المذكور، وكذا صديق له، فقد أثبت لهذا الصديق في المعجب (212 ـ 213) رسالة فائقة كتبها من إنشائه وهو لازال لم يحتلم بعد، يضاف لهؤلاء الامام أبو عبد الله محمد بن يوسف المزدغي الفاسي العالم الجامع المؤلف الكبير، توفي وهو ابن 32 سنة فقط (95).

وكثيرا ما نرى الموحدين يهتمون بهذا النوع من النوابغ المبكرين فالوزير بن عطية وأخوه أبو عقيل اللذان بلغا في أول الأمر مبلغا كبيرا لدى عبد المومن، قتل وسن الأول 36 سنة، وعمر الثاني 23 سنة، كما يذكر هذا في الحلة السيرا لدى ترجمة عبد الله بن خيار الجياني.

وفي الندوة الأدبية التي أقامها عبد المومن فوق جبل الفتح، أنشد بين يديه الشاعر أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسي المعروف بالرصافي قصيدته المطولة، وسنه إذ ذاك لايبلغ العشرين سنة، (96)، كما أنشد في هذا اليوم الشاعر أبو حفص بن سعيد العنسي قصيدة وهو لايزال حدث السن. (97).

كذلك نرى ابن رشد الثاني يتولى القضاء بالمغرب والأندلس هو ابن 27 سنة، (98)، وبعد ابن رشد نرى أبا محمد بن الحفيد أبي بكر بن زهر الطبيب الأول للخليفة الناصر وجليسه، يتوفى وهو لايتجاوز 25 سنة، (99).

تذييل

ونختم الحديث عن مناهج التعليم في هذا العهد بمسائل ثلاث :

1. استدعاء العلماء للتدريس، قال في المعجب 227 : وقد جرت عادتهم ـ

94) القرطاس 42
95) جذوة 138 ـ 139
96) معجب 142
97) حلل 118
98) الاعلام (3) 47 ـ 48
99) طبقات الأطباء (2). 74

الموحدين ـ بالكتب الى البلاد واستجلاب العلماء الى حضرتهم من أهل كل فن وخاصة أهل علم النظر.

ومن أمثلة هذه العادة ما جاء في المصدر المذكور 130 : أن عبد المومن كان يستدعي أهل العلم من البلاد الى الكون عنده والجوار بحضرته، وما جاء في الاعلام (1) 65 : أنه في سنة 585 استدعى يعقوب المنصور العلماء ورواة الحديث وأمرهم بتدريس حديث النبي صلى الله عليهم وسلم.

وفيما يلي أسماء طائفة من هؤلاء العلماء نذكرهم كمثال لسواهم، وهم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي المالقي 509 ـ 581، تكلمة 1613، وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم الأنصاري المالقي يعرف بابن الفخار 511 ـ 590، تكلمة 836. وأبو محمد عبد الله بن محمد الحجري المري 505 ـ 591، تكملة 1416، وأبو الحسن نجبة بن يحيى الرعيني الاشبيلي 521 ـ 597، تكملة 1276، وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الحفيد القرطبي 520 ـ 595، تكلمة 1853، إعلام (3) 47. قرطاس 131، وأبو بكر محمد بن عبد العزيز الرجيني السلاقي الاشبيلي تـ 907، بغية 67، وأبو جعفر أحمد بن عتيق البلنسي 554 ـ 607، بغية 145، وأبو عبد الله محمد بن أحمد اللخمي التلمساني المكناسي الأصل ابن الحجام 558 ـ 614، إعلام (3) 87.

2. إنهم كانوا يبالغون في اختيار العلماء المدرسين وامتحانهم واختبارهم، ومن أمثلة هذا ما كتب به عبد المومن الى نوابه في شأن التعليم الاجباري، فإنه أكد عليهم في اختيار طلبة أمناء، وأن يكونوا من الذين يراقبون ويحافظون، ولا يراعون في حقوق الله ولا يداهنون (100). وفي شرح رقم الحلل 58 : أن المنصور طلب يوما من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين من تعليم ولد وضبط أمر، فعرفه برجلين قال في إحدهما : وهو بحر في علمه، وقال في الاخر : وهو بر في دينه. ولما خرج المنصور أحضرهما واختبرهما فقصرا بين يديه، وأكذبا الدعوى، فوقع المنصور على رقعة القاضي : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ظهر الفساد في البر والبحر.

3. طلبة الموحدين : وكان المعتنون بالعلم قد قسمهم الموحدون الى طبقتين : طلبة المصامدة، وهم من عني بالعلم من هؤلاء، وطلبة الحضر، وهم العلماء من غير المصامدة من المغاربة والواردين على المغرب (101). وكان للطلبة بقسميهم ناد يجتمعون فيه للمناظرة وامتحان

100) انظر مجموع رسائل موحدية 137

101) معجب 130 ـ 227

الواردين من أهل العلم، وهو (بيت الطلبة)، حسبما يؤخذ هذا مما مر لنا عن العنوان، 161 والنفح (1) 369. كما كان لهم رؤساء مختارون من علية لعلم وجلتهم، نذكر منهم على سبيل المثال : عبد الله بن محمد الأنصاري يعرف بابن المالقي، 574، رأس طلبة مراكش (102)، وأحمد بن عتيق البلنسي أبا جعفر الذهبي 607، كان مزوارا للطلبة، (103)، وعلي بن محمد الكتامي الحميري الفاسي يعرف بابن القطان 628، رأس طلبة العلم بمراكش (104)، ووصفه في العنوان 21 بمزوار الطلبة بالمغرب. ويفيد ابن أبي زرع في حوادث 573 ص 172 : أن ابن المالقي المذكور أولا إنما كان رئيسا لطلبة الحضر فقط، مما يشير الى أنه كان لكل صنف من الطلبة رئيس خاص. وكانت بين كثير من طلبة المغرب وطلبة الأندلس صلات علمية وثيقة جدا، وبخاصة بين طلبة سبتة ومقالة، جاء في كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها : أنه كان من بين طلبة مالقة وطلبة سبتة مراسلات نبيهة ومن سوء الحظ إن لم أقف على مثال من مراسلات طلبة سبتة لاخوانهم بمالقة وإنما عثرت على بعض أمثلة من مراسلات طلبة مالقة لطلبة سبتة، ومن ذلك أن أبا القاسم محمد ابن هاشم بن نجيب الشريف الهاشمي المالقي المتوفى عام 613 نظم قصيدة طنانة يمتدح فيها طلبة سبتة ويصفهم بصفاتهم؛ اطلق فيها عنان البلاغة، وقدح زند البراعة، فبلغ فيها مدى الاحسان، وحاز قصب السبق في ذلك الميدان، وقد أوردها برمتها من 200 بيت بالمصدر المذكور الذي ذكر مع ما تقدم قصة هذه القصيدة، وتتلخص في أن طالبا من طلبة مالقة ـ يعرف بأبي الحسن النجار ـ سافر الى سبتة فسجن بها على تهمة سرقة، فتوسل لطلبة سبتة بطلبه فجدوا في أمره حتى استخرجوه من سجنه.

ومن الأمثلة الأخرى لذلك الرسالة التي كتبها لأهل سبتة أبو علي عمر بن عبد المجيد الأزدي ثم المالقي، والمشتملة على عدد من تراجم الأندلسيين، وقد اقتبس من هذه الرسالة لمصدر المذكور في تراجم محمد بن عيسى بن زنون المالقي، ومحمد بن ابراهيم الانصاري، ومحمد بن عبد الله المالقي، ومحمد بن عبد السلام بن مطرف المالقي، ومحمد الحجاري المالقي. ومحمد المعروف بابن الحناط، ومحمد بن أحمد بن عبد الملك الأنصاري.

والى جانب سبتة ومالقة نجد طنجة يرفع نحاتها ومقرؤها سؤالاتهم للنحويين والمقرئين من أهل اشبيلية، حيث ينتدب للجواب عن هذه الأسئلة في تقييد خاص أبو بكر محمد بن خلف ابن صاف اللخمي الاشبيلي.

102) تكملة 1394. نيل 134

103) طبقات الأطباء. 2. 77

104) تكملة 20 (10). نيل 207. جذوة 299

II المجامع العلمية

أ. مجامع الخلفاء

كانت هذه المجامع يعقدها خلفاء الموحدين مع أشياخ علماء الموحدين، وكبار العلماء من الواردين عليهم من مختلف الجهات (105).

وكانت حافلة بالمذاكرة والمناظرة في أنواع العلوم، لما كان يحضرها من علماء وأدباء وأطباء وفلاسفة من مغاربة، ومن الواردين على المغرب : مثل الذين جلبهم الى يوسف أبو بكر ابن طفيل، جاء في المعجب 158 : ولم يزل أبو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الأقطار، وينبه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم، وسلف لنا إنهم جرت عادتهم – الموحدين – بالكتب الى البلاد واستجلاب العلماء الى حضرتهم من أهل كل فن وخاصة أهل علم النظر.

ولم تكن هذه المجامع خاصة بفن، بل كانت تتناول غير ما فن، وكان لكل فن مجلس، فهناك مجلس للمذاكرة في الأدب، ومجلس للمذاكرة في العربية وهلم جرا (106). وكانت تفتتح بإلقاء مسألة من العلم يلقيها الخليفة بنفسه، أو يلقيها باذنه بعض الجلة من الحاضرين، وكان عبد المومن ويوسف يعقوب يلقون المسائل بأنفسهم. (107) وكانت هذه المجالس مطبوعة بطابع النظام حتى في ترتيب الجلوس، فكان يجلس الى جانب الخليفة خطيبه فقاضي الجماعة بمراكش فرئيس الأطباء، فأكبر علماء الحضرة، فباقي الاعلام الحاضرين على اختلاف مراتبهم (108).

وكان يجب أن يراعي الحاضرون في هذه المجامع ما يجب لمجالس الخلفاء من التزام الجد والمحافظة على الآداب الملوكية، فإن أبا بكر محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري القرطبي تـ 567 كان يحضر مجلس عبد المومن مع جملة العلماء، ويبدي ما عنده من المعارف معظما موقرا، الى أن أنشد يوما في المجلس أبياتا ثلاثة قالها يتغزل في شاب من أهل أغمات، فكان هذا سببا لأن هجره عبد المومن ومنعه من الحضور في مجلسه، بل وصرف بنيه عن القراءة عليه. (109).

105) معجب 227
106) انظر طبقات الأطباء 2. 78. 81
107) معجب 227
108) انظر طبقات الأطباء 2. 74
109) البغية 62

وكان أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الهري المشتهر بالأصولي تـ 614، ممن كان يحضر مجلس المنصور. فإن عدم مراعاة هذا ما يجب من الاداب في المذاكرة مع الخلفاء، كان من أقوى الأسباب لا لأبعاده من مجلس المنصور فقط، بل ولحلول النكبة التي لحقته مع ابن رشد (110)، وأخيرا كانوا لاينفصلون عن هذه المجالس إلا عن الدعاء، يدعو الخليفة ويؤمن الوزير جهرا يسمع من بعد من الناس (111).

وهذه أسماء بعض البعض ممن كانوا يحضرون هذه المجامع :

☐ أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري يعرف بابن الصقر 492 ـ 569، التكملة ط. الجزائر 201، القرطاس 131 مكنيا له أبا عبد الله.

☐ محمد بن عبد الملك بن طفيل أبو بكر تـ 587 أخذا من المعجب 158.

☐ أبو بكر محمد بن عبد الله بن الجد الفهري الاشبيلي 596 ـ 586 القرطاس ص. 131.

☐ أبو زكريا يحيى بن أبي الحجاج اللبلى تـ 590، صلة الصلة 370. بغية 411.

☐ محمد بن أحمد ابن رشد الثاني القرطبي 520 ـ 595، نفح (1) 75.

☐ أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الأيادي الاشبيلي 507 ـ 595. نفح (1) 75.

☐ أحمد بن عتيق البلنسي : أبو جعفر الذهبي 554 ـ 601، طبقات الأطباء (2) 81.

☐ أحمد بن محمد بن هارون ابن عات النفري الشاطبي تـ 609 ديباج 60.

☐ يوسف بن أحمد ابن علي أبو الحجاج المريبطري تـ 619، طبقات الأطباء (2) 78.

☐ أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللخمي الباجي الاشبيلي 564 ـ 635، قال في التكملة رقم 1006 ص 760 : كان يتولى الاملاء في مجالس بني عبد المومن على الطلبة.

☐ أبو عبد الله محمد بن حماد العجلاني الفاسي تـ 609، كان المخصوص بقراءة كتب الحديث ودواوينه على الأمراء، تكملة 1068.

ب. مجامع الأمراء

والأمراء هم الآخرون كانت له مجامع علمية، منها مجالس الأمير أبي زكرياء يحيى بن يوسف بن عبد المومن، وممن كان يحضرها عبد الواحد المراكشي صاحب المعجب المؤرخ الشهير، والكاتب الشاعر أبو إسحاق إبداهيم الزويلي (112). ومنها مجلس صاحب سبتة :

110) اعلام 3. 85
111) معجب 227
112) معجب 182

الأمير أبي يحيى بن أبي زكرياء : الذي ضم أبا الوليد الشقندي وأبا يحيى بن المعلم الطنجي، حيث وقعت المناظرة في المفاضلة بين الأندلس والمغرب. وكان من فوائد هذا المجلس أن كتب كل من الشقندي وأبي يحيى الطنجي رسالته (113).

113) انظر النفح 2. 138

التفسير

العادي ــ بالاشارة

إن الموحدين اهتموا بالتفسير اهتماما كبيرا، فاستدعوا المفسرين من الأندلس، ليتعاونوا مع المفسرين المغاربة الذين نبغ منهم في هذا العهد مثل :

□ أبي الحسن علي بن أحمد التجيني الحرالي المراكشي تـ 637، أقرأ الفاتحة في نحو ستة أشهر، وابتدع علما جديدا لقواعد التفسير، فكان يلقي في التعليم قوانين تتنزل في علم التفسير منزلة أصول الفقه من الأحكام، وعلى أحكام هذه القوانين ألف كتابه : (مفتاح اللب المقفل على فهم القرآن المنزل) (1).

□ عبد الجليل بن موسى الأنصاري الأوسي القصري تـ 608، ألف في تفسير القرآن، وفسر مشكل الكتاب والسنة (2). يقع هذا التفسير في ستين مجلدا، فسر في كل مجلد حزبا واحدا من القرآن، أشار لهذا عرضا في المفصد الشريف، في التعريف بصلحاء الريف. ترجمة أبي القاسم ابن الصبان.

□ أبي عبد الله محمد بن يوسف بن عمران المزدغى تـ 655، له كتاب في تفسير القرآن انتهى فيه الى سورة الفتح (3).

□ أبي عبد الله محمد بن علي بن العابد الأنصاري الفاسي تـ 662. اختصر الكشاف للزمخشري وحذف منه مسائل الاعتزال (4).

1) انظر عنوان الدراية 85 ــ 86
2) صلة ع 44
3) جذوة 138
4) بغية 77. جذوة 144

□ أبي العباس أحمد بن فرتوت السلمي الفاسي، تـ 660، ألف في الاعلام المبهمة في القرآن كتابه : الاستدراك والاتمام، استدرك فيه على السهيلي في كتابه : التعريف والاعلام بما أبهم في القرآن العزيز من الأسماء والاعلام. (5).

ولم يكن اشتغالهم في هذا العهد بالتفسير العادي فقط، بل تجاوزوه الى الاشتغال بالتفسير بالاشارة. وممن اشتغل به الحرالي الآنف الذكر، قال الذهبي : له تفسير فيه أشياء عجيبة، تكلم في وقت خروج الدجال وطلوع الشمس من مغربها وياجوج وماجوج، ورأيت شيخنا المجد التنسي يتغالى في تفسيره.

قال بعضهم والموجود من تفسيره من أوله الى قوله تعالى في آل عمران : فلما دخل عليها زكرياء المحراب، وهو تفسير حسن، وعليه نسج البقاعي في مناسباته، وذكر أن هذا القدر هو الذي وقف عليه منه، نقله النيل 202.

وينبغي أن يذكر مع الحرالي أبو محمد عبد الله بن محمد زغبوش المكناسي، وسيأتي لنا : أن له تأليفا في إثبات الهداية الموحدية، استخرجه بالاستقراء من الكتاب العزيز، وكذا بعض الأفاضل الذين لقيهم ابن عربي الحاتمي بفاس سنة 591، فقد ذكر عنه في كتابه الفتوحات : أنه استخرج ـ بحساب الجمل ـ من آية (انا فتحنا لك فتحا مبينا) : انتصار الجيش الاسلامي في غزوة الارك في السنة المذكورة : 591 (6).

وكان تفسير ابن برجان ـ بالاشارة ـ له رواج في هذا العهد، ترجم في الصلة ع 370 لأبي زكرياء يحيى بن أبي الحجاج اللبلي السالف الذكر ص 40. وبعدما ذكر أنه نشأ بمراكش انتقل إليها صغيرا... قال : وهو الذي استخرج من تفسير أبي الحكم بن برجان من كلامه على سورة (الم غلبت الروم) فتح بيت المقدس في الوقت الذي فتح فيه على المسلمين، وحقق وعين ما كان اغمض فيه ابن برجان وأبهم، ووقف عليه المنصور فبقى مرتقبا له ومعتنيا في نفسه به حتى كان ذلك على حسب ما قاله... ونقله في بغية الوعاة، ص 411.

التجويد. القراءات. الرسم

وكان لملوك الموحدين اعتناء بهذه العلوم، فقد كان يوسف كما في المعجب ـ 155 ـ من أحسن الناس إلفاظا بالقرآن، ولما رفع الى يعقوب أبو بكر يحيى بن محمد بن خلف الهوزني الاشبيلي نزيل سبتة (تـ 602) أراجيزه الحسان في القراءات والتجويد ومخارج الحروف أجازه المنصور عليه (7). وممن ألف في القراءات على هذا العهد من المغاربة أبو عبد الله محمد بن

5) جذوة 57
6) الاستقصا. 1. 179
7) صلة ع 376

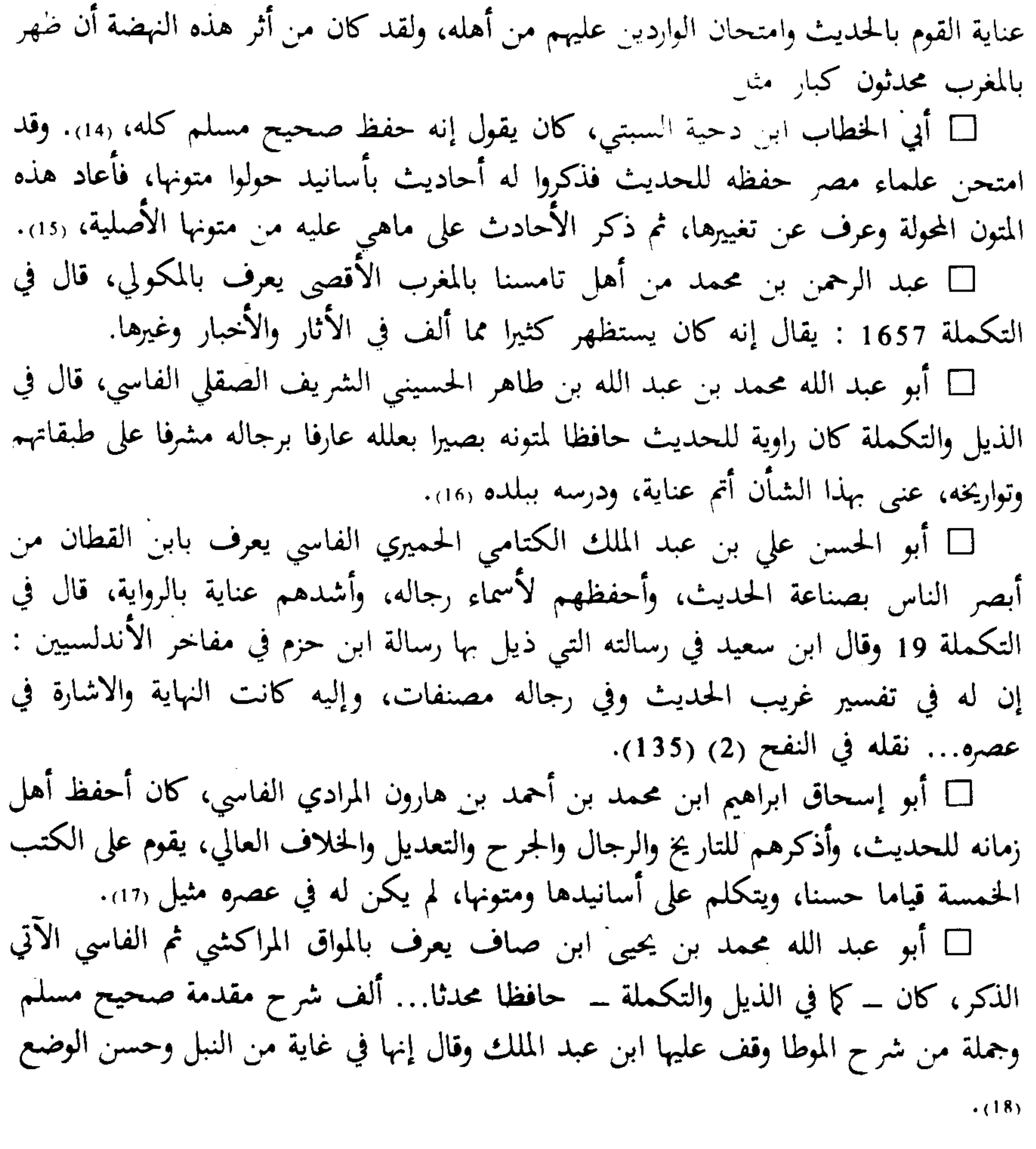
حسن بن محمد بن يوسف المغربي الفاسي (تـ 656)، صنف شرح الشاطبية (8). ودون فيها ممن استوطن المغرب : أبو عمر ومرجى ابن يوسف الغافقي الأندلسي الأصل، كان ساكنا بطنجة وأقرأ بها وبسبتة، وله شرح على قصيدة الحصري في القراءات (9)، وفي هذا العصر اقترح طلبة مراكش على المقريء أبي الحسن علي بن محمد المرادي البلنسي سكين المغرب أن يضع لهم تأليفا في الرسم، فنظم لهم في أيام قليلة رجزا في رسم هجاء المصحف سماه المنصف، ودعا في طالعته لعبد المومن وأولاده، انظر أوائل شرح ابن عاشر على مورد الظمآن، وأبو الحسن هذا له ترجمة زوائد التكملة تحت عدد 2330.

وبعد هنا نلفت النظر الى أن اعتناء الموحدين بالقرآن لم يقف عند حد الاشتغال بالتفسير وما ذكر بعده، وأنهم أضافوا لذلك أن أنشأوا للمحافظة على القرآن الكريم حزبا منه يقرأ يوميا بعد صلاة الصبح والمغرب، حسبما أمر بهذا يوسف في سائر البلاد التي تحت طاعته. (10).

الحديث

وكذا ازدهر الحديث في هذا العهد ازدهارا لم يكن له من قبل، وقد استمد نهضته من اهتمام الموحدين به اهتماما كبيرا ظهر في استدعائهم للمحدثين من الأندلس، وأمرهم بتدريسه الى جانب المحدثين المغاربة، كما يعلم مما سلف. وظهر أيضا ذلك الاهتمام في المكانة الكبرى التي كانت لطلاب الحديث في دولتهم وبخاصة أيام يعقوب، جاء في المعجب 188 : ونال عنده ـ يعقوب ـ طلبة الحديث ما لم ينالوه في أيام أبيه وجده. هذا الى أن غير واحد من خلفائهم وامرائهم كانوا محدثين حفاظا، فيوسف كان يحفظ أحد الصحيحين، (11)، ويعقوب كان يحفظ متون الأحاديث ويتقنها، (12)، والمامون كان معدودا من حفاظ الحديث لم يزل أيام خلافته يسرد كتب الأحاديث مثل البخاري والموطا وسنن أبي داوود، (13)، وكذا الأمير ابراهيم بن يوسف بن عبد المومن، قال في المعجب 207، لم أر في العلماء بعلم الأثر المتفرغين لذلك أنقل منه للأثر. ومن الأدلة الأخرى لنفاق علم الحديث في هذا العهد قصة امتحان ابن عات المذكورة في عنوان الدراية 161 والنفح (1) 369 ببيت الطلبة بمراكش، فإنها تدل بدورها على

8) شذرات الذهب 5. 283. 254
9) تكملة 1152
10) جذوة 47
11) معجب 55
12) نفح 2. 99
13) قرطاس 161. الاستقصا 1. 200



عناية القوم بالحديث وامتحان الواردين عليهم من أهله، ولقد كان من أثر هذه النهضة أن ظهر بالمغرب محدثون كبار مثل

□ أبي الخطاب ابن دحية السبتي، كان يقول إنه حفظ صحيح مسلم كله، (14). وقد امتحن علماء مصر حفظه للحديث فذكروا له أحاديث بأسانيد حولوا متونها، فأعاد هذه المتون المحولة وعرف عن تغييرها، ثم ذكر الأحادث على ماهي عليه من متونها الأصلية، (15).

□ عبد الرحمن بن محمد من أهل تامسنا بالمغرب الأقصى يعرف بالمكولي، قال في التكملة 1657 : يقال إنه كان يستظهر كثيرا مما ألف في الأثار والأخبار وغيرها.

□ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن طاهر الحسيني الشريف الصقلي الفاسي، قال في الذيل والتكملة كان راوية للحديث حافظا لمتونه بصيرا بعلله عارفا برجاله مشرفا على طبقاتهم وتواريخه، عنى بهذا الشأن أتم عناية، ودرسه ببلده (16).

□ أبو الحسن علي بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي يعرف بابن القطان من أبصر الناس بصناعة الحديث، وأحفظهم لأسماء رجاله، وأشدهم عناية بالرواية، قال في التكملة 19 وقال ابن سعيد في رسالته التي ذيل بها رسالة ابن حزم في مفاخر الأندلسيين : إن له في تفسير غريب الحديث وفي رجاله مصنفات، وإليه كانت النهاية والاشارة في عصره... نقله في النفح (2) (135).

□ أبو إسحاق ابراهيم ابن محمد بن أحمد بن هارون المرادي الفاسي، كان أحفظ أهل زمانه للحديث، وأذكرهم للتاريخ والرجال والجرح والتعديل والخلاف العالي، يقوم على الكتب الخمسة قياما حسنا، ويتكلم على أسانيدها ومتونها، لم يكن له في عصره مثيل (17).

□ أبو عبد الله محمد بن يحيى ابن صاف يعرف بالمواق المراكشي ثم الفاسي الآتي الذكر، كان ــ كما في الذيل والتكملة ــ حافظا محدثا... ألف شرح مقدمة صحيح مسلم وجملة من شرح الموطا وقف عليها ابن عبد الملك وقال إنها في غاية من النبل وحسن الوضع (18).

الفقه

إن الفقه ازدهر على هذا العهد ازدهارا كبيرا، ويلفت النظر فيه أنه نهض في مظهرين، وشاع في مذهبين : المذهب الظاهري، والمذهب المالكي، وفيما يلي تفصيل حركة المذهبين :

14) الشذرات 5. 160

15) عنوان الدراية 161. نفح 1. 369

16) الاعلام 3. 79

17) جذوة 84. الشذرات 5. 315

18) الاعلام 3. 142

المـذهـب الظـاهـري

وهذا المذهب كان محبوبا من طرف الخلفاء الموحدين، وبصفة أخص لدى يعقوب المنصور، فقد بلغ من إعجابه به الى حد أن كان يقول عن أحد أشياخ الظاهرية الكبار — ابن حزم — إن كل العلماء عيال عليه (19).

ويعقوب هذا هو الذي حمل الناس بالفعل على المذهب الظاهري، وأحرق كتب المالكية، وفاقا لما في المعجب - وسنورد عبارته - ولما في التكملة ع 870، وقوانين ابن جزي والفكر السامي (4) 12.9.

وجعل ابن خلكان في الوفيات 432.2. وقلده في الشذرات. 322.4 — عمل يعقوب هذا إلزاما للاجتهاد واستنباط القضايا من الكتاب والحديث والاجماع والقياس، ولا شك أن هذا غلط من ابن خلكان ومقلده نشأ من بعد الدار، وإنما الذي أمر به يعقوب هو العمل بالمذهب الظاهري كما تنطق به عبارة غير واحد ممن ذكرنا أولا. ومن المفيد أن ننبه الى أن الذي قام به يعقوب هو إبراز الفكرة وتنفيذها بصفة عملية، أما الفكرة نفسها فقد كان مسبوقا بها. ويثبت المراكشي في المعجب 185 : إن كلا من يوسف وعبد المومن كانا يميلان الى هذا الرأي، إلا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب، قال : «يشهد لذلك عندي ما أخبرني به غير واحد ممن لقي الحافظ أبا بكر بن الجد، أنه أخبرهم قال : لما دخلت على أمير المومنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس، فقال لي يا أبا بكر : أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، أريت يابا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ! في أي هذه الأقوال هو الحق ؟! وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك، فقال لي وقطع كلامي أبا بكر ليس إلا هذا، وأشار الى المصحف، أو هذا وأشار الى كتاب سنن أبي داوود — وكان عن يمينه — أو السيف، فظهر في أيام يعقوب هذا ما خفي في أيام أبيه وجده». هذا كلام المعجب، ونعلق عليه بأن الواقع أن مسألة الظاهرية ليست آنية من عبد المومن ثم يوسف فقط، وإنما منشؤها الأصلي من ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية، يدل لهذا ما أثبته ابن الخطيب في شرح رقم الحلل (57) : أن ابن تومرت كان ينكر كتب الرأي والتقليد، ومراد ابن الخطيب بهذا الانكار أنه كان ينتحل المذهب الظاهري كما تنطلق بهذا تحلية الونشريشي في المعيار 2. 361، للمذكور بالظاهري. ويؤيده أيضا نسبته إليه في كتاب بيوتات فاس لأبي زيد عبد الرحمن الثاني الفاسي وعبارته (5) : إن ملوك الموحدين قد تحلوا بالمذهب المعروف لهم : من إنكار

19) النفح. 2. 162

الرأي في الفروع الفقهية، والعمل شرعا على محض الظاهرية، وجروا على ذلك سنين بطول ايالتهم إلى أن انقرضوا، أولهم في ذلك مهديهم أول ملوكهم....

فقد تبين أن هذه الفكرة متأصلة من ابن تومرت ولكنها لم تظهر إلا على عهد يعقوب الذي أبرزها ونفذها بالفعل، ولا يرد على هذا ما جاء في القرطاس 124، ثم في الاستقصا (1) 150 : أن عبد المومن أمر سنة 555 بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة الحديث، وكتب بذلك الى طلبة المغرب والأندلس والعدوة. وبيان عدم ورود هذا النص على ما قررنا، أنه لايفيد إلا أن عبد المومن أمر بما ذكر ليس إلا، ولم يذكر أن هذا الأمر نفذ، لأن التنفيذ غير واقع، ولو وقع لكان جديرا بالتصريح به والتنصيص عليه، فكأن عبد المومن أمر بذلك أولا ثم رأى أن الأمر سابق لأوانه، فوقفت المسألة عند حد الأمر، ولم تدخل الى حيز التنفيذ، هكذا ينبغي أن يفهم كلام القرطاس والاستقصا وما على شاكلتهما، وذلك هو المحمل الذي يتعين أن يحمل عليه، وبه يحصل الجمع بينه وبين كلام المؤرخين الذين ذكرتهم في صدر هذا الموضوع، بما فيهم من عبد الواحد المراكشي الذي كان معاصرا للدولة الموحدية، ومطلعا على أخبارها.

وبعد هذا نذكر تفصيل عمل يعقوب في حمل الناس على المذهب الظاهري وتحريق كتب الفروع، وتوعد من خالف أمره في ذلك، قال في المعجب (184) : وفي أيامه ــ يعقوب ــ انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء. وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن، ففعل ذلك، أحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدونة سحنون. وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها.

لقد شهدت منها ــ وأنا يومئذ بمدينة فاس ــ يوتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار، وتقدم الى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة...

وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك، وإزالته من المغرب مرة، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث. ومما يفسر تلك العقوبة الشديدة التي توعد بها يعقوب من اشتغل بالفقه المالكي، ما ورد في كتاب بيوتات فاس المذكورة آنفا (5) أن الموحدين ــ والمراد يعقوب ــ أوقعوا المحن بذوي الفروع وقتلوهم وضربوهم بالسياط، والزموهم الايمان المغلظة من عتق وطلاق وغيرهما على أن لايتمسكوا بشيء من كتب الفقه.

ولقد استفاد الفقه من هذه الحركة الظاهرية أن نبغ في هذا العصر فقهاء عظام، يستنبطون الفقه من معين الكتاب والسنة، ويفتون ويحكمون بها، وكان على رأس هذه الطائفة يرعاها ويشجعها يعقوب المنصور، ذكر عنه السرخسي في رحلته : أنه يتكلم في الفقه كلاما

بليغا، وأن فقهاء وقته كانوا يرجعون إليه في الفتاوي، وله فتاوي مجموعة (20). كما ذكر عنه في المعجب 184 : أنه أمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة : الصحيحين، والترمذي، والموطا، وسنن أبي داوود، وسنن النسائي، وسنن البزار، ومسند ابن أبي شيبة، وسنن الدراقطني، وسنن البيهقي : في الصلاة وما يتعلق بها، على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة، فأجابوه الى ذلك، وجمعوا ما أمرهم بجمعه، فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب، وحفظه الناس من العوام والخاصة، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السني من الكسا والأموال.

وبعد يعقوب نذكر بعض المغاربة الآخرين الذين كانوا حينئذ ينتحلون هذا المذهب، ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن خيار البلنسي الأصل الفاسي 541 ـ 605(21). وأبو إسحاق ابراهيم بن أحمد بن هارون المراد الفاسي يعرف بابن الكماد، تـ 633، (22). وكذا أبو الخطاب بن دحية الكلبي السبتي 547 ـ 633، وأخوه أبو عمرو 546 ـ 634، وصفهما بن خلكان في الوفيات (2) 432 بالاجتهاد والمراد أنهما كانا معتنقين للمذهب الظاهري أخذا مما تقدم، وقد صرح بهذا في الشذرات (5) 160 في حق أبي الخطاب.

وكما استفاد الفقه ما ذكر، كذلك ظهرت تآليف مهمة في أحاديث الأحكام استدراكا ونقدا وشرحا، فقد استدرك القاضي الصقلي على الأحكام الكبرى لعبد الحق أحاديث كثيرة في أكثر الكتب رأى أن صاحب الأحكام أغفلها، وأنها أولى بالذكر مما أورده (23).

وألف ابن القطان كتابا في بيان الوهم والايهام الواقعين في كتاب الأحكام (24)، وتعقب كتاب ابن القطان تلميذه أبو عبد الله محمد بن يحيى ابن صاف يعرف بالمواق (4)، كما شرح أحكام عبد الحق الامام المزدغي الفاسي انتهى الأقضية منها، وسمى الشرح أنوار الأفهام في شرح الأحكام الجذوة 138.

الفقه المالكي

وبقدر ما كان الخلفاء الموحدون محبين للمذهب الظاهري، كان أكثر فقهاء عصرهم من المغاربة وغيرهم ساخطين على هذا المذهب، متعصبين للمذهب المالكي مناصرين له،

20) نقله في النفح 2. 99
21) التكملة 1917. الذخيرة السنية 41.40. الجذوة 306 ـــ 307
22) الجذوة 84
23) الاعلام 79.3
24) صلة الصلة 268. الاعلام. 41.3. الجذوة 138

وللتدليل على هذا نثبت فيما يأتي جملة مهمة من المغاربة الذين كانوا يعتنقون المذهب المالكي لهذا العهد ومنهم أبو محمد يشكر بن موسى الجوراي‌ء الغفجومي ثم الفاسي فقيهات 598، له حواشي على المدونة (25)، عبد الرحيم بن عمر اليزناسني كان يعيش نحو أواخر القرن السادس، إمام في فقه مالك محصل له (26)، أبو الحسن علي بن سعيد الرجراجي كان حيا في التاريخ المذكور، ألف مناهج التحصيل فيما للأيمة على المدونة من التأويل، (النيل 200)، إسحاق بن ابراهيم الغماري السعيدي المجابري قاضي فاس وسبتة وشلب. تـ 609، فقيه مالكي حافظ للرأي قائم على المدونة، يقال : أنه كان يستظهرها (27)، أبو زيد عبد الرحمان بن يوسف الفاسي الشهير بابن زانيف تـ 612، كانت تشد إليه الرحال في مذهب مالك، وكان يقوم على المدونة قياما تاما، الجذوة 254، كتبت المدونة من حفظه النيل 138، أبو محمد صالح الفاسي، تـ 631 (28)، قيد عنه شرح الرسالة انظر الديباج 129 ـ 130، أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي المعروف بالحرالي المراكشي تـ 637، من أعلم الناس بمذهب مالك، ولما ظن فقهاء عصره أنه لايحسن المذهب أقرأ التذهيب وأبدى فيه الغرائب، وبين مخالفته للمدونة في بعض المواضع (29).

فهذه زمرة كريمة من الفقهاء المغاربة الذين كانوا يعتنقون المذهب المالكي ويتعصبون له، ولم يكن هذا في المغرب وحده، وإن الأندلس هي الأخرى كان لمذهب مالك بها رواج حينئذ، ونذكر من رجاله على سبيل المثال : سليمان بن عبد الواحد الغرناطي تـ 599، ألف في الفقه كتاب المسائل المجموعة على التهذيب للبرادعي في تسعة أسفار (30)، وجعفر بن عبد الله الخزاعي الأندلسي تـ 624، حفظ نصف المدونة وأقرأها (31)، وعبد الله بن علي الأنصاري الأوسي الأندلسي الأستجي، تـ 646، كان يدرس الأصول ومذهب مالك باشبيلية وقرطبة (32). بل إن بعض أعلام المالكية لهذا العهد جاهر بالرد على شيخ الظاهرية الثاني أبي محمد بن حزم.

ومن هذا الصنف أبو عبد الله محمد بن محمد بن سعيد الأنصاري الاشبيلي المعروف بابن زرقون 539 ـ 621، ألف المعلى في الرد على المحلى والمجلى لابن حزم (33)، ومن هذا

25) وفيات ابن قنفد 46
26) العنون 153. 154. الجذوة 266. 267
27) التكملة ط الجزائر ع 517. الجذوة 99، النيل 99
28) هذا ما أثبته الديباج في تاريخ وفاة أبي محمد صالح الفاسي والصحيح أنها كانت عام 653، انظر السلوة 2. 43
29) العنوان 86.85 ــ النيل 102 ــ النفح 1. 411
30) الديباج 123
31) النيل 103
32) التكملة 1461
33) التكملة 967، الديباج 286. الشذرات 5. 96

الصنف أيضا من تقلد القضاء في عاصمتي الموحدين : مراكش بالمغرب واشبيلية بالأندلس، وهو أبو محمد عبد الحق بن عبد الله الأنصاري المهدوي الأصل تـ 631، له بدوره كتاب في الرد على بن حزم، دل على فضله وعلمه (34) وممن ألف من المالكية في الرد على ابن حزم أبو يحيى المواق جمع من كتب ابن حزم مسائل كثيرة انتقدت عليه. انظر الخبر المغرب، لأبي رأس العسكري.

الفرائض ـ الوثائق

ويتبع الفقه الفرائض والوثائق، وقد كانا مزدهرين على هذا العهد، وممن ألف في الفرائض أبو الحسن الحرالي الآنف الذكر، قال في عنوان الدراية 87 : إن كتابه في علم الفرائض المسمى بالوافي ما ألف مثله في ذلك الفن، لأنه أعطى الفرائض موصلة مفصلة معللة بأخصر بيان وأوضح تبيان، كما ألف في الوثائق أبو الحسن على ابن يحيى الصنهاجي الريفي، (تـ 585) : مختصره : (المقصد المحمود في تلخيص العقود)، وهو كتاب مفيد جدا قال في زوائد التكملة رقم 2378 : وكثر استعمال الناس له لجودته.

أصول الفقه ـ أصول الدين

وعلم أصول الفقه شاع في هذا العهد بعد أن لم يكن كذلك بالمغرب، يقول ابن رشد في كتابه فصل المقال (5) : إن علم الأصول يروج في جميع البلاد ما عدا المغرب. أما الكلام فكان قبل إنما هي العقيدة السلفية، وفي هذا العصر تقرر علم الكلام على مذهب إمام الموحدين ـ ابن تومرت ـ في التوحيد، وكان مذهبه فيه كما في المعجب 121 على مذهب الأشعري في أكثر المسائل، إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها، كان يبطن شيئا من التشيع غير أنه لم يظهر منه على العامة شيئا.

ولقد ازدهر العلمان في ظل الموحدين ازدهارا، ناهيك منه أن الأندلسيين صاروا يرحلون الى المغرب لقراءة هذين العلمين، ترجم في التكملة 1445 لأبي محمد عبد الله بن باديس بن عبد الله اليحصبي الأندلسي من أهل جزيرة شقر تـ 622، فذكر عنه أن ارتحل الى فاس فلقي بها أبا الحجاج بن نموي وطبقته من أهل الكلام وأصول الفقه فأخذ عنهم.

ومن أشياخ المغرب في هذين العلمين أبو الحسن علي بن محمد بن خليد الأندلسي المعروف بابن الأشبيلي تـ 567، قال في الصلة في ترجمته 205 : وهو الذي قرر علم الأصول وعلم الكلام بمدينة فاس حيث إنه استقر بها، وكذا أبو عمرا وعثمان بن عبد الله القيسي

34) قاله في التكملة ع 1812 ونقله في النيل 184

القرشي المعروف بالسلاجي تـ 564 تلميذ أبي الحسن قبله، واليه مرجع الفاسيين في علم الكلام (35)، وهو منقذ أهل فاس من التجسيم (36)، ومختصره في التوحيد المسمى بالعقيدة البرهانية والذي لازال مخطوطا مشهورا ـ محفوظ في بعض المكاتب، وقد شرحه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الأنصاري الأشبيلي المعروف بالخفاف كما في كشف الظنون.

وممن نبغ من المغاربة الآخرين في العلمين أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي يعرف بابن الكتاني تـ 596، كان إماما في علم الكلام وأصول الفقه، وله رجز في هذا العلم الثاني (37)، وأبو الحسن علي بن محمد الخزرجي الأشبيلي الأصل الفاسي يعرف بابن الحصار تـ 611، صنف في أصول الفقه كتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب البيان في تنقيح البرهان، وأرجوزة في أصول الدين شرحها في أربعة أسفار (38)، وأبو الحجاج يوسف بن عبد الصمد الفاسي يعرف بابن نموي 554 ـ 614، كان إماما في علم الأصول والكلام (39).

المهدوية والعِصْمَة

ومن توابع علم الكلام مسألة المهدوية والعصمة عند ابن تومرت فقد كانت هذه في أول أمر الموحدين عقيدة مفروضة لامجال للبحث فيها، ولقد بلغت من السمو أول أيامهم إلى حد أن بعض علمائهم وضع تأليفا في إثبات الهداية الموحدية، استخرجه بالاستقراء من الكتاب العزيز.

قال ابن غازي في الروض الهتون بعد هذا : كان شيوخ طلبة الموحدين يسألون أبدا عن هذا الكتاب، ويثنون عليه وعلى واضعه، الى أن ولى الشيخ أبو ابراهيم اسماعيل بن محمد بن أبو المصالي عمل مكناس، وكان متشيعا للمهدي حافظا لتاليفه قائما على مذهبه من طلبة الموحدين وزهادهم، وكان ناقدا عليهم غير راض عما ابتدعوه، فألح في طلب هذا الكتاب حتى ظفر به، فكان آخر العهد به، ومؤلف هذا الكتاب كما في المصدر المذكور هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن حماد بن زغبوش المكناسي، وله ترجمة في التكملة تحت عدد 1486 باسم عبد الله بن حماد.

ولئن بلغت هذه العقيدة أول أيام الموحدين المبلغ الذي وصفنا، فإنها لم تلبث أن أخذت تفقد صولتها. فقد كان يعقوب المنصور لايرى رأي الموحدين في ابن تومرت ولا يقول

35) صلة 205.
36) جذوة 290.
37) تكملة 1062
38) تكملة 1918
39) تكملة 2099

بعصمته (40)، ثم أجهز على هذه العقيدة تماما ادريس المامون الموحدي الذي لعن ابن تومرت فوق منبر جامع المنصور بمراكش، وقال : أيها الناس لاتدعوه بالمهدي المعصوم، وادعوه بالغوي المذموم، وأعلن نبذ أمره النحس ـ على حد تعبيره ـ ثم كتب الى جميع البلاد بتغيير سير المهدي، وما كان ابتدعه للموحدين وجرى عليه عملهم وسير ملوكهم

العلوم اللسانية

لغة - نحو - بيان - عروض

إن هذه العلوم كانت شائعة في هذا العهد ولا سيما اللغة والنحو، فقد بلغا غاية كبرى، وكان على رأس اعلامهما يوسف بن عبد المومن الذي كان من أحفظ الناس للغة، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو (1).

وفيما يخص اللغة ظهر لهذا العهد لغويون حفاظ كبار، منهم أبو الخطاب بن دحية، عنوان 160. وأخوه أبو عمرو بن دحية (2).

ومن اللغويين الذين كانوا موحدين بالمغرب في هذا العصر أبو القاسم على بن حمزة البصري، فقد اكتشف بمكتبة القرويين أوراق من تأليف في اللغة بخط مؤلفه المذكور كتبها برباط الفتح سنة 586، وكذا أبو عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن اصبغ الأزدي المعروف بابن المناصف 563 - 620، كان له حظ وافر من اللغة، وله فيها : أرجوزته الألفية الفائقة، المسماة المذهبة في الحلى والشيات وغيرها نظمها بمراكش كما في النيل 229، توجد نسخة منها بمكتبة برلين تحت عدد 5370، وفي بعض المكاتب بالمغرب، وقد نشرت كاملة ضمن التقويم الجزائري لسنة 1330 - 1912، صحائف 73 - 122.

وعلم النحو كذلك ازدهر حتى في مدن المغرب الثانوية، ومنها طنجة التي كانت أحد مراكز النحو، وفي هذا العهد رفع نحاتها ومقرئوها سؤالاتهم للنحويين والمقرئين من أهل اشبيلية حتى انتدب الجواب عنها في تقييد خاص أبو بكر محمد بن خلف بن محمد ابن صاف اللخمي الاشبيلي 512 - 586. (3). ولا شك أن رئيس نحاة المغرب في هذا الوقت هو أبو

1) معجب 155
2) صلة 140. الوفيات 1. 482. النفح 1. 366
3) تكملة 821 بغية 40

موسى عيسى ابن عبد العزيز الجزولي المراكشي، تـ 607، له : المقدمة المشهورة التي ألفها إملاء على الجمل للزجاجي، وتسمى بعدة أسماء : بالمقدمة الجزولية وبالجزولية. وبالقانون والاعتماد. وهي كتاب جليل في هذا الفن، قال عنهابن خلكان في الوفيات (1) 498 : ولقد أتى فيها بالعجائب، وهي في غاية الايجاز، مع الاشتمال على شيء كثير من النحو، ولم يسبق الى مثلها، واعتنى بها جماعة من الفضلاء فشرحوها، ومنهم من وضع لها أمثلة، ومع هذا فلا تفهم حقيقتها، وأكثر النحاة ممن لم يكن قد أخذوها عن موقف يعترفون بقصور أفهامهم عن إدراك مراده منها، فإنها كلها رموز وإشارات.

ولقد نعت من بعض أيمة العربية المشار اليه في وقته وهو يقول أنا ما أعرف هذه المقدمة، وما يلزم من كوني ما أعرفها أن أعرف النحو، وبالجملة فإنه أبدع فيها، وقال عنها ابن مالك أول شرحه عليها : إن كتاب القانون في النحو وإن كان صغير الحجم، لاكنه كثير العلم مستعصى على الفهم، مشتمل على لباب الأدب، منطو على سر كلام العرب، متضمن للنكات الغريبة التي خلا عنها أكثر شروح النحو... (4).

ولهذه الأهمية الكبرى التي للجزولية اشتهرت من عصر مؤلفها وقرئت عليه (5). كما وضعت عليها شروح عديدة في عصر المؤلف وقريب منه، كتبها غير واحد من المغاربة والأندلسيين وغيرهم، وفي مقدمة المغاربة الجزولي نفسه، شرحها في مجلد كبير أتى فيه بغرائب وفوائد (6).

ومن الأندلسيين إمام نحاتهم في عصره : أبو الحسن بن عصفور الحضرمي 597 – 663 (7)، وكان هذا الشرح يحتاج الى تكميل فأتمه الشلوبين الصغير الأندلسي تلميذ بن عصفور تـ حدود 660 (8).

وسوى هؤلاء كثير، وسيمر بنا بعضهم، وتوجد طائفة من شروح الجزولية بمكتبة القرويين بفاس أرقام : 1181 ـ 1185 ـ 1192 ـ 1198، وبمكتبة الاسكوريال من اسبانيا أرقام 190.36.2.

ومن مؤلفات الجزولي الأخرى : شرح أصول ابن السراج (9)، أما بقية النحاة المغاربة، فمنهم أبو القاسم عبد الرحمان بن القاسم بن يوسف المغيلي الفاسي تـ 619، من أعيان أهل

4) ذكره في كشف الظنون 2. 505
5) صلة 95
6) وفيات 1. 499
7) بغية 357
8) بغية 80
9) بغية 339

هذا الشان (10)، وأبو العباس أحمد بن محمد ابن خلف البكري السلوي ثم المراكشي 581 ـ 611، له : شرح على المفصل، وشرح على الجزولية (11)، وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن داوود التادلي المراكشي، مبرز في النحو متحقق به درسه طويلا (12)، وأبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المصمودي تـ 649، النحوي الامام، كان يقرأ كتاب سيبويه (13)، وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن محمد العبدري الفاسي يعرف بالصرفي تـ 651، من أيمة هذا الشان وحفاظه (14).

ونختم ذكر علماء النحو بعد علماء اللغة بعالم لغوي نحوي. وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي السبتي تـ 570، كان قائما على العربية واللغة، وألف فيهما : كتاب الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل، وإصلاح ما وقع في شواهد سيبويه وفي شرحها ـ للأعلم ـ من الوهم والخلل، وكتاب لحن العامة، وشرح الفصيح لثعلب (15).

وعلوم البيان هي الأخرى كان لها بعض رواج على هذا العهد سيما في أواخره، ولا شك أن من أبرز شخصياتها حينئذ أبا عبد الله محمد بن العابد الأنصاري الفاسي، أخذا مما تقدم عنه لدى الحديث عن علم التفسير : أنه اختصر الكشاف للزمخشري... فإن هذا الكتاب لايمكن أن يقرأه فضلا عن أن يختصره إلا من كانت له ملكة تامة في هذه العلوم (16).

وكذلك علم العروض كان شائعا في هذا العصر، وممن ألف فيه ممن استوطن فاسا : أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الخشني الجياني الأصل 535 ـ 604، له فيه تأليف صغير (17).

10) تكملة 1656، بغية 300 — 301
11) بغية 156 ـ 157
12) الاعلام 3. 144
13) بغية 301
14) بغية 114 ـ جذوة 138
15) تكملة 1053، بغية 19 — 20
16) راجع مقدمة ابن خلدون 507
17) التكملة ع 1098.

التاريخ

إن التاريخ ازدهر بهذا العهد ازدهارا يتناسب ومقام الموحدين العلمي، وظهرت طائفة كبيرة من المؤرخين المغاربة كتبوا تواريخ عديدة، وتناولوا كثيرا من فنون التاريخ، فألفوا في السير، والأنساب، والتراجم، تاريخ الملوك، وتاريخ البلدان، وفي غير ذلك، وهذا تفصيل الفنون التي ألفوا فيها .

فن السير

من حسن الصدف أن نجد ـ في هذا العهد ـ مغربيين من أهل سبتة كانا من أول من ابتكر التأليف في مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأول هذين المغربيين هو أبو العباس أحمد بن محمد العزفي اللخمي 557 ـ 633، له : الدر المنظم في مولد النبي المعظم صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم، وقد أكمله ولده أبو القاسم، ذكر فيه بعض ما خص به النبي (ص) وفضل به، وما امتن به عليه وعلى أمته (1).

أما المغربي الثاني فهو أبو الخطاب عمر بن حسن ابن دحية الكلبي المعروف بابن الجميل 547 ـ 633، ألف كتاب التنوير، في مولد السراج المنير (2).

ومن مؤلفات المغاربة الأخرى في السير : اللمعة في ذكر أزواج النبي (ص) وأولاده السبعة، تصنيف أبي عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي تـ 603 (3)، وكتاب نهاية السول، في خصائص الرسول والآيات البينات، في ذكر ما في أعضاء رسول الله (ص) من المعجزات، ومن ملحقات السير : كتاب الاعلام المبين، في المفاضلة بين أهل صفين : الثلاثة لأبي الخطاب ابن دحية (4).

1) انظر ازهار الرياض 2. 375 ــ 376 توجد نسخة منه بالمكتبة الزيدانية العامرة بمكناس في مجلد كبير.
2) انظر وفيات الاعيان 482.1 والنفح 1. 371
3) السلوة 269.3
4) نفح 1. 371

فن النسب

وهذا الفن كان به مزيد اعتناء في هذه الدولة، ومن مظاهر هذا ما ذكره أبو القاسم الزياني في كتابه : تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب (خ) : فإنه بعدما ذكر أن منصب النقابة في بني أمية وبني العباس كان يعدل منصب الوزارة، وأفاض في هذا، قال : وكذلك كان شأن النقابة بالمغرب أو قريب منه أيام لمتونة والموحدين... كما ذكر قبل هذا عند حديثه عن بيت آل عبد الرحمان من ذرية السيد عبد الله بن المولى ادريس الثاني : أنه كان في هذه العائلة نقيب الاشراف أيام الموحدين.

ومن التثاليف التي وضعت في النسب لهذا العهد : كتاب الانساب في معرفة الاصحاب، لمؤلف مجهول كان يعيش في هذا العهد، وقد عثر الأستاذ : م ليفي بروفنسال في مكتبة الاسكوريال على تاليف مقتبس منه فأخرجه وصححه وترجمه للفرنسية ونشره سنة 1928 ضمن : (كتاب اخبار المهدي للبيدق) وتقييد أبي عبد الله المراكشي المعروف بالأصولي في الشرفاء العمرانيين، وبعض وفيات الأعيان. وغير ذلك من الأمور المهمة (5). يقع هذا التفسير في ستين مجلدا، فسر في كل مجلد حزبا واحدا من القرآن، أشار لهذا عرضا في المقصد الشريف، في التعريف بصلحاء الريف. ترجمة أبي القاسم ابن الصبان.

التراجم

وزيادة على ماذكر، فقد قامت لكتب التراجم سوق في هذه الدولة، ومنها :

ذيل الصلة البشكوالية لأبي العباس أحمد بن يوسف ابن فرتوت السلمي الفاسي ت 660 عن نيف وثمانين سنة، وهو كتاب حفيل، وإن كان مؤلفه لم يتفرغ لتنقيحه وتصحيحه (6)، ومما يدل على أهميته، ما ذكره الأستاذ بروفنسال في تصديره للقسم المطبوع من صلة الصلة : إن أهم مآخذ ابن الزبير في مجموعه اثنان : تاريخ الملاحي، والذيل لابن فرتوت الذي هو من أشياخ ابن الزبير نفسه، قال : فكاد ينقل من كتاب الذيل في كل ترجمة من تراجم مجموعه، ويذكره قائلا : قال الشيخ في الذيل، ومن كتب التراجم : اختصار المدارك لأبي عبد الله بن حماد السبتي تلميذ القاضي عياض، ولا نعلم عن هذا المؤلف شيئا (7) كما أننا

5) الاعلام 86.3

6) جذوة 56

7) يوجد في الجذوة 304 والسلوة 309.3 ــ 310 ترجمة لابن حماد السبتي، ولكن بكنية ابي الحسن، وهذا موجز ما كتبا عنه : علي بن موسى بن حماد من أهل عدوة سبتة يكنى ابا الحسن، من أهل العلم والادب والنباهة توفي بفاس سنة 564 ومولده سنة 503

لانعلم عن المؤلف سوى أنه من جملة مراجع صاحب الديباج، وهو الذي نبه إليه أولا ص 361.

ثم من مراجع مؤلف الدر النفيس الذي نبه عليه ثانيا ص 16، وأفادنا أنه بقي موجودا الى عصره، كتاب المستفاد في ذكر الصالحين والعباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، في سفرين، تصنيف أبي عبد الله بن عبد الكريم التميمي المار الذكر (8)، والغالب أن هذا الكتاب هو المذكور في كشف الظنون في حرف التاء باسم وتاريخ فاس لابن عبد الكريم، وبستان العابدين وريحان العارفين، في ذكر أهل الصفوة، والانقطاع الى الله بالخلوة، للمؤلف المذكور (9) والتشوف، الى رجال التصوف، لأبي الحجاج يوسف بن يحيى التادلي، تـ 627، مخطوط محفوظ بعدة خزائن، وتأليف في صلحاء المغرب للمؤلف المذكور، النيل 352، وتصنيف أبي الخطاب ابن دحية في رجال الحديث، رآه الغبريني وذكر أنه لابأس به، عنوان 161، وشيوخ الداخر قطني، لأبي عبد الله محمد بن يحيى بن المواق المراكشي ثم الفاسي 583 ـ 642 (10).
يضاف لكتب التراجم حينئذ الجزء الذي عقده أبو عبد الله محمد ابن القاضي عياض لترجمة والده. وقد نقل عنه في الديباج-168 وأزهار الرياض ج (1) 24 و (ج) (3) 7 ـ 8.

البرامج والفهارس

وهي في عداد كتب التراجم، ومما ظهر منها في هذا العهد : برنامج عبد الرحيم ابن الملجوم الفاسي 524 ـ 603، صلة 358، وفهرسة محمد بن قاسم التميمي السالف الذكر، التي جمعت نحوا من 100 شيخ، واسمها : النجوم المشرقة، في ذكر من أخذت عنه من كل ثبت وثقة واختصارها (11)، وفهرسة ابن أبي الصبر السبتي تـ 609، (12) وبرنامج ابن القطان الفاسي تـ 628، (13) وبرنامج أبي العباس العزفي السبتي 557 ـ 663، صلة 357 (14) وفهرسة أبي الحسن علي الغافقي الشاري تـ 649، فهرس الفهارس (2) 251، وبرنامج أبي العباس ابن فرتوت الفاسي (15).

8) انظر عن نسبة الكتاب للمؤلف المذكور : السلوة 1 9 و3. 269 والفتوحات 1. 244
9) السلوة 3. 269
10) الاعلام 142.3
11) تكملة 1064
12) صلة 201 ــ تكملة 2380.
13) زوائد التكملة عدد 1920.
14) زوائد التكملة 1903
15) جدوة57

والغالب أن من نوع فن التراجم تقييد أبي زيد عبد الرحمن ابن الملجوم الفاسي الذي نسب له في ترجمته من التكملة 1652، وعبارته في تحليته : من أهل المعرفة بالشعر والانسان والحفظ للتواريخ، وله في ذلك تقييد مفيد، وقد وقع النقل عن هذا التقييد في زوائد التكملة عدد 2119.

تاريخ الملوك

تاريخ الدولة العباسية، المسمى : كتاب النبراس، في أخبار خلفاء بني العباس، لابن درجة [16]، وكتاب المجموع في تاريخ الموحدين، لمؤلف غير معروف من أهل هذا العصر، اقتبس منه البيدق في تاريخه الآتي الذكر 81 ـ 84، وقد يكون من مصادر الأنيس المطرب ينقل عنه باسم بعض المؤرخين، كأنه لم يقف كذلك على اسم مؤلفه، انظر 113 و114، وتاريخ الموحدين لابي بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، وهو عبارة عن مذكرات شاهد عيان، كتبها المؤلف المذكور عن قيام الموحدين وانتهى إلى أواخر ايام عبد المومن، وهو مطبوع مترجم أيضا ضمن (كتاب اخبار المهدي للبيدق).

تاريخ البلدان

المعجب، في أخبار المغرب، لعبد الواحد بن علي التميمي المراكشي 581 ـ 625، مشهور مطبوع مترجم، وتقييد القاضي أبي الخطاب سهل بن القاسم زغبوش المكناسي في تاريخ مكناس، وهو أحد مصادر ابن غازي خلال الروض المتون.

وينبغي أن يلحق بهذا النوع رسالة أبي يحيى ابن المعلم الطنجي في تفضيل المغرب على الأندلس، هذه الرسالة التي عارض بها أبا الوليد الشقندي الذي فضل الاندلس على المغرب، وكان كل هذا بمجلس الأمير أبي يحيى ابن أبي زكرياء والي سبتة، فإن أبا يحيى بن المعلم كتب رسالته المذكورة كما ينطق بهذا كلام النفح (2) 138 في حديثه عن هذه القصة، إلا أن رسالة الشقندي حفظها قومه وخلدوها، ورسالة أبي يحيى اهملها اهله واضاعوها.

ونذيل الحديث عن التاريخ لهذا العهد بالتنبيه على أوهام وقع فيها المؤرخ الالماني يوسف أشباخ في كتابه : (تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين)، عند تعرضه لبعض مؤرخي هذا العصر (2) 262، فقد ذكر : أن من مؤرخيه أبا علي بن رشيد، وابن ختم، وقد عاشا في أواسط القرن الثاني عشر، وعاصرا المهدي وحملا عليه صراحة، وقد اختصرهما أبو مروان الذي عاش في القرن الثالث عشر، هذا كلام المؤرخ الالماني، ونعلق عليه أولا بأن

16) نفح 10. 371

الظاهر أن غالبه مأخوذ من الحلل الموشية 75. وعبارتها بعد ذكر نسب المهدي ابن تومرت إلى علي بن ابي طالب : اثبت هذا النسب أبو علي بن رشيق في شجرة انساب الخلفاء والامراء، وحققه ابن القطان، واختصره ابو مروان ابن صاحب الصلاة، فقد بينت الحلل الموشية أن المؤرخين الذين مسخ اسماهما إلى ابن رشيد وابن ختم إنما هما ابن رشيق وابن القطان، كما أنها لاتنص على معاصرة هذين المؤرخين للمهدي، وسياتي مايؤيد هذا في الجملة، وأخيرا تذكر الحلل أن ابن صاحب الصلاة إنما اختصر النسب ولم يختصر التاليفين.

وبعد هذا فمن هم هؤلاء المؤرخون : ابن رشيق وابن القطان وابن صاحب الصلاة ؟

أما ابن رشيق فقد عقد له ترجمة في الجذوة 111 ـ 112 وسماه الحسن بن عتيق بن الحسين بن رشيق التغلب يكنى أبا علي، مرسي الأصل، سبتي الاستيطان، وبعدما وصفه بأوصاف عالية ذكر له : التاريخ الكبير، وميزان العمل وغيره.

ومن هذا الغير شجرة أنساب الخلفاء والأمراء، الذي نقلت عنه الحلل الموشية آنفا، وإننا لانعلم شيئا عن التاريخ الكبير، كما لانعلم عن شجرة الأنساب سوى أنه أحد مصادر الحلل، أما الكتاب الثالث : ميزان العمل، فهو أيضا من مصادر الأنيس انظر ص 114، وقد حظي بشيء من الاعتبار من صاحب كشف الظنون فوصفه في العبارات التالية : ميزان العمل في التاريخ، اقتصر فيه على عدد الأيام من دول الملوك .

ومن المفيد أن ننبه الى أن صاحب الجذوة قال عن ابن رشيق إنه كان حيا سنة 777، ولا شك أنه سبقه القلم فجعل سبعمائة عوض ستمائة، كما أن صاحب الكشف التبس عليه ابن رشيق هذا المرسي ثم السبتي بابن رشيق القيرواني، فنسب ميزان العمل للثاني غلطا، والأنيس هو الآخر تصفه نسخه المتداولة بابن رشيق المويسي تصحيف المرسي.

أما ابن القطان فلا نعلم عنه أكثر مما ذكره الأستاذ م. ليفي بروفنسال في مقدمة (مجموع رسائل موحدية) : أنه عثر على جزء من كتاب : (نظم الجمان) لابن القطان، يشتمل على تاريخ ابتداء الموحدين، وسيطبع عن قريب، (ولم يطبع وقد مر على هذا الوعد زمن غير قريب)، هذا ما نعرفه عن ابن القطان.

وقد جاء في النفح (2) 136 نقلا عن ابن سعيد ما يأتي :

وذكر ابن غالب أن الفقيه أبا جعفر بن عبد الحق الخزرجي القرطبي له كتاب كبير بدأ فيه من بدء الخليقة إلى أن انتهى في أخبار الأندلس الى دولة عبد المومن، قال ابن غالب : وفارقته سنة 565 والظاهر أن ابن عبد الحق القرطبي هو المترجم في التكملة باسم محمد بن عبد الحق أحمد بن عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الحق الخزرجي القرطبي الفقيه (17)، كما جاء

17) ارجع اليها عدد 729

في ترجمة أبي الحسن ابن القطان المحدث الشهير المار الذكر أنه كان ذاكرا للتاريخ (18)، فهل ابن القطان صاحب نظم الجمان واحد من الاثنين أو ثالث لانعلمه ؟ هذا ما لم يترجح عندي فيه شيء، ثم تبين أن المؤلف هو ابن أبي الحسن.

وبعد ابن القطان نحاول أن نعرف من هو ابن صاحب الصلاة ؟ إن هذه الكنية اطلقت على غير واحد من فضلاء الأندلسين، ولكن صاحب التاريخ هو المترجم في التكملة عدد 1726 بالعبارات التالية : عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم الباجي، يكنى أبا مروان وأبا محمد، ويعرف بابن صاحب الصلاة، وهو صاحب التاريخ هذا ما كتبه ابن الابار في ترجمة ابن صاحب الصلاة، وهو إن لم ينص على تاريخ وفاته ولا ولادته، فقد ذكره بين تاريخ 580 وتاريخ 608، مما يدل على أن وفاته كانت بين التاريخين، وكما لم ينص ابن الابار على ما ذكر، كذلك لم يبين نوع التاريخ الذي لابن صاحب الصلاة، ونرى المقري في النفح ينقل عنه في (1) 484 باسم تاريخ للموحدين، وفي (2) 136 يذكره باسم تاريخ في الدولة المتونية، وجمعا بين كلام النفح، نرجح أن له تاريخين : في دولة المرابطين وفي دولة الموحدين، أو أن له تاريخا واحدا يتناول الدولتين والظاهر أن هذا التاريخ أو تاريخ الموحدين، هو الذي يسميه مؤلف الأنيس 114 و116 : كتاب المن بالامامة.

ونختم هذا الموضوع بذكر ترجمة مؤرخ لهذا العهد يحليه في الأنيس بمؤرخ دولة الموحدين، ويذكره بالقاضي أبي الحجاج يوسف ابن عمر، وقد وقفت له على ترجمة قصيرة في التكملة رقم 2826، وعبارتها : يوسف بن عمر ـ منسوب الى جده ـ الأموي من أهل اشبيلية يكنى أبا الحجاج، له تاريخ. ولم يذكر له وفاة ولا ولادة، ولكنه أورده بين سنة 605 ونحو سنة 620، فتكون وفاته بين التاريخين، ونجد النقل عن تاريخ أبي الحجاج في التكملة 1207، مسميا والده هناك غمر بالغين المنقوطة.

18) انظر الصلة عدد 268. ص 132

الجغــرافيــا

وكانت للجغرافيا دولة أيما دولة في هذا العهد، بما توافر من السائحين والجغرافيين والجغرافيات، وبما اكتشف فيه من المجاهل، وظهر فيه من الأفكار الجغرافية المبكرة.

ومما أذكى هذه النهضة : أن بعض خلفاء وأمراء الموحدين كان لهم ـ بدورهم ـ ذوق جغرافي خاص، ظهر في كثير من ملاحظاتهم ومخاطبتهم ومجالسهم، ومن هذا : أنه لما قال الخليفة يوسف بن عبد المومن لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي، ما عندك في قرطبة ؟ قال له : ما كان لي أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها؛ فقال الخليفة : إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرة مملكتهم لعلى بصيرة : الديار المنفسحة الكبيرة، والشوارع المتسعة، والمباني الضخمة المشيدة، والنهر الجاري، والهواء المعتدل، والخارج الناضر، والمحرث العظيم، والشعراء الكافية، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها. قال فقلت ما أبقى لي أمير المؤمنين ما أقول (1).

وقال الخليفة يعقوب المنصور لأحد رؤساء أجناد الأندلس ما تقول في قرطبة ؟ فخاطبه على ما يقتضيه كلام عامة الأندلس بقوله : جوفها شمام، وغربها قمم، وقبلتها مدام، والجنة هي السلام. ـ المصدر (1) 75، وقال تاج الدين ابن حموية السرخسي ـ حاكيا عن يعقوب المذكور ـ وقال لي يوما : كيف ترى هذه البلاد ؟ وأين هي من بلادك الشامية ؟ فقلت له : يا سيدنا بلادكم حسنة أنيقة مجملة مكملة وفيها عيب واحد، فقال : ما هو ؟ فقلت : إنها تنسى الأوطان؛ فتبسم وظهر إعجابه بالجواب، وأمر لي من غد بزيادة رتبة، النفح (2) 100.

وقيل للسيد أبي يحيى أخي السلطان يعقوب لما انفصل عن ولاية قرطبة : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ فقال : مثل الجمل، وإن خففت عنه الحمل صاح، وإن أثقلته صاح،

1) النفح 1. 75

ما ندري أين رضاهم فنقصده، ولا أين سخطهم فنتجنبه (2). وجرت مناظرة بين يدي يعقوب المنصور بين الفقيه أبي الوليد بن رشيد والرئيس أبي بكر بن زهر، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالم باشبيبة فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية (3).

وكانوا يهدون لامراء الموحدين رسائل من هذا النوع، ومن هذا رسالة تتضمن المفاضلة بين بلاد الأندلس خاطب بها أديب الأندلس أبو بحر صفوان ابن ادريس الأمير عبد الرحمن بن الخليفة يوسف بن عبد المومن وقد أوردها بنصها في النفح (1) 80 ـ 83، وإن قصة التفضيل بين المغرب والأندلس جرت في مجلس صاحب سبتة أبي يحيى ابن أبي زكرياء صهر ناصر بني عبد المومن، وبأمره كان تدوين هذه المفاضلة (4).

والى جانب هذا فإن ملوك الموحدين قاموا بأعمال كان لها أثر في تشجيع الرحلات والأبحاث الجغرافية، مثل توطيد الأمن بالمغرب حسبما تقدم، ومثل بناء المنازل من السوس الأقصى الى سويقة بني مطكود (5)، ومثل ما قاموا به من تكسير بلاد المغرب وافريقية من برقة الى بلاد نول ـ من السوس الأقصى ـ بالفراسخ والأميال طولا وعرضا (6)، ومثل حركة الاحصاء التي كانوا يقومون بها، وحافظ لنا ابن أبي زرع ـ ص 26 ـ وغيره على نوع منها ـ بفاس ـ يعطينا نموذجا من الاحصاء الذي كانوا يقومون به في سائر المغرب بعد فاس.

السياحة

وكان للمغاربة غرام خاص بالسياحة، وولوع بالتجول في الأرض : طولها والعرض، شأن العرب إبان نهضتهم الكبرى، وشأن الغربيين في نهضتهم الحالية، وقد شهد لهم بهذا الاهتمام بالرحلة والتجوال غير واحد، نذكر منهم ـ الآن ـ الأستاذ برانشفيك الذي قال في مقدمة كتابه عن رحلة عبد الباسط : ومن الطبيعي أن ينتج المغرب الاسلامي مؤلفي الرحلات بوفرة عظيمة، وينبغ به عدد جم من الرحالين الذين أثبتوا مشاهداتهم وتأثراتهم في تصانيف قيمة، فإن الأندلسيين والمغاربة كانوا يشعرون بدافع شديد ينزع بهم الى كتابة ذكرياتهم، وتسجيل ما يختلج بأنفسهم عن رحلتهم الى الشرق بقصد طلب العلم وأداء فريضة الحج.

2) النفح 1. 75
3) المصدر المذكور 1. 75
4) ارجع الى النفخ 2. 138. 155
5) قرطاس 138
6) قرطاس سنة 554 ص 126

وقد كانوا يشدون الرحال الى الشرق بقصد زيارة البقاع المقدسة أولا، وبالجاذبية القاهرة التي تستقدمهم كالمغناطيس لزيارة مراكز الدين، ومعاهد العلم الكبرى مثل مصر وسوريا والعراق وقد نبغ هؤلاء في جيمع العصور (7).

وما ذكره حضرة الأستاذ برانشفيك من أن المغاربة كان يدفعهم للرحلة للشرق طلب العلم وأداء فريضة الحج، نلاحظ عليه :

أولا : أن سياحة المغاربة ــ في هذا العهد وغيره ــ لم تكن للشرق دائما وأبدا، بل كانوا يقصدون نواحي أخرى غير الشرق، وسنذكر كثيرا ممن رحلوا للسودان وسائر البلاد الأخرى.

ثانيا : أن دافع المغاربة للرحلة ليس هو العلم والحج فقط، بل كما كانوا يرحلون لهذين، كانوا يسيحون للتجارة، ومنهم من كان يرحل للبحث والاكتشاف أو للسفارة، ومنهم ملوك رحلوا بدافع الغزو والجهاد أو التفقد والتعهد، وممن رحلوا في هذا العهد للبحث والاكتشاف ــ كما سيأتي لنا ــ الادريسي، والمراكشي، وصاحب الاستبصار، وابن فاطمة.

أما سياحات المغاربة للتجارة في السودان وسائر البلاد الأخرى فمن شواهدها قول الشريشي في شرح المقامات : وبها ــ غانة ــ من تجار المغرب كثير، يدخلون للتجارة فيصيبون الخصب والأمن وكثرة المتاجر، ويقول الادريسي في النزهة عن أهل أغمات : وهم أملياء تجار مياسير، يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال، الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون، والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر، وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار، وضروب الافاوية والعطر، وآلات الحديد.

وفيها أيضا، لدى كلامه على سبتة : ويصاد بمدينة سبتة شجر المرجان، الذي لايعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار، وبمدينة سبتة سوق لتفصيله، وحكه وصنعه خرزا، وثقبه وتنظيمه، ومنها يتجه به الى سائر البلاد.

وكان الموحدون يشجعون جدا السياحة التجارية، ومن أمثلة هذا ما جاء في النفح (2) 100 ــ من رسالة للأمير الموحدي أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المومن الى ملك السودان بغانة، ينكر عليه تعويق التجار، ومما جاء في هذا الكتاب : وقد بلغنا احتباس مساكين التجار، ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده، وتردد الجلابة الى البلد مفيد لسكانها، ومعين على التمكن من استيطانها، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية، لكننا لانستصوب فعله، ولا ينبغي لنا أن ننهى عن خلق ونأتي مثله.

7) من مقال نشره العلامة البحاثة عثمان الكعاك بمجلة العيا السنة الاولى العدد 11

السياحة البحرية

ولا ننسى أن ننبه هنا أنه نشطت في هذا العهد السياحة البحرية نشاطا كبيرا، حتى إنه بلغت أساطيل المسلمين على هذا العهد من الكثرة والاستجادة الى ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد، انظر ما سيأتي عن مقدمة ابن خلدون في مبحث الفنون، وهنا الفات نظر لابد منه، وهو أن العلامة سارطون في مقدمته لتاريخ العلوم، يثبت أن البحارة المسلمين ـ على الأرجح ـ هم أول من استعمل خاصية الاتجاه المغناطيسي في عمل الابرة في الأسفار البحرية، حسبما نقله بعض الباحثين عن المقدمة المذكورة. (1) 741، فإذا لاحظنا تفوق المغاربة في البحرية على هذا العهد، نرى أنه لايبعد أن يكونوا استعملوا بيت الابرة في عهد الموحدين.

الجغرافيا والجغرافيون

أولا : الشريف الادريسي السبتي

خرائطه ـ مؤلفاته

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الادريسي السبتي، من نسل الامام ادريس الفاتح العربي الشهير، ولد بسبتة أو تطوان سنة 494 = 1100، وتوفى في صقلية نحو سنة 562 = 1166.

إننا لانعلم شيئا عن نشأة الادريسي وأساتذته، وإنما نعلم أنه بدأ أسفاره وهو في 16 سنة من عمره، وأخذ في قرطبة عن علمائها فاشتهر في معرفة الهيئة، والجغرافيا، والفلسفة، والطب، والنجوم، وقرض الشعر، ولقد كانت سلسلة تلك الأسفار التي بدأها الادريسي في حداثة سنه طويلة جدا، فقد سافر الى بقية بلاد الأندلس ومصر، وشمال افريقيا وتغلغل فيها، وساح في آسيا الصغرى والقسطنطينية، ودرس خصائص أهل هذه البلاد وعوائدها، كما طاف في سواحل فرنسا وانكلترا، وبعد هذا توجه قبيل سنة 533 = 1138 الى صقلية بدعوته ملكها روجر الثاني ملك صقلية وايطاليا وانكردة وقلوية، كما يحليه بهذا الادريسي طالعة النزهة.

1. الخريطة الحائطية : وقد رغب روجر من الادريسي أن يرسم له خريطة عالمية كامله، يبين فيها مواقع البلدان والبحار والأنهار والجبال الى غير ذلك، فرسم له الادريسي هذه الخريطة الحائطية وفق رغبته.

2. المائدة الفضية أو الخريطة الأرضية : ثم رغب منه ثانيا أن تحفر هذه الخريطة على لوح من الفضة. فأحضر روجر الصناع المهرة الذين اتقنوا هذا العمل تحت رعاية الادريسي

ورقابته. وبعد أن جعل الملك مقدار 400 ألف درهم من الفضة ـ كما روى خليل الصفدي ـ تحت تصرف الادريسي لهذا الغرض، اتخذ الادريسي أقل من ثلث المقدار مائدة مستطيلة، يبلغ طولها كما قدر الأستاذ ميللر ثلاثة أمتار ونصفا، وارتفاعها مترا ونصف متر تقريبا، ثم حفر عليها بواسطة الصناع المهرة خريطة بغاية الدقة والاتقان، وتمام الموافقة لتلك الخريطة التي رسمها من قبل، وكتب على هذه الخريطة الفضية بأحرف عربية كل ما عرفه من البلدان المختلفة، ولقد بلغ ثقل هذه المائدة الفضية نحو 140 كيلو غرام، وكان الفراغ من هذا العمل الجليل في يناير 1154 م.

3. كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق : وكشرح للخريطتين، وتعليق عليهما، ألف الادريسي كتابه هذا، وهو يقسم ـ فيه وفي الخريطة ـ الأرض المعروفة ـ إذ ذاك ـ الى سبعة أقاليم أو مناطق، ثم يقسم كلا من هذه الى عشرة أقطار متساوية (8)، فجاءت 70 قطرا، ضمنها 70 خريطة، لكل قطر خريطة، وطريقه في هذا التقسيم : أنه ابتدأ بوصف القسم الأول من الاقليم، متدرجا من الشرق الى 10، ثم عاد الى القسم الأول من الاقليم الثاني متدرجا إلى العشرين، وهكذا سار في طريقه الى أن تم الكلام على القسم الأخير من الكرة، وهو القسم السبعون، وعند كلامه على كل قسم منها حدد وبين موقعه، وتكلم عن مدنه وجباله، وبحاره وأنهاره، وعن كل ما يحويه من ماء ويابس، وعن الدول التي تشغله، وعن سكانه وجنسياته وعاداتهم، وعما يعيش فيه من حيوان، وما ينبت من نبات، مبينا كثيرا من خواص ذلك، طبيعية وطبية، وقد وصف البحار وصفا مسهبا دقيقا، ووصف جزرها والبلاد التي تقع عليها، الى غير ذلك.

ومما يذكر للادريسي بالاعجاب، أنه حاول بتقسيمه الأرض الى الأقاليم السبعة إثبات درجات العرض وتحديدها، وإنه أفلح في هذا الى حد كبير، ولقد أثبت درجات العرض بعد قياسات صحيحة مطابقة للواقع، بمقدار يدعو المقدر للخريطة الادريسية علميا الى أن ينظر لها بعين الاكبار والاجلال.

8) هذا ما يقوله هذا المصدر، أما المعلم البستاني في دائرته 675.2 والدكتور يوسف شخت، في مقال له نشره بمجلة **المستمع العربي** 15.3، فيثبتان أن الادريسي قسم كل اقليم الى احد عشر جزءا لاعشرة حيث اصبح العالم المعروف اذاك يتكون من 77 جزءا أو قطرا.

أما خطوط الطول فقد ترك الادريسي إثباتها عن قصد، إذ تبين له أن مقادير المقاييس التي وصلت اليه غير صحيحة، ولأنه لم يتيسر له ـ بعد إجراء قياسات أرضية لبيان درجات الطول، وقياس الكرة السماوية ـ وإن كان في الاستطاعة ـ فإنه لايعطى نتيجة مقطوعا بها.

وخريطة الادريسي تمثل القسم المعمور، وهو القسم الشمالي من الكرة الأرضية، وأضاف الادريسي الى القسم الشمالي من الكرة الأرضية جزءا بسيطا من القسم الجنوبي الى درجة 16 جنوب خط الاستواء، هذا الجزء الذي تقع فيه منابع النيل، حيث يبين عليه منابع النيل بشكل واضح، يدل على مقدار براعته العلمية، وقد مد من الساحل الشرقي لافريقيا نحو الشرق وجعله حد المحيط الهندي من جهة الجنوب، ولم يلق هذا الجزء عناية من الادريسي لخلوه من السكان...

كذلك لم يثبت الادريسي درجات العرض الى درجة 28 شمال خط الاستواء، وإنما اكتفى بوضع أرقام بجانب أسماء البلاد التي تقع في هذه المنطقة.

مآل الخريطتين والكتاب

المائدة الفضية

ولقد ضاعت هذه المائدة خلال الثورة التي قامت سنة 555 = 1160 م على ابن روجر (فلهلم)، كسرها الثوار واقتسموها فيما بينهم.

الخريطة الحائطية

كما ضاعت المائدة الفضية، كذلك فقد الأصل للخريطة الحائطية، وإنما بقيت أجزاؤها موجودة في قطع متفرقة داخل كتاب نزهة المشتاق، موزعة في السبعين قطعة التي هي أقسام الأقاليم، أو مستقلة بذاتها، ومجموع هذه القطع الموجودة الى الآن يبلغ 255 قطعة، كما ذكر الأستاذ ميللر ـ توجد بمكاتب باريس ـ واكسفورد، استانبول ولينغراد، والقاهرة عن هذه القطع استخرج الأستاذ ميللر خريطة تامة مشتبكة أجزاء، وطبعها طبعة ملونة سنة 1928، وهي أول طبعة لها، وتتضمن هذه الخريطة من أسماء المدن فقط، التي كانت مائجة بالعمران في ذلك العصر 2064 اسما، 36 بإفريقيا، 740 بأوربا، 959 بآسيا. وهناك خريطة تدعى الخريطة الادريسية الصغيرة طبعها ميللر كذلك في مجموعته، وهي ليست للادريسي وإنماهي لابنه محمد، وضعها سنة 588 = 1192 م واسمها روض الفرج. ولقد وجدها بعض الباحثين في استامبول في 73 قطعة، وإذا وازنا بينها وبين خريطة والده، فإننا نجده قد أخذها صورة طبق الأصل عنها بشيء يسير من التغيير، ومع هذا فقد فاقته عناية والده في الرسم.

نسخ النزهة المخطوطة

كانت توجد نسخة كبيرة لها في دير الاسكوريال، فتلفت في حريقه، ويقول المعلم البستاني في الدائرة بعد هذا : إنه كان مع غريو في انكلترا النخسة الأصلية بكاملها مع عدة خارطات متقنة الرسم، وإنه حصل المعلم باكوكا على نسختين عظيمتين منها. أتى بهما من مصر . أما النسخ المعروفة الآن من كتاب الادريسي، ففي مكتبة باريس مخطوطان، واكفسورد مخطوطان، واستامبول مخطوط واحد في أيا صوفيا، وعن هذا المخطوط الأخير نقل المرحوم زكي باشا نخسة مصورة بالفوتغراف محفوظة في دار الكتب المصرية، كما يوجد بمكتبة القرويين جزء منها متضمن للخرائط والرسوم، وقد غاب هذا الجزء عن علم كثير من الباحثين في هذا الموضوع، كما أن خرائط غابت عن علم الأستاذ ميللر.

ما طبع وترجم من النزهة

لم تطبع النزهة طبعة كاملة مع رغبة الأوربيين فيها وحاجتهم إليها، وأول ما طبع منها مختصرها العربي، طبع في روما سنة 1001 = 1592 م في صحائف 326، بعنوان نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار، والبلدان والجزر والمدائن والآفاق. وهو أول ما طبع بالعربية، ونشر بباريس سنة 1029 = 1619 م ترجمة هذا المختصر اللاتينية الناقصة التي قام بها المارونيان جبريل سيونتا، وجون هرنتا، كما ترجم أصل الكتاب الى الفرنسية عن نسخة مكتبة باريس الملكية ترجمة كثيرة الخطأ، قام بها أمديه جوبير، ونشرت الترجمة سنة 1252 = 1836 ـ 1256 = 1840.

وقد نشرت من النزهة أقسام بالعربية وغيرها على حدة، فطبع بالعربية المعلم باكوكا المبحث الذي يتعلق بمكة المشرفة مما استخرجه من النسختين اللتين أتى بهما من مصر، ثم أعاد طبع هذا المبحث ثانيا المعلم قاسيري، وطبع قسم من هذا الكتاب في بانور سنة 1205 = 1790، كما طبع القسم المختص بالأندلس تحت اسم ذكر الأندلس، تأليف شريف الادريسي مع ترجمة كوندي له إلى الاسبانية، مدريد 1214 = 1799، صحائف 20،234. وطبع أيضا في مدريد ومعه ترجمة اسبانية سنة 1299 = 1881، وطبع ميللر وصف الشام وفلسطين في ليبسيك 1244 = 1828، وطبعت القطعة نفسها في بون 1303 = 1885 ـ صحائف م28، وطبع دوزي قسما منها فيه صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ومعه مقدمة وترجمة وفهرس الأسماء، وشرح الكلمات الاصطلاحية الموجودة في الكتاب، وكلها بالفرنسية، وسمي الكتاب : صفة المغرب والسودان؛ مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، لندن 1281 = 1864 ـ صحائف 23، 242،391، وكذلك طبعت قطعة

تشتمل على مقدمة وصفة البلاد التي هي الآن مملكة ايطاليا، ومعها ترجمة ايطالية، وشروح وتعاليق، روما 1296 =1878 ـ صحائف 15،156،144، ونشر منه العلامة الألماني هارتمان قطعا أخرى.

مميزات الخريطة وشرحها

إن الخريطة الادريسية أقدم خريطة عالمية يعرفها التاريخ، وإنها قد امتازت مع شرحها بالمميزات الآتية :

☐ تجنب الادريسي ذكر الخرافات التي كانت شائعة في العصر المتوسط، والتي تورط في ذكرها غيره من المؤلفين. ولقد كان من حنكته أنه إذا ذكر شيئا خارجا عن حدود العادة نسبه الى ناقله، ثم أعقبه بكلمة احتياط كقوله : والقادر على كل شيء أعلم بما في هذا من الحقيقة؛ ولم يرسم ما كان شائعا عند علماء الجغرافية مما يمثل الغرائب الخرافية، وطبعا كان لتعاليم الاسلام الفضل الأكبر في هذا.

☐ انفردت الخريطة الادريسية بأنها هي الخريطة الوحيدة التي تعطينا صورة صحيحة عن البلاد الواقعة حول البحر القزويني وصحراء العجم، في مدة من الزمن تبلغ نحو قرن، هذه المدة التي لولا خريطة الادريسي لظلت حلقة مفقودة في تاريخ هذه البلاد.

☐ إن خريطة الادريسي وحدها هي التي مثلت لنا دولة الاسلام العربية وهي في عصرها الذهبي قبل أن تجني عليها أيدي التتار الأثيمة.

ملاحظتان

☐ لاينبغي أن يفهم من وصف المائدة الفضية بالاستطالة ما يفهمه ظاهر هذه العبارة : من أن لها طولا وعرضا، بل الواقع أنها كانت مستديرة، وممن صرح بهذا الأستاذ سيديو في خلاصة تاريخ العرب ص 229، والأستاذ جرجي زيدان في مختصر آداب اللغة العربية 184، ولكن استدارتها كانت على شكل اهليلجي على هيئة البيضه، وهذا هو المراد باستطالتها حسب مذهب الادريسي في تكوير الأرض، فإنه كان يعتقد أن الأرض مكورة على شكل ببضوي، ومما يؤكد هذا : أن الأستاذ ميللر لم يقدر عرض المائدة الفضية، وإنما قدر طولها قاصدا به تقدير محيطها.

☐ شاع في غير ما كتاب : أن المائدة الفضية هي أول كرة عرفها التاريخي، وهذا كلام مخالف للواقع، ومما يرده ما أثبته العلامة داربرد الأستاذ بجامعة نيورك الأمريكية في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) : أنه كان بالمكتبة الفاطمية بالقاهرة كرتان أرضيتان : احداهما من الفضة، والأخرى من البرنز، قيل إن الأولى صنعها بطليموس الفلكي نفسه، وإنها

استدعت ثلاثة آلاف كورون (نقود يونانية) من الذهب، اه نقله في الدائرة الوجدية ــ 8 ــ 586 و587، وفي غير هذا المكان.

وأصل هذا الكلام لابن القفطي في أخبار الحكماء ص 286، فقد نقل في ترجمة ابن السنبدي عنه : أنه عاين في مكتبة الفاطميين كرة نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب : حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية، قال : وتأملنا ما مضى من زمنها فكان 1250 سنة، وكرة أخرى من عمل أبي الحسين الصوفي للملك عضد الدولة، وزنتها ثلاثة آلاف درهم، قد اشتريت بـ 3000 دينار.

ثناء علماء الجغرافية على الخريطة الادريسية وشرحها

وهذه كلمات تقدير وتنويه للخريطة الادريسية وشرحها صدرت عن كبار علماء الجغرافية، نثبتها فيما يلي :

إن كتاب الادريسي لايمكن أن يوزان به أي كتاب جغرافي سابق له، وإن ثمت بعض أجزاء من المعمورة لايزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافي في الأمور المتصلة بها (9).

إن روجار الثاني والادريسي بوضعهما هذه الخريطة قد وضعا أهم حجر أساسي في انتشار العلم الانساني (10).

وسيذكر اسم الادريسي ويخلد إن لم يكن لخدماته في سبيل النهوض بالعلم، فللتقدم العظيم الذي يمثله مجهوده في ميدان الجغرافيا العلمية، وحصافة رأيه وتجرده من التحيز، وموقفه الانتقادي الدال على ذكاء نحو أسلافه (11).

ولقد كانت جغرافية الشريف الادريسي معول أهل أوربا في تقويم البلدان أجيالا، ولا سيما عن بلاد الشرق، وقد رسموا خرائطها وتناقلوها وترجموها الى ألسنتهم (12).

تركت ــ خريطة الادريسي ــ أثرا واضحا في المؤلفات والخرائط الجغرافية التالية لهذا العصر في الشرق والغرب، وظلت مع شرحها مآت السنين المرجع الوحيد لعلماء الجغرافيا من العرب والافرنج، ومعينهم الذي يستمدون منه معلوماتهم (13).

4. روض الأنس ونزهة النفس ــ أو كتاب المسالك والممالك ــ وهو نسخة كبيرة منقحة من نزهة المشتاق، وضعها الادريسي لابن روجر الثاني (غليوم الأول) 1154 ــ 1166

9) البارون دي سلان المجلة **الآسيوية الفرنسية** عدد أبريل سنة 1841

10) كوزاد ميللر في خاتمة بحثه عن كتاب **نزهة المشتاق**

11) **د. يوسف شخت، مجلة المستمع العربي** السنة 3 العدد 15

12) جرجي زيدان في **تاريخ الاداب العربية**

13) محمد عبد الله ماضي **مجلة الرسالة** ج 2. عدد 65.

ومما يزيد المسألة تأكيدا أن الشريف الادريسي السبتي قص في نزهته خبر الاخوة المغرورين الذين لججوا في المحيط الأطلانطيكي ليعرفوا ما فيه، وإلى أين انتهاؤه، حيث وصلوا الى بعض جزء الانتيل بين أمريكا الشمالية والجنوبية.

فإذا تحقق هذا فإن المغاربة سبقوا في هذه الفكرة سلطان غانة الذي حاول أن يعرف غاية الأطلانطيكي، وأبا الثناء محمود الاصفهاني وقطب الدين الشيرازي اللذين تخيلا بدورهما وجود أمريكا وأخيرا مهدا السبل للبحار الجنوي كريستوف كولومب؛ الذي ابتدأ على يد اكتشاف أمريكا.

مغربيان يكتشفان منابع النيل في هذا العهد

ومما يفتخر به هذا العصر، أنه فيه عرفت منابع النيل لأول مرة في تاريخ الاسلام، واكتشفت علي يد مغربيين صميمين. وأول هذين المغربيين : هو الشريف الادريس، فقد ذكر في نزهته منابع النيل عند خط الاستواء بكيفية واضحة حسبما سلف لنا، وارجع الى حسن المحاضرة (2) 183، كما رسم في إحدى خرائطه منابع النبل وصورها بحيرات عند خط الاستواء، كالتي اكتشفها أهل التمدن الحديث، وهذه الخريطة محفوظة في متحف سان مرتين بفرنسا، وقد أثبت صورتها الأستاذ جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية، وكتب تحتها : خريطة الادريسي نقلا عن نسخة خطية في متحف سان مرتين؛ رسمت 1160.

أما المغربي الثاني، فهو أمير موحدي من آخر أمرائهم، في مسالك الأبصار (1) 68 : حدثني أقضى القضاة شرف الدين أبو الروح عيسى الزواوي : أن الأمير أبا دبوس بن أبي العلي أبي دبوس، ووالده آخر سلاطين بر العدوة من بني عبد المومن، حدثه أنه وصل الى هذه البحيرة (حيث منبع النيل) في أيام هربه من بني عبد الحق ملوك بني مرين.

وإن هذين المغربيين سبقا باكتشافهما هذا، أولئك الذين زعموا اكتشاف منابع النيل في القرن الماضي، مدعين أن الفضل في اكتشافها لأوربا، والواقع أن المغاربة في هذا الميدان سابقون وغيرهم لاحقون.

اكتشاف بعض مجاهل إفريقيا

كما أنه في هذا العصر اكتشف مغربي بعض مجاهل افريقيا، حسبما يدل لهذا ما سبق أن ابن فاطمة توغل في كشف الساحل الافريقي الغربي، إلى أبعد مما كان معروفا عند الأوربيين حينذاك.

هل قال المغاربة في هذا العصر بدوران الأرض ؟

جاء في عقود الجمان للشطيبي (خ) : أن المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية، كان كثيرا ما ينشد بيتي القاضي عبد الوهاب :

ومن أعجب الأشياء أنك قاعد على الأرض في الدنيا وأنت تسير
وسيرك يا هذا كسير سفينة بقـوم قعـود والشراع تطير

فهل يدل هذا على أن ابن تومرت كان يعتقد حركة الأرض ؟ وهل يوخذ منه أنه كان يقول بفكرة دورانها ؟ إن الجواب عن هذا بالايجاب هو الظاهر، وهو الذي يفيده ترنمه بالبيتين، وكثرة إنشاده لهما، وأضيف الى هذا : أن غير ابن تومرت من المغاربة قد يكون مال الى هذه الفكرة.

ومما يشير لهذا، أن محيي الدين ابن العربي الحاتمي، قرر في باب معرفة بدء الجسوم الانسانية من الفتوحات (1) 123 ـ دوران الأرض حول نفسها، وقال : غير أن حركة الأرض خفية عندنا، وحركتها حول الوسط لأنها أكرة.

ومفهوم من ترجمة ابن العربي أنه دخل غير مدينة من مدن المغرب مثل سبتة، وفاس، ومراكش، وأفاد بكتبه وأفكاره، التي لايبعد أن يكون في ضمنها قوله بحركة الأرض، وأن يكون بعض المغاربة الذين اتصلوا به استفادوا منه هذه الفكرة، وقالوا بقوله فيها، فإذا ثبت هذا يكون المغاربة سبقوا عضد الدين الأيجي، الذي صرح بها في كتابه : المواقف ؛ وبالتالي مهدوا السبل لكوبرنيس وغاليلوا للتوسع في هذه الفكرة.

وهل تخيلوا وجود أمريكا ؟

يذكر العلامة المؤرخ بيرم التونسي في كتابه صفوة الاعتبار (1) 85 ما يأتي : نقل لي ثقة أنه رأى في بعض كتب الشيخ محيي الدين ابن العربي، أن وراء المحيط أمما من بني آدم وعمرانا وينقل ابن خلدون في المقدمة ص 44 عن ابن رشد الثاني أنه كان يقول : أما ما وراء خط الاستواء في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا؛ وابن رشد أيضا ممن أقام بمراكش من المغرب مدة، وبه توفى.

فلا يبعد ـ بعد هذا وبعد ما ذكرنا آنفا من مقام ابن العربي بالمغرب ـ أن بعض المغاربة الذين اتصلوا بابن العربي أو بابن رشد رأى مثل رأيهما، وتخيل وجود أمريكا كما تخيلاها.

ثالثا : عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي 581 =1185 ـ 625 ـ 1228، ختم كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب بنبذة غير مطولة، ذكر فيها أقاليم المغرب وعين مدنه، وحدد ما بينهما من المراحل عددا : من لدن برقة الى السوس الأقصى، وذكر جزيرة الأندلس وما يملكه المسلمون من مدنها، كما ذكر معادن المغرب وأنهاره العظام، مع الأنهار الكبار المشهورة بالأندلس، وهو مطبوع مترجم.

رابعا : أبو علي المراكشي، وهو إن اشتهر في الحساب والفلك، فقد كان له اعتناء بالجغرافيا، حسبما يوخذ من خلاصة تاريخ العرب لسديو ص 230.

خامسا : ابن فاطمة : الغالب أنه مغربي، أخذا مما جاء عنه أنه قام برحلة بحرية جنوبي مراكش، وغرقت السفينة التي كان فيها عند الرأس الأبيض (جنوبي المستعمرة الاسبانية التي تعرف الآن باسم ساحل الذهب)، بعد أن توغل في كشف الساحل الافريقي الغربي الى أبعد مما كان معروفا عند الاوربيين حينذاك، والظاهر أن ابن فاطمة قام بأسفار طويلة في افريقية، ولعله كتب أخبار هذه الرحلات، ولكن شيئا من آثاره لم يصل إلينا، ما خلا الذي نقله عنه ابن سعيد حين أشار إليه في أكثر من موضع واحد ـ الرحالة المسلمون 122.

سادسا : المسالك والممالك للمراكشي، هكذا ذكره في كشف الظنون (2) 423، وقبله ذكره ابن الوردي في طليعة خريدته (3) كمصدر من المصادر التي رجع إليها. وبين العلامة المؤرخ عباس بن ابراهيم في مقدمة الاعلام (1) 140 هذا المراكشي بأنه ابن عذاري، والغالب أن هذا إنما هو مجرد فهم فهمه الأستاذ المذكور، فإنه لم يؤكده بنص يستند إليه، والظاهر أن المراكشي مؤلف المسالك هو الشريف الادريسي، فقد تقدم لنا أن من جملة تآليفه : كتاب المسالك والممالك، وهذا وإن كان يبعده وصف المؤلف بالمراكشي مع أن الادريسي سبتي بلدة وشهرة، فإنه يقربه أن الادريسي هو المغربي الوحيد الذي عرف له كتاب المسالك والممالك.

سابعا : عبد الرحمن بن هرون المغربي : ممن سافر الى الصين وأقام به وبجزائره مدة طويلة حتى صار يعرف بالصيني، وكان صاحب غرائب، واتصل بالحافظ ابن الجوزي المولود والمتوفى نحو 508 ـ 597 وذكره في كتابه المسمى بكتاب الحيوان، انظر خريدة العجائب. 76 ـ 77 ـ 97، وهذا الأخير لاأجزم بمغربيته الأقصوية، لما أن مادة (مغربي) مشتركة اشتراكا واسعا، وإنما ذكرته ليحتفظ به ويبحث عن نوع مغربيته.

ونتبع الحديث عن الجغرافيين والجغرافيات بما ظهر في هذا العهد من الأفكار الجغرافية المبكرة، وما اكتشف من الاكتشافات الهامة وما إلى ذلك :

م. وقد فقد هذا الكتاب ولم يبق منه إلا بعض مقتبسات اقتبسها أبو الفداء عند كلامه على الجغرافية العربية، كذلك حدث عنه الشاعر الأندلسي ابن بشرون، وذكر أن الادريسي ألفه سنة 557 = 1161.

5. أنس المهج وروض الفرج ـ أو روض الفرج ونزهة المهج ـ كتاب جغرافي صغير، اختصره الادريسي من الكتاب قبله، وهو لايزال باقيا إلى اليوم، محفوظا في مكتبة حكيم أوغلو علي باشا باستانبول رقم 688، وكان أول من أشار اليه هو وفتز عندما كان ينقب في مكاتب استنابول باحثا عن مخطوطات في التاريخ. والغالب أن خريطة ابن الادريسي المارة الذكر، ص 81 والمسماة روض الفرج، هي خريطة لهذا الكتاب كما يشير لهذا موافقة اسمها لاسم الكتاب (14).

ثانيا : صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار ممن نشأ بالمغرب. يدل لهذا ما ذكره عند حديثه عن مراكش : أنه كان أيام عبد المومن يعوم هو (ورفقاؤه) في البحيرة التي غرسها هذا الخليفة غرب مراكش، وأنه لايكاد القوي منهم يقطع الصهريج إلا عن مشقة وكانوا يتفاخرون بذلك. ونحن نعلم أن العوم في هذه البحيرة من جملة ما ربى به عبد المومن الحفاظ : صغار الطلبة ـ فقد كان يأخذهم يوما بتعليم الركوب ويوما بالرمي بالقوس، ويوما بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه، الخ (15). فإذا لاحظنا هذا وذاك، نستنتج استنتاجا لاغبار عليه أن مؤلف الاستبصار ليس من أهل المغرب فحسب، بل من حفاظ الموحدين ثم إذا لاحظنا بعد هذا أن حفاظ الموحدين لما أتموا دراستهم عزل بهم عبد المومن أشياخ المصامدة وولاهم الولايات كما في الحلل أيضا ص 114، فإذا لاحظنا هذا يترجح أن صاحب الاستبصار لابد أن تكون له وظيفة في الدولة الموحدية، وقد يكون توظف بفاس لما يفهم من كتابه الاستبصار أنه كان وقت تأليفه سنة 587 بفاس.

وبعد هذه اللمحة القصيرة عن المؤلف ننتقل الى المؤلف، ونبين أنه يتناول البلاد ومسافاتها، وطبائعها، وعادات أهلها.... يبدأ بطرابلس الغرب بفاس، والقيروان وتاريخها، وما يليها من البلاد، مثل صبرة، ورقادة، وسائر مدن المغرب، وهو جزيل الفائدة، ومنه نسخ مخطوطة محفوظة بالرباط والجزائر، وفيينا، وبهذه المدينة الأخيرة طبع طرف يسير منه سنة 1856، وترجم الى الفرنسية وطبع سنة 1910.

14) رجعت فيما كتبته عن الادريسي وآثاره زيادة على المصادر التي صرحت بالنقل عنا، الى دائرة المعرف البستانية (2) 674 ـ 675 ودائرة لمعارف الاسلامية (مج) 1. ع. 3، وتاريخ الاداب العربية لجورجي زيدان (3) 84 ـ 86 وتاريخ سوريا للمطران يوسف وكتاب الرحالة السلمون في العصور الوسطى للدكتور زكي محمد حسن. 64 ـ 67 ومجلة الرسالة السنة الثانية اعداد 64 ـ 66، ومجلة **المستمع العربي**، السنة الثانية ع. 15، وبرنامج مكتبة القرويين، وتحسن مقارنة هذه الصفحات عن الادريسي بما نشر عنه في مجلة **دعوة الحق** السنة 9 ع. 8

15) الحلل الموشية ص 114.

إنشاء المغاربة فرقا للكشفية

ومما يلحق بهذا مما يدل على علو كعب المغاربة في السياحة : أنهم الذين اهتدوا هم الأولون لتأسيس فرق رياضية أعطوها اسم الكاشف، فقد ذكر بعض الباحثين عن الخليفة الموحدي عبد المومن أنه لما اجتاز الجواز الثاني للأندلس، وجد عقبة بن الحجاج والي الأندلس أنشأ طائفة من الدرك (الفرسان) لتوطيد الأمن في البلاد سماها بالكاشف، وعاين نظامها عبد المومن، وأعجب بها، فلما رجع الى المغرب أحدث المدارس، وأسس فيها الألعاب الرياضية، وفرقا للكشافة أعطاها هذا الاسم، وطورها من حراسة الأمن الى التربية والعمل على نشر الفضيلة وقمع الرذيلة.

وبهذا العمل يكون المغرب قد سبق أوربا لهذا الابتكار، ويكون عبد المومن هو المؤسس الأول للكشفية، وبادن باول الانجليزي الذي اشتهر عند الكثير أنه المؤسس الأول لمناهج الكشفية، إنما له فضل تنظيم هذه الفرق، وبعث مناهجها في العصر الحاضر.

تأسيس ركب الحاج المغربي

ولئن دل ما سبق على اهتمام المغاربة بسياحة البحث والاكتشاف، فإن هذا يدلنا على اهتمامهم بنوع آخر من السياحة، وهو سياحة الحج الى الأراضي المقدسة، وإن الفضل في الدعوة الى هذه السياحة، يرجع للشيخ أبي محمد صالح المتوفى سنة 631، فقد كون الركب الحجازي لأول مرة في تاريخ المغرب، وكان مهما انتهى اليه أحد يطلب الانخراط في طريقته، يجعل أهم الشروط لقبوله إياه حج بيت الله الحرام، أو على الأقل يبرهن على أنه خدم طريق الحاج.

ولقد جعل من أصحابه كجمعية تبشيرية تدعو الناس لحج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، وتبني منازل لنزول الحجاج في ذهابهم وإيابهم، وكانت تبتديء هذه المنازل من بلاد حاجة بالمغرب الأقصى الى الاسكندرية، ولقد بث أصحابه في المراكز من آسفي الى الحجاز، وجعل ولده السيد عبد العزيز بمصر حتى توفى (16).

ويظهر أنه بسبب عمل أبي محمد صالح هذا تعددت ركاب الحج في المغرب، فكان زيادة عل الركب الصالحي ركب سجلماسة، وأقدم ركب وقفت عليه من هذا، هو الركب السجلماسي الذي وفد مع رئيسه الشريف السني المولى الحسن القادم، جد العائلة المالكة العلوية الشريفة (17).

16) انظر المنهاج الواضح 352 — 353 — 375. واسفي وماإليه 99 — 100

17) انظر الاشراف لابن الحاج (خ).

مظهر آخر من مظاهر ولوع المغاربة بالسياحة

ونشأ عن كثرة سياحة المغاربة، وهجرة بعضهم الى خارج المغرب : أن خصصت لهم في غير ما جهة من جهات الأرض أماكن خاصة بهم، ووقفت أوقاف مقصورة عليهم، ومنحوا امتيازات لهم.

ومن أمثلة هذا ما قرأته في رحلة ابن جبير 21 ـ 22 : أن سلطان مصر صلاح الدين الأيوبي جعل مسجد ابن طولون الواقع بين مصر والقاهرة، مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر، قال ابن جبير : ومن أعجب ما حدثنا به أحد المختصين منهم : أن السلطان جعل أحكامهم إليهم، ولم يجعل لأحد يدا عليهم، فقدموا من عند أنفسهم حاكما يمتثلون أمره ويتحاكمون في طواريء أمرهم عنده.

ومن هذا أيضا ما جاء في الرحلة المذكورة ص 266 ـ لدى كلامه على دمشق : ومن مناقب نور الدين رحمة الله تعالى : أنه كان عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بمسجد الجامع المبارك أوقافا كثيرة، منها طاحونتان وسبعة بساتين. وأرض بيضاء. وحمام ودكانان بالعطارين، وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه أن هذا الوقف المغربي يغل إذا كان النظر فيه جيدا خمسمائة دينار في العام، وارجع إليها ص.10 و258.

نقلت كلام ابن جبير هذا الذي اختم به الحديث عن الجغرافيا، لما أن أهل المغرب الأقصى من مشمولات المغاربة في كلامه.

الفلسفة

وكان لعلوم الفلسفة نفاق كبير في هذا العهد، وكان المغرب من الأقطار التي يفزع إليها في مشاكل الفلسفة، ومن شواهد هذا أن فردريك الثاني ملك ايطالية وجه مسائل فلسفية الى علماء سبتة ليجيبوا عنها؛ حيث ندبوا للجواب عنها الفيلسوف المسلم الكبير ابن سبعين 614 ـ 669. وكان إذ ذاك بسبتة، ولقد انتدب هذا الفيلسوف للجواب عن تلك المسائل في كتاب عنوانه : «المسائل الصقلية، وقد اشتمل على 49 صفحة، وتوجد منه نسخة خطية في أكسفورد (1).

وبصفة أخص؛ كان للفلسفة في أيام يوسف نهضة كبيرة، ويوسف نفسه كان على رأس المشتغلين بها المحبين لها، فقد طمح بهذا الخليفة ـ كما في المعجب 155 ـ شرف نفسه وعلو همته الى تعلم الفلسفة، فجمع كثيرا من أجزائها، انظر ما يأتي في مبحث خزائن الكتب.

وكما جمع كتب الفلسفة كذلك جمع اليه علماءها وفي مقدمتهم ابن طفيل الذي أحبه هذا الخليفة حبا جما قال في المعجب 156 ـ 159 : ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء، وخاصة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب، وكان ممن صحبه من العلماء المتفننين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين، كان متحققا بجميع أجزاء الفلسفة... قال ورأيت لابي بكر هذا تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والالهيات وغير ذلك، فمن رسائله الطبيعيات؛ رسالة سماها : رسالة حي بن يقظان، غرضه فيها بيان مبدأ النوع الانساني على مذهبهم، وهي رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة في ذلك الفن.

1) نفح 1 ـ 418 ـ 419 المستشرقون 17

ومن تصانيف الالهيات؛ رسالة في النفس رأيتها بخطه رحمة الله، وكان قد صرف عنايته في آخر عمره الى العلم الالهي ونبذ ما سواه، وكان حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة، معظما النبوة ظاهرا وباطنا، هذا مع اتساع في العلوم الاسلامية.

وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به، والحب له، بلغني أنه كان يقيم في القصر عنده أياما ليلا ونهارا لايظهر ولم يزل أبو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الأقطار، وينبهه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم، وهو الذي نبهه على أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم، أخبرني تلميذه الفقيه الأستاذ أبو بكر برود بن يحيى القرطبي، قال : سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة : لما دخلت على أمير المومنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما، فأخذ أبو بكر يثني علي ويذكر بيتي وسلفي ويضم بفضله الى ذلك أشياء لايبلغها قدري، فكان أول ما فاتحني به أمير المومنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي، ان قال ما رأيهم في السماء ؟ يعني ـ الفلاسفة ـ أقديمة أم حادثة ؟ فأدركني الحياء والخوف، فأخذت اتعلل وانكر اشتغالي بعلم الفلسفة، ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل، ففهم أمير المومنين مني الروع والحياء، التفت الى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسالة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله ارسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل السلام عليهم، فرأيت منه غزارة حفظه لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت فعرف ما عندي من ذلك، فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنية ومركب.

وبفضل هذا الاهتمام من يوسف ابن رشد ما ترجم من كتب أرسطو الطبيعية، قال في المعجب 159 عن تلميذ ابن رشد السالف الذكر عنه قال : «استدعاني أبو بكر بن طفيل يوما فقال لي : سمعت اليوم أمير المؤمنين يشتكي من قلق عبارة أرسطو طاليس أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض أغراضه ويقول : لووقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس، فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل، وإني لأرجو أن تفي به، لما أعلمه من جودة ذهنك، وصفاء قريحتك، وقوة نزوعك الى الصناعة، وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سني واشتغالي بالخدمة، وصرف عنايتي الى ماهو أهم عندي منه، قال أبو الوليد : فكان الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو طاليس، وقد رأيت أنا لابي الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم في جزء واحد. في نحو مائة وخمسين ورقة ترجمه بكتاب الجوامع، لخص فيه كتاب الحكيم، المعروف بسمع الكيان، وكتاب السماء والعالم. ورسالة الكون والفساد، وكتب الآثار

العلوية، وكتب الحسن والمحسوس، ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء».

وتكميلا للفائدة نقول : إن صاحب المعجب إنما رأي لابن رشد شرحين على ما ذكره من كتب أرسطو صغيرا ومبسوطا، والواقع أن له شروحا ثلاثة : أكبر، وأوسط، وأصغر، أما شروحه الصغرى فتوجد بالعربية في مجريط باسم كتاب جوامع كتب أرسططاليس، وتشتمل على شرح كتب أرسطو الآتية : الطبيعيات، السماء والعالم، الكون والفساد، الآثار العلوية، النفس، وبعض مسائل فيما بعد الطبيعة، وأما الشرح الأوسط فيوجد منه مكتوبا نصه العربي بحروف عبرية تفسير ما يأتي : الكون والفساد، الآثار العلوية، النفس، شرحه للطبيعيات الصغرى (2)، كما توجد شروحه الثلاثة باللاتينية والعبرية على : الطبيعيات، السماء والعالم، النفس، وما بعد الطبيعة، وقد فقدت شروحه الكبرى على كتب أرسطو الأخرى (3).

وإذا أردنا أن نتبين أثر تلك العناية بالفلسفة من يوسف فينبغي أن نعلم أن العالم المفكر عامة، وأوربا بصفة خاصة، قد استفادوا من هذا الاهتمام استفادة كبرى؛ فإن ترجمة ابن رشد لكتب أرسطو اعتمدها من جاء بعده ولا سيما أهل أوربا، وللتدليل على هذا نسوق ما يأتي :

قال المؤرخ الفرنسي الشهير أرنست رينان 1823 ـ 1892 : لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو (4).

وقال غيره : ترجمة ابن رشد هي معتمد أوربا، وقال المؤرخ الدكتور غوستاف لوبون : أمر لويس الحادي عشر بتدريس مذهب ابن رشد ومذهب أرسطو الفلسفيين في كل جامعات فرنسا ونافار (5).

وقد فشت هذه الفلسفة مع فلسفات إسلامية أخرى في مدرسة الطب في مونبليه سنة 1220، وانتشرت منها إلى جامعات بورغونيا ولومباردي، وسويسرا، ولوفان، فظلت هذه الفلسفة تدرس فيها حتى سنة 1650 (6)، وممن اشتغل بفلسفة ابن رشد فردريك الثاني ملك ايطاليا الذي قرأ ترجمة ابن رشد (7).

2) المكتبة الاهلية بباريز رقم 307 — 310
3) ارجع الى دائرة المعارف الاسلامية (م) ج 3 ص 168
4) المستشرقون 52
5) المقتطف م 74 ج 5 ص 535
6) المستشرقون 15
7) المستشرقون 16.

وقد نقل شروح ابن رشد الى العبرية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر يعقوب الأنطولي (1232 م) وهو من مدينة نابلي، وموسى بن تبون (1260 م) وهو من مدينة لونيل، وقلونيموس (1314 م)، وشموبيل ابن تبون، ويهوذا بن سليمان كوهين (1247 م) وهو من مدينة طليطلة، وشم طوب بن يوسف بن فلغرى، وقد شرح ليون بن جرشون كتب ابن رشد كما شرح ابن رشد كتب أرسطو.

وفي العالم المسيحي بدأ ميخائيل سكوت 1175 ـ 1275 م ينقل مصنفات ابن رشد من العربية الى اللاتينية عام 1230 ـ 1240 م، فترجم شروح ابن رشد على ما كتبه أرسطو عن السماء والأرض والنفس، وقد كان ابن رشد لايزال حيا حتى سنة 1198، وبهذا يرجع ذيوع اسم ابن رشد الى ميخائيل سكوت، ثم لخص ارمنجان فلسفة ابن رشد، وحوالي نهاية القرن الخامس عشر اصلح كل من نيفوس وزيمارا الترجمات القديمة، وقد ترجم كتب ابن رشد ترجمة جديدة معتمدة على النص العبري يعقوب منتينو الطرطوشي، وابرهام ده بالمنر، وجيوفاني فرنسيسكو بورانا من ثيرونا، وكان نيفوس (1495 ـ 1497 م) ويونتاس (1553 م) أفضل من ترجم ابن رشد، وترجم ليون جوتيه الفرق بين الدين والفلسفة لابن رشد في كتبه : فصل المقال، التهافت، فصل الخطاب، وهي الأطروحة التي أعدها لنيل الدكتوراه 1909.

وأخيرا من الفريق الذين كتبوا عن فلسفة ابن رشد رينان المار الذكر : ألف كتاب ابن رشد والرشديين، قرر فيه سيرته ومؤلفاته وقال عنه : إنه كان أعظم فلاسفة القرون الوسطى، التابعين لارسطو والناهجين سبيل حرية الإفكار، وأقواله خالية من الميل، وقد طبع هذا الكتاب في باريس 1892 (8).

هذا ولا ندع الحديث عن الفلسفة ـ التي تناولت كثيرا الطبيعية منها ـ دون أن ننبه الى مسالتين، الأولى : أن الاعتناء بالفلسفة لم يكن مطردا أيام الموحدين، وموقف يعقوب المتناقض منها معروف، وانظر بالخصوص المعجب 204 ـ 205، والمامون منهم كان منحرفا عنها على طول الخط، وقد أدى به هذا الى أن قتل الفيلسوف الأندلسي ابن حبيب من أجل اشتغاله بهذا العلم (9). كذلك بعض علماء هذا العصر كان يقاوم الفلسفة والفلاسفة، وسنرى ما يشهد لهذا في مبحث النماذج من قسم الآداب، وستقف عليه في خطبة أبي

8) دائرة المعارف الاسلامية مج 1 ع 3 ص 173 ـ 174. المستشرقون 15 ـ 20 ـ 52 ـ 59
9) ارجع الى النفخ 2. 138

حفص الأغماتي وشعره في الاجتماع فيما يأتي، ولا يبعد أن قصيدة ابن حبوس التي يعلن فيها موقفه ضد الفلاسفة ـ وستأتي فيما بعد ـ قالها على هذا العهد.

أما المسألة الثانية فنتناول فيها مسألة وردت في تاريخ الآداب العربية للأستاذ جرجي زيدان (3) 99، فقد نسب فيه للمهدي ابن تومرت : كتاب كنز العلوم في الفلسفة الطبيعية والشريعة، وذكر أنه توجد نسخة منه في الخزانية التيمورية بالقاهرة، والغالب أن هذا الكتاب ليس للمهدي ابن تومرت، فإنه لم ينسبه له واحد ممن ترجم له فيما وقفت عليه سواه، ولما أورد في كشف الظنون هذا الكتاب (2) 335 نسبه لابن تومرت أيضا، ولكنه آخر غير المهدي المشهور نسبة وبلدة، فقد سماه محمد بن أحمد بن تومرت، ووصفه بالأندلسي، فكأن الأستاذ جرجي زيدان ظن أن ابن تومرت هذا هو المهدي المشهور، والتبس عليه الأندلسي بالمغربي.

وبعد هذا النوزع من الفلسفة ـ الطبيعي ـ أتابع الحديث عن العلوم الفلسفية الأخرى التي كانت شائعة على هذا العهد.

العـدد

الحساب ـ الجبر ـ المعاملات

وكان للعلوم العددية نهضة في هذا العهد، نشطها الموحدون بتقديرهم لهذا العلم تقديرا كبيرا، وانظر في هذا الى ما جاء في نفح الطيب (2) 253 : أنه لما مدح عبد المومن أبو القاسم بن سعدة الأوسي ـ وكان من ذرية ملوك ـ كتب اسمه وزير عبد المومن في جملة الشعراء، فلما وقف على ذلك عبد المومن ضرب على اسمه وقال إنما يكتب هذا في جملة الحساب.

ولما قاوم يعقوب المنصور الفلسفة مقاومته ـ التي لم يلبث أن رجع عنها ـ أبقى على العلوم العددية ولم يقاومها (1)، ولقد كان هذا العلم من العلوم المقرر تدريسها عند الموحدين، وممن اشتغل بتدريسها الامام أبو العباس السبتي الذي كان يقريء الحساب والنحو ويأخذ على ذلك أجرة (2)، وأبو الحبسن علي بن محمد بن فرحون القيسي القرطبي المتوفى 601، استقر بفاس وسكنها مدة حيث أقرأ بها الحساب الذي كان بصيرا به، وله فيه تأليف سماه : اللباب في مسائل الحساب، وقد حدث به وسمع منه بفاس سنة 587 (3)، وممن اشتغل به أيضا عبد المنعم بن محمد المراكشي الذي كان حيا سنة 598، كان الى جانب معرفته بالعربية والآداب حيسوبيا (4)، وأبو عبد الله محمد بن علي بن العابد الأنصاري الفاسي، المتوفى سنة 662، كان إماما في هذا الفن مقدما في إقامة البرهان عليه (5).

وبصدفة خاصة كان فن الجبر والمقابلة رائجا في هذا العهد، ومن رجاله : أبو عبد الله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين الفاسي، المتوفى قتيلا 601، إمام في هذا الفن،

1) المعجب 205
2) الاعلام 1. 243
3) صلة الصلة 238. جذوة 306
4) تكملة 2175. جذوة 278.
5) بغية 77. جذوة 144

ألف فيه منظومته في الجبر والمقابلة التي تجاوزت شهرتها المغرب، وقرئت على مؤلفها باشبيلية، وهي مخطوطة محفوظة في غير مكتبة، كما ألف أرجوزته الأخرى في أعمال الجذور، توجد نسخة خطية منها بخزانة الاسكوريال، ومن رجاله أيضا أبو علي المراكشي، وسيأتي لنا أنه تناول في كتابه جامع المبادي والغايات الحساب ومسائل على طريق الجبر والمقابلة، وكما اشتغل رجال هذا العصر بالجبر والمقابلة كذلك اشتغلوا بفن المعاملات.

وممن ألف فيه : أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي المعروف بابن القطان، المتوفى سنة 628، له مقالة في الأوزان (6)، وأبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد اللخمي العزفي السبتي 557 ـ 633، له كتاب إثباب لابد منه لمريد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد (7).

وختاما يرد علينا سؤال لامفر منه وهو : ماهي الاقلام الحسابية التي كانت مستعملة في هذا العهد ؟ وللجواب عن هذا نبين أن الأقلام التي كانت مستعملة في هذا العهد على ما يظهر هي :

1. قلم الغبار المتعارف.
2. القلم العربي : ابجد الخ، وكان يستعمل في الزيجات وما في حكمها.
3. القلم الفاسي استنادا لما ذكر عن هذا القلم القاضي المؤرخ عبد الحفيظ الفاسي في مقال له نشر بعدد المغرب الممتاز، فقد جاء فيه : أن الأرقام الحسابية المعروفة بالقلم الفاسي التي كان يستعملها الموثقون بفاس في تقييد التركة والفرضيون في تقدير النفقات، أصلها روماني بقيت عند أمراء وليلي من جملة ما بقي من آثار الرومانيين، فكانت هي الأرقام الرسمية المستعملة في دواوين حسابهم ودفاتر مالية دولتهم، ولما انتقل كرسي المملكة الى فاس انتقلت الأرقام المذكورة إليها بانتقال دواوين الحكومة، وبقيت مستعملة بفاس محافظا عليها حتى نسبت إليها وأصبح يقال لها : القلم الفاسي.

الهندسة

وكان لهذا العلم نهضة كبيرة في هذا العهد، شجعها الخلفاء الموحدون الذين جعلوا لطائفة من المهندسين جامكية منظمة كما يؤخذ من المعجب 157.

ولقد كثر المهندسون في هذا العهد كثرة فائقة؛ حسبما تفيد هذا قصة تكسير عبد المومن لبلاد افريقية والمغرب من برقة الى بلاد نول من السوس الأقصى كما تقدم، فإن هذا

6) جذوة 299. نيل 201
7) التراتيب الادارية 1 ــ 427

يتطلب مهندسين عديدين وعديدين جدا، ولا يبعد أن يكون من بين هؤلاء المهندس الشهير أبو جعفر أحمد بن حسان القضاعي البلنسي ثم المغربي المتوفي سنة 598، وهو الذي عمل الشكل الهندي لاستخراج القبلة ليعقوب المنصور بمراكش، ويظهر أن إليه أضيف جامع حسان بالرباط (8)، وكذا المهندس الفنان الحاج يعيش، المعروف بالأحوص المالقي الذي أشرف على بناء جبل طارق مع الشيخ أبي إسحاق بزار بن محمد، وهو الذي تولى صنع المقصورة الميكانيكية الآتية الذكر (9) وكذا المهندس البناء أبو عمران موسى ابن حسن بن أبي شامة (10).

وبصفة أخص كانت الهندسة الميكانيكية ـ الحيلة ـ الهوائية والمائية شائعة في هذا العهد بالمغرب، وممن ألف فيها من المغاربة أبو علي المراكشي الآتي الذكر، له فيها بدون شك كتاب في القطوع المخروطية لم يعثر عليه بعد، وفي كتابه جامع المبادي والغايات يدرس خاصيات القطوع، ويحسب محاورها بالتبع الى الأعراض وميلان الشمس وعلو المقياس (11).

وعدى التآليف، فقد ظهرت بالمغرب في هذا العهد آثار ميكانيكية راقية بالنسبة لوقتها : ناطقة بتقدم المغرب في هذا الشأن، فقد كانت المقصورة التي يجلس فيها خلفاء الموحدين أثناء صلاة الجمعة ذات تركيب عجيب، فقد كانت تسع نحو ألف شخص، وكانت تتحرك بواسطة عجلات تثبت في أسفلها، ولها ستة أذرع أو جوانب تمتد بواسطة مفاصل متحركة، وقد صنعت هذه العجلات والمفاصل بحيث لايترتب عليها عند تحريكها أقل صوت، بل تدور جميعها في أتم سكون، ونظمت المحركات بطريقة هندسية دقيقة بحيث تتحرك جميعا في وقت واحد، متى رفع الستار عن أحد البابين الذين يدخل منهما أمير المومنين الى المسجد عند صلاة الجمعة. وكانت المقصورة تبرز من جانب، ويبرز المنبر من الجانب الثاني، وتلتف الجوانب في نفس الوقت حول مجلس أمير المومنين، كذلك نظم المنبر بحيث يفتح بابه متى صعد اليه الخطيب، ويغلق من تلقاء نفسه متى اتخذ الخطيب مكانه، وذلك كله دون أن يسمع أو يرى أثر لهذه المحركات، كذلك نظمت أبواب المقصورة على هذا النمط ذاته (12). قال المقري في الصفحة المذكورة. وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن وبقيت آثارها، حسبما

8) مقدمة سوق المهر (د)
9) رسائل موحدية 97 ـ الحلل الموسية 109 ـ 118
10) انظر القرطاس 37. زهرة الآس 64، الجذوة 45
11) مجلة المباحث 39 من السلسلة الجديدة.
12) تاريخ الاندلس 2. 253 ـ الحلل الموشية 109 ـ الغرناطي في شرح المقصورة 1. 71 ـ نفح الطيب 2. 163 ـ الاستقصا 1. 180

شاهدته سنة 1010، وهذا مظهر آخر من مظاهر نهضة المغرب الميكانيكية، وهو ما جاء في المعجب لدى كلامه عن مدينة فاس (239) : أن في داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثاء طاحونة تطحن الماء.

ولعل هذا العهد كان أيام تأليف المعجب، وأما قبله أيام المنصور والناصر فكان بفاس من الارحاء أربعمائة حجر دون ما بخارجها كما في الأنيس 26.

التنجيم

الهيئة ـ الميقات ـ الزيج

علم التنجيم من العلوم المحبوبة عند المغاربة، وحتى الأسر المغربية كانوا يشجعون دراسته تشجيعا، أما الخلفاء الموحدون فقد كان تشجيعهم له بالغا حده، وقد ألف فيه المنصور كما سيأتي لنا، ولما قاوم هذا الفلسفة المقاومة الآنفة الذكر، أبقى على شيء غير قليل من هذا العلم.

ومن مشاهير المنجمين في هذا العصر.

1. الخليفة يعقوب المنصور : أسس في مسجد اشبيلية الجامع برجا عاليا ليكون مرصدا، ومن الواضح أنه أول مرصد بني في أوربا (1). ومراده بهذا البرج صومعة اشبيلية ـ الجيرالدا ـ التي كان يؤذن فيها للاعلام بدخول الوقت وكانت تستعمل أيضا مرصدا لرصد النجوم حسبما أشار لبعض هذا المصدر السابق (2). كما أن المنصور نفسه وضع أزياجا فلكية عن كسوف الشمس (3). والغالب أن هذه الازياج ضاعت.

2. الشريف الادريسي، وقبل يعقوب المنصور صنع الادريسي صورة القبة السماوية، أو هيئة السماء، وهي أول ما صنعه لروجار (4). والغالب أيضا أنها ضاعت.

3. البتراجي المراكشي، كان معاصرا للمنصور : اخترع في ترتيب الأفلاك والمراكز مذهبا جديدا منبئا عن تجرده من اعتقاد الفرضيات الفلكية الباطلة، التي كان عليها أهل الاحقاب الخالية، وألف رسالة عن الاجرام ترجمت الى اللاتينية وطبعت (5).

1) تاريخ الاندلس 2 ــ 200
2) العدد المذكور 255.2
3) المصدر المذكور 2 ــ 260
4) مجلة المستمع 15.3
5) خلاصة تاريخ العرب 215. تاريخ الاندلس 2 ــ 260

4. أبو بكر محمد بن يوسف الليثي الاشبيلي ثم السبتي، من أهل هذا العصر كما في شرح الماواسي على روضة الأزهار للجاردي لدى باب توسط المنازل مع البروج (خ)، له رصد اعتمده مع رصد آخر الجادري في حساب الطول والعرض، حسبما أشار لهذا في الباب المذكور من روضة الأزهار.

5. أبو علي حسن بن علي المراكشي المتوفى سنة 660 كما نقل هذه الوفاة ـ في أحد دروسه التوقيتية بالقرويين ـ شيخنا العلامة المشارك المتخصص في علوم الهيئة أبو عبد الله محمد العلمي أبقاه الله، عن الأستاذ كارلون الايطالي الذي ذكر وفاته في محاضر له عن علم الهيئة ألقاها بالجامعة المصرية.

جاب أبو علي هذا في أول القرن الثالث عشر (م) جزيرة اسبانيا وجزءا عظيما من شمال افريقيا، وحرر ارتفاع القطب الشمالي في احدى وأربعين مدينة، أولها افرانة التي على الساحل الغربي من بلاد المغرب وآخرها القاهرة (6)، وقد ألف جامع المبادي والغايات في البحث عن آلاف علم الفلك، قال في كشف الظنون وهو أعظم ما صنف في هذا الفن، ذكر أنه رتبه على أربعة فنون : الأول الحساب، وهو يشتمل على سبعة وثمانين فصلا، الثاني في وضع الآلات يشتمل على سبعة أقسام، الثالث في العمل بالآلات ويشتمل على خمسة عشر بابا، الرابع في مطارحات يحصل بها الدراية والقوة على الاستنباط وهو يشتمل على أربعة أبواب؛ في كل منها مسائل على طريق الجبر والمقابلة.

وأفاد شيخنا المذكور أنه لم يقف على هذا الكتاب كاملا بالعربية، وإنما وقف على ورقات قليلة منه مباشرة وعلى فقرات منه ينقلها عنه أبو علي التوزري، وقد نقل الأستاذ سديو بعضه للفرنسية 1834 ـ 1835 في جزئين.

6. أبو العباس أحمد ابن علي بن اسحاق التميمي المعروف ابن الكماد التونسي ؛ الراصد بحضرة مراكش، ممن اشتهر أول المائة السابعة. وقد وضع زيجا مصححا كان معتمدا عند المغاربة، وهو الذي لخصه أبو العباس ابن ألبنا في كتابه منهاج (الطالب لتعديل الكواكب) (7). يضاف لهؤلاء ما ذكره أبو العباس الماواسي في شرح روضة الأزهار : «وذكر أبو إسحاق أن رجلا من أهل مكناسة رصد الميل الكلي في عام اثنين وستمائة للهجرة، فوجده ثلاثة وعشرين درجة واثنين وثلاثين دقيقة وثلاثين ثانية».

7. أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الملك المالكي الفاسي المعروف بابن السكاك نحو 500 ـ 596، كان معدلا (8).

6) خلاصة تاريخ العرب 215

7) ارجع الى أوائل منهاج الطالب (خ). مقدمة ابن خلدون 426 ـ427. كشف الظنون 2ـ16ـ17

8) تكملة 1490. جذوة 236. سلوة 3. 300

8. أبو عبد الله الخراز؛ موقت الجامع الأعظم بمراكش (9).

9. محمد عبد الله محمد بن عبد الرحمن الشلبي ثم الفاسي المتوفى 639، كان له معرفة بالأوقات والنجوم (10).

10. أبو الحجاج يوسف بن محمد بن علي السقطي القصري فيما يظهر، كان له معرفة بالأوقات (11).

11. أبو محمد عبد الله بن يوسف بن زيدان الفاسي 592 ـ 644، كان معدلا (12).

وعلاوة على ما تقدم، فقد ظهر في هذا العصر كآثار لازدهار التنجيم ابتكارات مهمة في هذا الميدان، فقد كان على باب جامع الكتبيين بمراكش ساعات ارتفاعها في الهواء خمسون ذراعا؛ تنزل فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة وزنها مائة درهم، تتحرك بنزولها أجراس يسمع وقعها من بعد، وتسمى عندهم الفحانة، ذكرها العمري في مسالك الأبصار (خ)، وقال إنها في عهده بطالة لاتدور، وهذا كان في عهده. أما الآن فلم يبق لها أثر، وكذا ذكرها القلقشندي في صبح الأعشى (5) 162، ومما يستحق أن يذكر أيضا أن في إحدى جدران صومعة حسان على يمين الصاعد نافذتين عظيمتين مقوستين بهندسة غريبة واتقان، وأمامها بيت مربع في جوف قطب المركز الذي تدور عليه جدران الصومعة، فإذا سامتتهما الشمس ارتسم الضياء النافذ منهما في داخل البيت المذكور في كيفية عجيبة، على شكل خطين منحرفين مشتبكي الوسط متفرقي الأطراف؛ ولم يدر الى الآن ما الفائدة المقصودة منهما؛ فعسى أن تزاح عنها بالمستقبل ستور الخفاء، تتجلى لعالم الوضوح والمعرفة (13).

كما ظهرت أفكار مبكرة في هذا العلم مثل أفكار أبي بكر ابن طفيل الفيلسوف العربي الكبير؛ فقد صرح في رسالة حي بن يقظان بأن الشمس ليست حارة بذاتها، وإنها كرية الشكل، وأعظم من الأرض بكثير. وأن الأرض كرية مثلها والذي يستضيء منها أبدا بالشمس أعظم من النصف، من مسامرة للأستاذ العلامة الحجوي : (النظام في الاسلام)، المطبوعة ضمن خطب ومحاضرات المؤتمر السادس لمعهد المباحث العليا الغربية ص 42.

وابن الطفيل وإن كان أندلسيا فقد أقام بالمغرب مدة طويلة 558 ـ 580 كطبيب خاص ليوسف الموحدي؛ ذي مرتبة سامية عنده. وهذه الاقامة الطويلة لاتخلو ـ طبعا ـ من

9) الاعلام 1. 244

10) قرطاس 44

11) نفس المصدر 44

12) بغية الوعاة 293

13) مقدمة الفخ 106 — 107

احتكاكه بغير واحد من المغاربة، وسريان أفكاره إليهم، ومثل هذا ينبغي أن يراعى في ابن رشد الثاني؛ الذي روي عنه أنه رأى كلفتين على وجه الشمس، وأثبت ذلك في مختصر المجسطي؛ مع أنه لم تستعمل النظارة إلا بعد زمانه (14).

ثم بعد كتابة هذا البحث عثرت بأثر نفيس يدل على ما كان حينئذ من الاعتناء بمراقبة الأهلة؛ وذلك أنه كان يوجد في هذا العصر خارج باب الجيسة من فاس؛ قبلة سيدي علي المزالي برج جليل ـ لا أثر له الآن ـ يسمى برج الكوكب، كان مخصوصا بمراقبة الهلال، وقد جعل في أعلاه نوافذ على عدد شهور السنة يراقب كل شهر من واحدة منها، يدل لوجود هذا البرج إذ ذاك : إن ابن الابار ذكره في القسم المفقود من طبع قديرة للتكملة آخر ترجمة وردت تحت غرد 494، وسماه ببرج الكوكب، وقد بقي هذا الاسم معروفا الى زمن صاحب الجذوة، بل حتى زمن صاحب السلوة (15).

المنطق

وزيادة على ما ذكرنا من العلوم. فقد اشتغل المغاربة على هذا العهد بعلم المنطق، ومن رجاله أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي المعروف بالحرالي المراكشي، الذي كان أعلم الناس بهذا الفن، وله فيه تصنيف (1)، وأبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي المراكشي، وقد صدر مقدمته في النحو بفصل نزر فيما يتعلق بالبحث المنطقي (2)، وأبو محمد عبد الله بن محمد ابن يحيى الأغماتي، من رجال هذا العلم (3).

الجدل

ويلحق بالمنطق علم الجدل، الذي توافرت أسباب شيوعه في هذا العصر، بما حمل عليه الموحدون الناس من القول بالمهدوية والعصمة وما يتبع ذلك؛ وبما الزموهم من اعتناق المذهب الظاهري، ونبذ المذهب المالكي، هذا إلى أنه في هذا الوقت قامت بالأندلس الحروب الصليبية (4) التي أوقد نارها هناك رجال المسيحية، وفتحوا بها واجهة غربية بالأندلس، لتتعاون

1) عنوان — 86

2) كشف الظنون 2. 505

3) عنوان 131.

4) إذا أردنا أن نتصور كيف كانت الحروب صليبية الى أقصى حد، فينبغي أن نعلم عن واقعة العقاب، أنه اشترك فيها من المحاربين الصليبين الذين هرعوا من جميع انحاء أوربا لمعاونة اسبانيا زهاء 70.000 مقاتل، كان آلاف منهم يتقلدون الصليب، وأن مقادير عظيمة من المال والسلاح والمؤن ارسلت الى ملك قشتالة من فرنسا وايطاليا، وأنه في روما امر البابا اوتوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام والاكتفاء بالخبز والماء التماسا لانتصار الجيوش النصرانية، وأقيمت الصلوات العامة، وعمد رجال الدين والرهبان والراهبات الى ارتداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة الى اخرى، والقى البابا نفسه موعظة صليبية طلب فيها الى النصارى ان يضرعوا الى الله التماسا لنصر الاسبانيين، وأنه تقرر تخليدا لانتصار الاسبان في موقعة العقاب، أن يحتفل في السادس عشر من يوليه كل عام في طليطلة، ثم في قشتالة كلها فيما بعد باقامة حفل عظيم للشكر يسمى بظفر الصليب، وأن الاسبان ارسلوا بعد انتصارهم الى البابا طائفة من الهدايا النفيسة، حيث عرضت في كنيسة القديس بطرس تذكارا للنصر، حسبما يقرر هذا باوسع مما أشرنا له في هذه التعلقة المؤرخ يوسف أشباخ في تاريخ الاندلس (2) 109 — 112 و 124.

مع الواجهة الصليبية التي كانت تحارب المسلمين في بلاد الشام من الشرق، يضاف لهذا وذاك ما ظهر حينئذ بالمغرب من بعض المذاهب الجديدة في التصوف الاسلامي، ولا شك أن كل ما ذكر يستدعي مجادلات ومحاورات، وأخذا وردا وقبولا ورفضا، بالقلم تارة وباللسان آونة، بين أنصار ما ذكرنا من المسائل الاعتقادية وخصومها؛ وبين أشياع المذهب الظاهري واتباع المذهب المالكي، وبين رجال الاسلام وعبدة الصليب، وأخيرا بين بعض أنصار التصوف وأضداده.

وعمليا ظهر ذلك في كثير من آثار هذا العهد؛ فأبو محمد عبد الله بن محمد زغبوش المكناسي وضع تأليفا في إثبات الهداية الموحدية، استخرجه بالاستقراء من الكتاب العزيز، الروض المتون، والكاتب عبد الملك بن اياس أبو الحسن القرطبي وضع كتابا يطعن فيه على حكومة الموحدين والمباديء التي تقوم عليها، وقد انتدب عبد المومن بعض الأعلام الذين امتازوا بقوة الحجة لكتابة رد على هذا المؤلف (5)، كما ألف في الرد على شيخ الظاهرية ابن حزم غير واحد من فقهاء هذا العهد؛ فأبو عبد الله محمد بن محمد بن سعيد الأنصاري الاشبيلي المعروف بابن زرقون، ألف المعلى في الرد على المحلى والمجلى لابن حزم (6)، وأبو محمد عبد الحق بن عبد الله الأنصاري، ألف كذلك كتابا في الرد على ابن حزم (7).

وكان الموحدون يعقدون مجادلات ومحاورات لترجيح المذهب الظاهري على المذهب المالكي، ومن هذا المحاورة التي جرت بين يوسف بن عبد المومن والحافظ أبي بكر بن الجد، وهي مذكورة في المعجب 185، ولا يبعد (8) أن يكون من هذا الباب المجلس الذي ورد ذكره عرضا في الفتاوي الحديثية لابن حجر الهيتمي 145 ـ 146، والذي وقعت خلاله المجادلة بين الظاهرية والمالكية في حضرة أحد الأمراء.

5) انظر تاريخ الاندلس ليوسف أشباخ 54.2

6) التكملة 967. الديباج 286 الشذرات 96.5

7) التكملة 1812

8) بعدما كتبت هذا وقفت على ما يؤيد ما ذكرته وهو ما جاء في كتاب الخبر المغرب لابي راس المعسكري وهذا نصه :

قال ابن زرقون، كنت في العلماء الذين جمع عبد المومن بن علي وقام الوزير ابو جعفر بن عطية وقال : بلغ سيدنا أن قوما تركوا الكتاب والسنة وصاروا يفتون بفروع لااصول لها : وقال : من نظر فيها عاقبته. وأن عندهم كتابا يقال له المدونة لايرجعون الا اليه ثم قال ومن العجب قولها باعادة الصلاة في الوقت. كل ذلك مراده ان يحمل الناس على مذهب ابن حزم قال ابن زرقون فحملتني الغيرة فتكلمت بان رسول الله (ص) لما صلى اعرابي امامه فقال له صل فانك لم تصل كما في البخاري، فقال لأحسن غيرها، فعلمه ولم يامره بالاعادة لما خرج وقته. فقام عبد المومن وسكن الحال ولم ار منه بعد ذلك الا الكرامة.

هذا كلام الخبر المعرب. وكما افاد ما ذكر كذلك يقوي ما أسلفته في مبحث علم الفقه من أن الذي وقع من عبد المومن هو الدعوة الى المذهب الظاهري من غير تنفيذ.

وفوق هذا الجدل الذي كان يدور على مبادىء الموحدين تأييدا وردا، فقد ظهرت كذلك بعض المؤلفات التي تطعن في معتقدات الصليبيين الفاسدة، فقد ألف أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد الخزرجي القرطبي ساكن مدينة فاس 519 ـ 582 مقام المدرك. في افحام المشترك، ومقامع الصلبان ورواتع رياض الأعيان، يرد به على بعض القسيسين بطليطلة، وكان ذلك من أحفل ما ألف في معناه (9)، كذلك عقدت في هذا العصر مجالس للمجادلة مع بعض المسيحيين حول أحقية الدين الاسلامي، ويوجد بجامع المعيار (11) مذاكرة من هذا النوع جرت ـ بمرسية ـ بين أبي علي الحسن بن رشيق أول شبابه وبعض القسيسين، وهي مجادلة طويلة استغرقت من المصدر المذكور من ص 118 الى ص 121، والظاهر أن ابن رشيق هذا هو أبي علي بن رشيق المرسي الأصل السبتي الأستيطان : المار الذكر في علم التاريخ.

جلبت كل ما سطرته وأن تقدم كثير منه في أماكن متفرقة من-هذا الكتاب؛ لما في ثناياه من البرهنة والتدليل على نفاق علم الجدل لهذا العهد بالمغرب؛ ورواجه واشتغال بعض المغاربة به.

وبعد هذا أذكر بعض المغاربة الآخرين الذين اشتغلوا بهذا الفن حينئذ، ولا ريب أن في مقدمتهم إمام هذه المدرسة بالمغرب المهدي ابن تومرت الذي كان طبقة عالية في هذا الميدان، ومن حسن الحظ أن حافظ لنا ابن أبي زرع في الأنيس 109 ـ 110 على نموذج صغير من جدله؛ فإنه لما ذكر المجلس الذي عقده علي بن يوسف اللمتوني من الفقهاء لمجادلة ابن تومرت؛ ذكر عن هذا الأخير أنه قال للذين اجتمعوا لمجادلته : قدموا من تقوم به حجتكم، وتأدبوا بأدب أهل العلم، وسلموا عند شروط المناظرة، واتركوا اللجاج، وقدموا أحدكم ممن تثقون بمعرفته وتقدمه...

ثم كان أول ما سألهم عنه أن قال للذي تقدم للكلام : أيها الفقيه أنت لسان الجماعة المتقدم للكلام؛ فأخبرني : هل تنحصر طرق العلم أم لا ؟ فأجاب : هي تنحصر من الكتاب والسنة والمعاني التي بنيت عليها، فقال له المهدي : إنما سألتك عن طرق العلم هل تنحصر أم لا ؟ فلم تذكر إلا واحدة منها، ومن شروط الجواب أن يكون مطابقا للسؤال، فلم يفهم مقالته وعجز عن الجواب، ثم سأله عن أصول الحق والباطل ما هي ؟ فعاد الى جوابه الأول، فلما رآى عجزه وعجز أصحابه عرفهما السؤال وفحوى الخطاب، ولما لم تكن لهم معرفة بالجواب، شرع لهم في تبيين أصول الحق والباطل، فقال لهم : أما أصول الحق والباطل

9) التكملة ط الجزائر 223. الديباج 51.50 الجذوة 70 النيل 59

فهي أربعة العلم والجهل والشك والظن، فالعلم أصل للهدى، والشك والجهل والظن أصل للضلال، ثم أخذ في تبيين طرق العلم فبهرهم وعجزوا عن جوابه، ولم يفهموا له معنى خطابه، هذا كلام الأنيس ويفيد ما صدر به ابن تومرت مجادلته أنه كان على علم تام بشروط الجدل وآدابه؛ وما يتعلق بذلك الأمر الذي يدل على مدى تبرزه وتقدمه في هذا العلم.

أما المغربي الآخر والأخير الذي نختم به رجال الجدل على هذا العهد، فهو الامام أبو العباس السبتي الذي جاء في ترجمته من النيل 59 : أنه أعطى بسطة في اللسان، وقدرة الكلام، لايجادله أحد إلا أفحمه، ولا يسأله إلا أجابه، كأن القرآن والحجج على طرف لسانه حاضرة، يأخذ بمجامع القلوب، ويسحر العامة والخاصة ببيانه، يأتيه المنكرون للانكار فما ينصرفون إلا مسلمين منقادين.

المناظـرة

ويقصد بها النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب. على خلاف علم الجدل المذكور آنفا؛ فإنه يراد به المنازعة لالزام الخصم، سواء كان كلامه في نفسه فاسدا أولا.

وهذا العلم ـ المناظرة ـ وإن لم نقف على تفاصيل الاشتغال به لهذا العهد، فإننا نستطيع أن نستشف من بعض العبارات العرضية ما كان للمناظرة بالمغرب حينئذ من ازدهار، وذلك ما يرد خلال كثير من تراجم المغاربة من استعمالهم للمناظرة في دروسهم، وكذا ما يذكر في تراجم بعض الوافدين على المغرب من أقرائهم به بهذه الطريقة، ومن الأول ما يرد في ترجمة أبي زيد عبد الرحمان بن زكرياء بن محمد الرجراجي (ت) 605 : أنه نوظر عليه بقرطبة (1).

وفي ترجمة أبي الحجاج يوسف بن عبد الصمد الفاسي المعروف بابن نموي 554 ـ 614 : أنه نوظر عليه باشبيلية (2)، وفي ترجمة أبي الحسن علي بن أحمد التجيبي المعروف بالحرالي المراكشي (ت) 637 : أنه ناظر فبرع خلال رحلته للبلاد الشرقية (3)، يضاف لهؤلاء أبو الحسن علي بن عبد الله بن ابراهيم الأنصاري المعروف بالمتيطي (ت) 570 الذي كان ـ بدون شك ـ له معرفة بهذا العلم، حسبما يؤخذ مما جاء في ترجمته : أنه لما خرج من مدينة فاس واستوطن سبتة، لازم بها مجلس أبي محمد عبد الله بن القاضي أبي عبد الله بن عيسى بالمناظرة والتفقة (4).

ومن الأعلام الوافدين على المغرب الذين ناظروا به : أبو الحسن نجبه بن يحيى الرعيني الأشبيلي ساكن مراكش 521 ـ 591 ناظر عليه بهذا في كتاب سيبويه أبو البقاء حيان بن

1) تكملة 1653
2) تكملة 2099
3) زوائد التكملة : 1921
4) جذوة 305 نيل 199

عبد الله الأوسي البلنسي (5)، وكذا أبو بكر محمد بن طاهر الليثي الآشبيلي ت 603، ناظر عليه بفاس أبو القاسم عبد الرحيم ابن الملجوم الفاسي في نحو الثلث من كتاب سيبويه (6).
ذلك ما استطعت أن أقف عليه فيما يتعلق بالمناظرة، وأنه على قلته شاهد بما قلنا، ملوح لما كان لهذا العلم إذ ذاك من نهضة وازدهار.

الكيمياء

ولم يخل المغرب على هذا العهد من الاشتغال بالكيمياء النافعة، ومن شيوخه في هذا العلم أبو الحسن علي بن موسى بن علي الأنصاري السالمي الجياني المعروف بابن النقرات؛ ترجمه في التكملة وزوائدها (ع) 1877 والجذوة 305 والشذرات (4) 317، وقد ذكروا عنه أنه نزل بمدينة فاس، كما ذكرت عنه زوائد التكملة والجذوة : أنه تصدر للاقراء بفاس، وولي الخطبة بجامع القرويين منها، مولده بجيان في رمضان عام 515 وكان حيا سنة 593 أو نحوها كما تقول هذا التكملة وزوائدها والجذوة، وعينت الشذرات سنة وفاته في (594)، وما في كشف الظنون من أنه توفى سنة 500 فوهم ليس إلا.
وقد نسبت المصادر المذكورة الى أبي الحسن هذا شذور الذهب في الأكسير (نظم)، وهو كتاب جليل علما وأسلوبا، وصفه الجلدكي في شرحه عليه بأنه استوعب جميع الحكمة المطلوبة، والنعمة المرغوبة، نقله في الكشف (2) 48، وقال عنه آخر : لم ينظم أحد في الكيمياء مثل نظمه بلاغة معان، وفصاحة ألفاظ، وعذوبة تراكيب، حتى قيل فيه : إن لم يعلمك صناعة الذهب علمك الأدب، وف يعبارة بعضهم : إن فاتك ذهبه؛ لم يفتك أدبه، نقله في النفح (2) 342 ونحوه في الشذرات.
ولم يكن أبو الحسن ابن النقرات الوحيد في هذا الفن بالمغرب، وقد عاناه غيره من صميم المغاربة، مثل المعروف بابن تاتلي من أولاد الملثمين، ذكره في طبقات الأطباء عرضا (2) 203 ـ 204 أثناء ترجمة موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الذي اجتمع بالمذكور في بغداد، وقد وصفه بالامعان في كتب الكيمياء والطلسمات وما يجري مجراها، وأنه أتى على كتب جابر بأسرها، وعلى كتب ابن وحشية.
كذلك ممن اشتغل من المغاربة بالكيمياء على هذا العهد المسمى بأبي الطواجين القصري الكتامي، كان ينتحل هذا العلم وكذا ابنه محمد الثائر الشهير عام 625، تلقى الكيمياء عن والده، حسبما يؤخذ هذا من الاستقصا (1) 197.

5) تكملة 122
6) التكملة 1674

الطب والصيدلة

وكان للطب دولة وصولة، وقد اهتبل به الموحدون وبخاصة يوسف ويعقوب اهتبالا فائقا، ففوق اعتنائهم بالطب الخاص بهم. كذلك اعتنوا بشؤون الرعية الصحية؛ فبنوا المستشفيات، ونظموا هذه المهنة، وجعلوا لها رؤساء؛ منهم أبو جعفر الذهبي الذي كان مزوارا للأطباء كما كان مزوارا للطلبة (1)، وكان الطب يدرس على عهدهم بالمغرب، ومن أساتذته أبو الحجاج يوسف بالمريبطري، قرأ عليه الطب بمراكش أبو العباس الكنبناري (2)، وكذا ابن حسان ــ الذي استقر بالمغرب آخر عمره الى أن توفى بفاس، وكان مقرئا للطب كما في الجذوة (72) ــ لايبعد أن درّسه بالمغرب.

وفن الصيدلة هو الآخر كان له ازدهار على هذا العهد، وكان موظفا بمستشفى مراكش وبيلاطات الخلفاء عدد من الصيادلة.

الأطبـاء المغاربـة

ومن رجالات الطب والصيدلة في هذا العهد **1**. الخليفة يوسف الموحدي الذي استهل به أسماء الأطباء حينئذ، كان له طموح الى هذا العلم، وكان يستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل (3) **2**. الطبيب السبتي أبو الحسن علي بن يقظان، ورد الى مصر عام 544، أخبار الحكماء 160، **3**. أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمان بن بقي السلوي تـ 563، اشتغل بالطب وظهر فيه، فكان يعيش نفسه مما يعود عليه منه، قاله الضبي في البغية 1464، وترجمة أيضا في التكملة 2782 ووصفه بأنه من

1) طبقات الاطباء 2. 77

2) المصدر المذكور 2. 81

3) المعجب 155

أهل سلا، **4**. الشريف الادريسي : ألف الكتاب الجامع لصفات اشتات النبات لازال موجودا، وهو أحد الكتب التي اعتمدها ابن البيطار في كتابه في النبات : كما ألف كتابا في الأقراباذين (الصيدلة) (4). **5**. الطبيب سعيد الغماري، ورد ذكره عرضا خلال قصة جرت مع يوسف الموحدي مبسوطة في : وفيات الأعيان (2) 494 ـ 595، **6**. أبو الحجاج يوسف بن يحيى بن اسحاق الأسرائيلي الفاسي المغربي تـ 623، قرأ ببلاده، وكان فاضلا في صناعة الطب والهندسة وعلم النجوم، واشتغل في مصر بالطب على الرئيس موسى بن ميمون الاسرائيلي القرطبي، وسافر بعد ذلك الى الشام وأقام بحلب وبها توفى، وله من الكتب كتاب في ترتيب الأغذية اللطيفة والكثيفة في تناولها، وشرح الفصول لابقراط، إصلاح هيئة بن أفلح الأندلسي اجتمع على تحريرها هو وموسى بن ميمون المذكور (5). **7**. أبو الحجاج يوسف بن فتوح القرشي المري، استقضي بمدينة فاس وتوفي 561، له معرفة بالنبات كان يجلبه ويتجر فيه (6)، **8**. أبو العباس أحمد ابن عبد الله بن موسى القيسي الأشبيلي، سكن مدينة فاس وبها توفى 571، كان ذا معرفة للطب (7)، **9**. أبو العباس أحمد بن عبد الملك الجذامي القرطبي الأصل، نشأ بسبتة وبها سكن وتوفي بمراكش 650، كان ماهرا في الطب (8). **10**. ونختم أسماء الأطباء في هذا العهد بطبيب كبير أصله من المغرب، فنذكره هنا ليبحث عن نوع مغربيته، وهو القطب المصري أبو إسحاق ابراهيم بن علي بن محمد السلمي المغربي قتله التتار بنيسابور عام 617، أصله من المغرب، ثم انتقل الى مصر وأقام بها مدة، ثم سافر الى بلاد العجم وأخذ عن الامام فخر الدين الرازي؛ كان من أشهر تلامذته؛ عالما بالمعقولات، وألف كتبا كثيرة في الطب والحكمة، منها : شرح الكليات بأسرها من كتاب القانون لابن سينا (9).

وزيادة على هؤلاء فقد كان بالمغرب في هذا العهد عدد وفير من الأطباء والصيادلة الآخرين برسم خدمة خلفاء الموحدين، وبرسم خدمة المارستانات، وهذه جملة ممن خدم الخلفاء منهم :

4) نفح الطيب 2. 44، 138. مقال للدكتور يوسف شخت مجلة المستمع العربي س 3 ع 15 مقال الاستاذ مصطفى زبيس. **مجلة الثريا** س 3 العدد الممتاز الخاص بالمغرب

5) اخبار الحكماء 256 ــ 258 طبقات الاطباء 2. 213

6) التكملة 2079. الصلة 410

7) الجذوة 70

8) التكملة ط. الجزائر 326

9) طبقات الاطباء 302 طبقات الشافعية 48.5 حسن المحاضرة 232.1

أطبـاء الخلفـاء الموحديـن.

عبـد المومـن

طبيباه : أبو مروان عبد الملك بن زهر الأيادي الشبيلي تـ 557، ألف لمخدومه الترياق السبعيني، واختصره عشاريا، ثم اختصره سباعيا، كما ألف له كتابا في الأغذية (10)، وقد أثر ابن زهر هذا أثرا بليغا في الطب الأوربي، وظل هذا التأثير إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادي، وذلك بفضل ترجمة كتبه الى العبرية واللاتينية (11)، أبو بكر محمد الحفيد ابن الطبيب قبله 507 ـ 595، خدم بالطب عبد المومن، وخدم من بعده يوسف ثم يعقوب المنصور ثم محمد الناصر، وكان مكينا بصفة خاصة عند يعقوب، وألف له الترياق الخمسيني (12).

يـوسـف

أطباؤه : الوزير أبو مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي تـ 575، (القرطاس 131). الوزير أبو بكر ابن طفيل القيسي الودآشي تـ 581، المصدر 131. أبو جعفر بن هارون الترجالي الأشبيلي، (طبقاء الأطباء (2) 74. أبو الوليد ابن رشد استدعاه يوسف إلى سكنى مراكش سنة 578 برسم الطب، وخدم أيضا المنصور والناصر، وكان يلاقي احتراما خاصا منهما (13).

المنصـور

أطباؤه : عبد الله بن علي بن عبد الله بن غلنده الأموي مولاهم السرقسطي أبو الحكم تـ 581 (14). أبو الحسين بن أسدون شهر بالمصدوم، تـ 588 (15). أبو جعفر أحمد بن حسان القضاعي البلنسي تـ 598، ألف لمخدومه : كتاب تدبير الصحة (16). أبو جعفر بن الغزال المري، كان المنصور يعتمد عليه في الأدوية المركبة والمعاجين ويتناولها منه (17). ابن الخلاء المرسي (18). أحمد بن عتيق البلنسي ثم المراكشي الذهبي 554 ـ 601، خدم المنصور بالطب

10) طبقات الاطباء 2. 66 التكملة 1717
11) دائرة المعارف الاسلامية ج. 1 ع 3
12) طبقات الاطباء 2. 68 التكملة 855. دائرة المعارف الاسلامية مج 1. ع 3.
13) القرطاس 131، 137 طبقات ط 2. 76
14) طبقات الاطباء 2. 79 التكملة 1516
15) طبقات الاطباء 2. 79
16) طبقات الاطباء 2. 79
17) طبقات الاطباء 2. 80
18) طبقات الاطباء 2. 81

ثم خدم بعده للناصر (19). أبو مروان عبد الملك بن قبلال الغرناطي، خدم به المنصور ثم الناصر (20). أبو الحجاج يوسف بن أحمد بن علي المريبطري تـ 619، خدم المنصور والناصر والمستنصر (21).

الناصر

أطباؤه : أبو بكر محمد بن الحفيد أبي بكر ابن زهر 577 ـ 602. أبو محمد عبد الله بن أبي الوليد ابن رشد الحفيد. أبو محمد الشذوني الاشبيلي (22). أبو عبد الله بن سحنون المعروف بالندرومي؛ خدم الناصر في آخر دولته ثم المستنصر (23). أبو جعفر أحمد ابن سابق القرطبي (24). أبو إسحاق بن طملوس البلنسي (25).

المستنصر

عبد العزيز بن سلمة الباجي (26).

الطبيبات في دور الخلفاء

وكما اختص الخلفاء الموحدون بأطباء لأنفسهم؛ كذلك اختص حرمهم بطبيبات لأنفسهن، ومن هؤلاء أخت الحفيد أبي بكر ابن زهر وبنتها، كانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء، وكانتا تدخلان الى نساء المنصور، ولا يقبل المنصور وأهله ولدا إلا أخت الحفيد وبنتها لما توفيت أمها، (27).

بيت الأشربة والمعاجين الطبية

وكان هذا البيت أو الخزانة خاصا بخلفاء الموحدين، وهو من مظاهر تنظيم الطب في عهدهم، وقد تولاه أيام يوسف : أبو محمد قاسم الاشبيلي، وتولاه أيام يعقوب : أبو يحيى بن

19) طبقات الاطباء 2. 81 التكملة 2410 ط الجزائر
20) طبقات الاطباء 2. 79
21) طبقات الاطباء 2. 78
22) طبقات الاطباء 2. 79
23) طبقات الاطباء 2. 81
24) طبقات الاطباء 2. 81
25) طبقات الاطباء 2. 81
26) طبقات الاطباء 2. 79. 80
27) طبقات الاطباء 2. 70

قاسم المذكور، وبقي في وظيفته هذا الى أن توفي أيام المستنصر، فجعل ولده في موضعه عوضا عنه (28).

... والأمراء الموحدين

والأمراء الموحدين هم الآخرون كان لهم اهتمام بهذا الفن، ومنهم : السيد أبو علي بن عبد المومن صاحب اشبيلية؛ خدمه بالطب الدكتور أبو بكر بن أبي الحسن الزهري القرشي الاشبيلي (29)، والسيد أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المومن؛ كان يجالس الطبيب ابن رشد، وهو الذي اقترح على هذا الأخير أن يصنع شرحا على الأرجوزة المنسوبة لابن سينا في الطب، كما أشار لهذا طالعة الشرح المذكور، الذي توجد منه نسخة بمكتبة كاتبه.

المستشفيات

ولم يشغلهم اهتمامهم بالطب الخاص عن الاهتمام بالطب العام، فقد أسس يعقوب مارستانات للمرضى والمجانين وأجرى الانفاق على أهلها (30)، أسسها في مراكش، وشالة، والقصر (31).

أما مارستانات شالة والقصر فلم أقف على من وصفها، وإنما وقفت على وصف أعظم هذه الثلاثة وهو مستشفى مراكش، الذي أسسه يعقوب شرقي الجامع المكرم على حد تعبير صاحب الاستبصار. وهذه صفة هذا المستشفى، قال المراكشي في المعجب 190 ـ 191 : «وبنى ـ يعقوب المنصور ـ بمدينة مراكش بيمارستان ما أظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه تخير ساحة فسيحة باعدل موضع في البلد، وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه، فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسطه إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجا عما جلب اليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء. فإذا بريء المريض فإن كان فقيرا أمر له عند

28) طبقات الاطباء 2. 79
29) طبقات الاطباء 2. 80
30) القرطاس 138
31) الثريا. السنة 3 عدد المغرب الممتاز

خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنيا دفع اليه ما له وتركته وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج، إلى أن يستريح أو يموت، وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت، يقول : كيف حالكم ؟ وكيف القومة عليكم ؟ الى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج، لم يزل مستمرا على هذا الى أن مات رحمه الله» . هذا كلام المعجب في وصف هذا المارستان العظيم، وهو يفيدنا عن نظامه : أن يعقوب أجرى له ثلاثين دينارا يوميا برسم الطعام وما ينفق عليه فقط. وأنه كان به قسم للصيدلة أقام فيه يعقوب الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال. وكان به للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء وأن كل من مرض بمراكش من الغرباء حمل إليه وعولج... فإن كان المريض غنيا حوفظ على ما معه من مال ومتمول حتى يبرأ فيدفع اليه، وإن كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به حتى يستقل. وإن الخليفة يعقوب كان يراقب هذا المستشفى بنفسه، فكان يزوره كل جمعة بعد صلاته ويعود مرضاه، ويستفسرهم بيتا بيتا عن حالهم وحالة القومة عليهم.

ويلاحظ على صاحب المعجب بأنه بقدر ما تبسط في وصف شكل المارستان المادي، فإنه أجحف فيما سوى ذلك، فلم يسم ولا طبيبا من موظفيه، وحتى اسم رئيسه لم يذكره، وقد ذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء (2) 79 : أسماء بعض رؤسائه، فإنه لما ترجم لأبي إسحاق ابراهيم الداني البجائي الأصل قال عنه : ونقل الى الحضرة ـ مراكش ـ وكان أمين البيمارستان وطبيبه بالحضرة، وكذلك ولداه، والأكبر منهما وهو أبو محمد قتل في غزوة العقاب في الأندلس مع الناصر، وتوفي الداني في مراكش في دولة المستنصر بن الناصر. كما أنه لم يبين هل كان به قسم خاص بالمصابين بالأمراض العقلية، كما هو الحال في مارستانات الشرق التي كانت معاصرة لمرستان مراكش ؟ وهذا تجيبنا عنه عبارة القرطاس الآنفة ص 129، فإنها تنص على أن المارستانات التي ابتناها يعقوب كانت للمرضى والمجانين، وبعد هذا فإن ابن أبي أصيبعة يذكر في طبقات الأطباء عن نظام المستشفيات الاسلامية ما يأتي :

كانت البيمارستانات منقسمة إلى قسمين منفصلين بعضها عن بعض : قسم للذكور، وقسم للاناث، وكل قسم مجهز بما يحتاجه من آلة وعدة وخدم وفراشين من الرجال والنساء، وقوام ومشرفين وفي كل قسم من هذين القسمين عدة قاعات لمختلف الأمراض، فقاعة للأمراض الباطنية، وقاعة للجراحة، وقاعة للكحالة، وقاعة للتجبير. وكانت قاعة الأمراض الباطنية منقسمة الى أقسام أخرى : قسم للمحمومين، وقسم للممرورين، وقسم للمبرودين، ولمن به إسهال الخ. ولكل قسم رئيس، فمن رئيس الأمراض الباطنية، ورئيس للجرائحية

والمجبرين، ورئيس للكحالين، وللبيمارستان بأجمعه رئيس يسمى ساعور البيمارستان (32).
فهل كانت هذه الأنظمة متبعة في مستشفى مراكش الذي نحن بصدد الحديث عنه ؟ لاشك أن ابن أبي اصبيعة الذي توفي سنة 668 كما في الشذرات (5) 327، إنما وصف نظاما كان العمل جاريا به في المستشفيات الاسلامية. ولا شك أيضا أن عبد الواحد المراكشي لم يكن مجازفا حيث قال عن مستشفى مراكش : ما أظن أن في الدنيا مثله، أي في شكله وفي نظامه، كيف وهو المؤرخ الثبت الذي سجل هذه الشهادة بعدما اتصل بالشرق والشرقيين، وزار مصر واستقر بالعراق حيث ألف كتابه المعجب. فإذا لاحظنا هذا وذاك، فهل يمكننا أن نعتبر أن تلك الأنظمة كانت معمولا بها في هذا المستشفى المغربي أو بالأحرى كان متوفقا بها ؟ هذا ما لااستبعده، وإن كنت لا أستطيع الجزم به.

من ابتكارات الموحدين

ونختم الحديث عن الطب والأطباء في الدولة الموحدية بعجيبة من عجائب تنظيماتهم الطبية، واحتياطاتهم أيام الوباء، وذلك ما جاء في القرطاس 171 ـ 172 : إنه في سنة 571 كان الطاعون الشديد بمراكش وأحوازها... فكان الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه ونسبه وموضعه في براءة ويجعلها في جيبه، فإن مات حمل الى موضعه وأهله. وهذا النوع من (الكارني) الذي سبق الموحدون الى استعماله، كاف في الأعراب عن عظمته ؛ ناطق بعبقرية الموحدين في ميداني الابتكار والنظام.

وبانتهاء الحديث عن الطب تم بحث العلوم التي أوردت منها فوق الثلاثين علما؛ كلها كانت شائعة ناهضة في عصر الموحدين. وبديهي أن ما ذكرته من العلوم إنما هو مثال فقط للنهضة العلمية التي ظهرت حينئذ في أكثر من العدد المذكور، وازدهرت في علوم أخرى نخص منها بالذكر علم السياسات، وقد كانت موجودة بالمغرب ـ على هذا العهد ـ بعض أنواعه، وكانت تدرس ـ بدون شك ـ مسائل منه، يشهد لهذا ما مر بنا لدى الحديث عن مدرسة عبد المومن ص (23 ـ 24) : إن من المواد التي كانت تدرس دراسة حسنة بهذه المدرسة : عدة كتب في إدارة الولايات ومزاولة شؤون الدولة، وينبغي أن يراجع عن هذا الموضوع أيضا ما سنذكره في مبحث الفنون كمظاهر لنهضة بعض أصناف علم السياسة. كذلك من العلوم التي ازدهرت إذ ذاك علم التصوف بمذاهبه المتنوعة وأشياخه الكثيرين، وما منعني من إدراجه في هذا البحث إلا عدم توافر المواد الكافية في الموضوع، فعسى أن يرفع هذا المانع، وتتيسر المواد الكافية، حيث أدرس التصوف على حدة وأذيل به هذا البحث.

وبعد هذا انقل الحديث الى الآداب في هذا العصر.

32) من مقال الاستاذ محمد السويسي مجلة المباحث التونسية ع. 41 ــ 43 السلسلة الجديدة

الآداب

نهضة الآداب

وجد الادب المغربي في هذه الحقبة أدبا مغربيا موسوما بسيما الاجادة والتفنن والابداع، وإن الفضل الأول في هذه النهضة يعود لأكثر خلفاء الموحدين الذين شجعوا هذه الحركة الأدبية بمثل ما تحدثنا عنه في المقدمة ص (19 ـ 20)، وبما كانوا عليه هم وكثير من أمرائهم من معاناة للأدب، ومعاطاة للشعر، حتى أنهم ـ بتشجيعهم المزدوج المادي والأدبي ـ ليحق فيهم قول اليتيمة في بني حمدان : ملوك وأمراء، ألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وكان لغير واحد منهم ذوق خاص في تفهم الشعر ونقده، وانظر في هذا ما جاء عن عبد المومن، فإنه لما انشده ولد الشريف الطليق المرواني :

ما للعدى جنة أوقى من الهرب

قال رافعا صوته : الى أين الى أين ؟ فقال الشاعر

أين المفر وجيش الله في الطلب

فما أتم القصيدة، قال عبد المومن «بمثل هذا تمدح الخلفاء»، (1)، ولما انشده ابن سيد (اللص) :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل وانظر الى الجبل الراسي على جبل
إني استقر به أنى استقل به إني أرى شخصه العالي فلم يزل

قال له عبد المومن : لقد ثقلنا... (1).

وحين ألقى بين يديه أبو عبد الله محمد بن أبي العباس التيفاشي :

1) المعجب 138
2) نفس المصدر 139

ماهز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المومن بن علي

أشار عليه بأن يقتصر على هذا البيت وأمر له بالف دينار (3).

ويعقوب المنصور هو الآخر؛ ورد عنه بعض ما ذكر، ومن هذا أنه كان بمجلس أبيه يوسف وهو حينئذ وزيره، فانشد ابن مجير يهنيء يوسف بفتح :

إن خير الفتوح ما كان عفوا مثل ما يخطب الخطيب ارتجالا

وكان أبو العباس الجراوي حاضرا، فقطع عليه معترضا بأنه اهتدم بين وضاح :

خير شراب ما كان عفوا كأنه خطبة ارتجالا

فبدر المنصور وسنه إذ ذاك قرب العشرين، وقال : إن كان اهتدمه فقد استحقه، لنقله إياه من معنى خسيس الى معنى شريف، فسر بجوابه، وعجب الحاضرون (4).

ولقد سرى الاعتناء بالأدب من الملوك للأمة، والناس على دين ملوكهم، فاهتموا بسائر مواضيع الأدب : حفظا ودرسا، حتى الهجو، ومن هذا قول المعجب 197 لدى حديثة عن ابن حزمون الشاعر الهجاء : «ولا أعلم في جيمع بلاد المغرب بلدا إلا وأهاجي هذا الرجل تحفظ فيه وتدرس»، كما صارت المفاضلة بين الأدباء حديث المجالس، وانظر في هذا إلى ما جاء في ترجمة الشيخ الشهير أبي العباس السبتي من الأعلام (1) 251 : إنه سئل يوما في مجلسه من أشعر ابن حبوس أو أبو العباس الجراوي ؟

وكان من أثر هذا أن قامت للآداب في أيامهم نهضة كبرى ظهرت عظمتها في كثير من المقامات، منها في الندوة الأدبية التي أقامها عبد المومن على ظهر جبل الفتح. حيث تبارى الأدباء المغاربة والأندلسيون : كتابهم وشعراؤهم، وتفصيل الحديث عن هذا اليوم الجليل يوجد في المعجب 137 ـ 142 مع الحلل الموشية 118 ـ 119 وزاد المسافر 2 و52، 85 والنفح (2) 336 و446، ومنها يوم رجع يعقوب المنصور عن غزوة الأرك الشهيرة. فقد ورد عليه الشعراء من كل قطر من أقطار مملكته يهنئونه، فلم يمكن لكثرتهم أن ينشد كل شاعر قصيدته، بل كان يختص منه بانشاد البيتين أو الثلاثة المختارة، وانتهت رقاع القصائد وغيرها في هذا اليوم الى أن حالت بين يعقوب وبين من كان أمامه لكثرتها (5).

3) وفيات الاعيان 1. 391
4) النفح 2. 162
5) النفح 2. 430

ويلحق بهذا ما ذكره في المعجب 114 عن الأمير عثمان بن عبد المومن، قال : اجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتاب عصابة ما علمتها اجتمعت لملك منهم بعده.

وإن هذه النهضة الأدبية بلغ صداها حتى قطر السودان الغربي ولأول مرة في تاريخ هذا القطر ينبغ ـ في هذا العصر ـ شاعر من أبنائه وهو أبو إسحاق ابراهيم بن محمد بن فارس الذكراني من أهل كانم من السودان تـ 608، كان عالما بالآداب شاعرا مفلقا، ترجمه في القسم الأول من التكملة ع 461 وحلاه بما ذكر، كما ذكره في الوفيات (2) 434 والنفح (2) 537. والاستقصا (1) 181، وقالوا عن هذا الشاعر الأسود : أنه دخل على يعقوب المنصور وأنشده :

أزال حجابه عني وعيني ... تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكن ... بعدت مهابة عند اقترابي

وجد الأدب المغربي في هذه الحقبة في أعقاب العصر العباسي، وبجوار الأدب الأندلسي، وعلى انقاض الأدب المرابطي، ولم يكن لينسلخ عن التأثر بالآداب الثلاثة، وبخاصة الأخيرين؛ فإنه أخذ منهما وتأثر بهما ولكن بمقدار، لم تضع معه شخصيته المغربية الموحدية التي كانت مطبوعة بمميزات ميزته عن سواه، وأول ما يظهر من هذه المميزات أن الأدب المغربي في هذا العصر خلا في غالب مظاهره ـ خلافا لما كان شائعا في الآداب العربية الأخرى لهذا العهد ـ من الزخرف والصنعة، سراية من البساطة التي نشأت عليها الدولة، كما خلا ـ في الجملة ولا سيما أيام عظمة الموحدين ـ من السفاسف التي كانت شائعة في الأدب العربي حينئذ، فنذر فيما وقفت عليه شعر الخمريات، وقل أدب التغزل المكشوف، وذلك تأثرا بالطابع الديني الذي كانت عليه الدولة إبان عظمتها، حتى إن عبد المومن لما أنشد في مجلسه أبو بكر محمد بن ميمون بن عبد الله القرطبي أبياتا ثلاثة يتغزل فيها في شاب من أهل أغمات، هجره هذا الخليفة ومنعه من الحضور في مجلسه، وصرف بنيه عن القراءة عليه (6).

وما يؤثر من شعر لعبد المومن في التغزل بفتاة قدت فؤاده، ومساجلته في هذا الموضوع مع وزيره ابن عطية الى آخر القصة الشهيرة، فالغالب أن ذلك مفتعل على عبد المومن من خصومه، ومما يؤيد هذا أنه لم يجزم بالقصة واحد ممن رواها؛ فالأنيس أوردها 129 بلفظ قيل والنفح (3) 101 بعبارة : وقد حكى، والاستقصا (1) 154 صدرها بقوله : يروى،

6) انظر [illegible] التعليق 62

وأن من يقرأ صدر ص 134 من (مجموع رسائل موحدية)، ويضيف ذلك لموقف عبد المومن مع ابن ميمون، يجزم بما ذكرنا، ويقطع بأن القصة لارأس لها ولا ذنب.

وكما تأثر الأدب في هذا العهد بما ذكر، كذلك تأثر بالهداية ومبادئها، والدولة ونظامها، وبكثير من العلوم الفلسفية التي كانت شائعة في هذا العصر، وظهر هذا بصفة خاصة في الشعر، وبصفة أخص في أشعار ابن حبوس وأبي حفص الأغماتي وابن خبازة، بل وتأثر الأدب أيضا بالعلوم الأخرى، حتى علم اللغة ظهر أثر نهضته في شكل مخل ببلاغة الأدب في بعض رسائل ومخاطبات أبي الخطاب ابن دحية وأخيه أبي عمرو، وانظر عن أبي الخطاب عنوان الدراية 160 ونفح الطيب (1) 369، عن أخيه الصلة 140. والتكملة 1837. وبغية الوعاة 322.

كذلك ظهر أثر عظمة الدولة في أدب هذه الحقبة؛ فوجد شعراء عباقرة متفننون تناولوا أكثر أبواب الشعر العربي. ونبغ من بينهم أفراد مكثارون طويلوا النفس، جمعت لهم دواوين ضمت آثارهم كما ظهرت مؤلفات أدبية قيمة.

ومن الدواوين الشعرية التي جمعت في هذا العهد :

1. ديوان أبي عبد الله بن حبوس الفاسي، قال في الذيل والتكملة، وقد جمع له بعض أصحابه المختصين به ما علق بحفظه منه أو حضره ذكره أو أسأرته عوادي التنقل والاضطراب الى آخر ربيعي ستين وخمسمائة، فناهز ذلك ستة آلاف بيت وخمسمائة بيت، وقد وقفت منه على مجلد متوسط، وكانت وفاته سنة 570 (7).

2. ديوان أبي بكر عتيق بن علي الصنهاجي الحميدي المكناسي ثم الفاسي، ذكره في التكملة 2433، والجذوة 278.

3. ديوان الأمير أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المومن (8)، جمعه له الكاتب الشاعر أبو عبد الله محمد بن عبد ربه المالقي (9).

4. ديوان أبي العباس الجراوي التادلي، وقف عليه ابن الابار، وحدث عنه في التكملة القسم الأول ع 323.

5. ديوان أبي عمرو ميمون ابن عبد الخالق الريفي الصنهاجي الخطابي المعروف بابن خبازة، جمع فيه كثيرا من شعره أبو عمرو ابن سالم بن صالح البهراني المالقي (10).

7) انظر الاعلام 3. 31
8) النفح 2. 102
9) المصدر المذكور 1. 368
10) انظر ازهار الرياض 2. 380

6. ديوان أبي عبد الله محمد بن علي بن العابد الأنصاري، أشار له في البغية 77.

ومن الكتب الأدبية المؤلفة بهذا العصر : المطرب في أشعار أهل المغرب لأبي الخطاب ابن دحية (11)، وتأليف أبي القاسم عبد الكريم بن عمران القصري في شعراء عصره، أخذا من شعر للمذكور اثبته في الاعلام (3) 102، وصفوة الأدب وديوان العرب لأبي العباس الجراوي، وهو مجموع يحتوي على فنون الشعر على وضع الحماسة لأبي تمام الطائي، وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق (12)، واختصار الصفوة المذكورة لمؤلفها، وهو الحماسة المتأخرة، ويوجد من هذا الاختصار نسخة خطية في خزانة السلطان الفاتح بالاستانة، وقد أخذت لها صورة فتوغرافية في الأيام الأخيرة بهمة الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي أحسن الله اليه، (13). ومن الكتب الأدبية الأخرى اختصار الأغاني للامير أبي الربيع الموحدي الآنف الذكر (14)، ورسالة البرهان، في ذكر حنين النفوس الى الأحبة والأوطان، لأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي (15)، وشرح المقامات لعقيل ابن عطية المراكشي (16)، وليوسف بن يحيى التادلي عرف بابن الزيات، وهو شرح نبيل جدا (17)، واسمه نهاية المقامات في دارية المقامات (18)، وشرح أبي موسى الجزولي المار الذكر في علم النحو على ديوان المتنبي، اختصره من أحد شرحي أبي جني عليه (19)، وشرح مقصورة ابن دريد لابن هشام السبتي (20)، ونختم قائمة التآليف الأدبية فنذكر أن شرح الشريشي ـ ت 619 ـ الأوسط على المقامات ـ وهو الشرح اللغوي ـ كان باقتراح أهل سجلماسة على مؤلفه في هذا العهد (21).

ولم تكن عظمة الدولة لتظهر في هذا النوع من الأدب فقط، وأنه قد ظهر أثر فخامتها وتجديدها بصفة أجلى وأكمل في أدب النثر الفني كتابة وخطابة وغيرها.

فالكتابة تنوعت في هذا العهد الى ديوانية واجتماعية وسياسية وأدبية وإخوانية وتوقيعات، كما سيمر بنا تفصيل هذا، وتنوعت الكتابة الديوانية الى كتابة إنشاء وكتابة جيش، ولكل من الصنفين كتاب على حدة، هكذا كان شأنهم من عهد يوسف فما بعده حسبما

11) كشف الظنون 2. 455
12) وفيات الاعيان 2. 494
13) ارجع الى الملحق الثقافي لجريدة المغرب ع 9، ومجلة الانوار ع. ربيع 1367 فبراير 1948
14) نفح 2. 102
15) سلوة 3. 268، 269
16) الصلة 313، الديباج 219
17) نيل 352
18) كشف 2. 498
19) ارجع الى الوفيات 1. 498
20) التكملة 1053 بغية 20
21) كشف 2. 498

يؤخذ هذا من المعجب 160 و174 و209 و218، وبخاصة الرسائل الموحدية ظهر فيها أثر التجديد الموحدي جليا، فإنهم نوعوا أسلوبها الى لونين : الأول أن تفتتح الكتابة بلفظ من فلان الى فلان والثاني أن تفتتح بلفظ أما بعد والأسلوب الأول ـ وهو الشائع كثيرا في السلسلة التي ظهرت من رسائل الموحدين ـ كان الرسم فيه أن يقال من أمير المومنين فلان ويدعى له بما يناسبه : الى فلان ويدعي له بما يليق به، ثم يوتى بالسلام، ثم بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والترضيه عن الصحابة، ثم عن إمامهم المهدي ثم يوتى على المقصود ويختم بالسلام، والخطاب يعبر فيه بنون الجمع عن الخليفة، وبميم الجمع عن المكتوب إليه (22).

وقد اكتمل تجديد رسائل الموحدين وطبعها بطابعهم نهائيا في عهد المنصور، على يد كاتبه ثم كاتب الناصر ابنه : أبي عبد الله محمد ابن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عياش التجيبي المتوفي بمراكش سنة 619، قال في المعجب 174 لدى حديثه عن ابن عياش هذا : «ولم يكتب لهم منذ قام امرهم... من كتبة الانشاء من عرف طريقتهم وصب في قالبهم وجرى على مهيعهم وأصاب ما في أنفسهم كأبي عبد الله بن عياش هذا فإن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب، ثم جرى الكتاب من بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه، لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة»، وقد ختم (مجموع رسائل موحدية) بثلاث رسائل من إنشاء هذا الكتاب؛ وهي على نحو ما وصف في المعجب (23).

وكانت رسائلهم في هذا العهد مائلة ـ في أغلب أحوالها ـ الى الاطناب والتوسع، كما تراه في مجموع رسائل موحدية. على أن أحد ملوكهم كان في بعض الأحيان يوجز الكتب غاية الايجاز، وينحو منحى الصحابة في فتوحاتهم، حسبما أمر بهذا يعقوب المنصور في غزوة الأرك بالأندلس (24).

ومن حسنات هذا العصر **مجموع رسائل موحدية** الذي يضم 37 رسالة من إنشاء كتاب هذه الدولة؛ اعتنى بإصداره الأستاذ بروفانصال وطبع في الرباط سنة 1941.

والخطابة العربية هي الأخرى حاول القوم أن يعيدوا لها رونقها وبهجتها، بعد ما كادت تندثر من العالم العربي، وذلك بما أحيوا من الخطابة السياسة التي صدرت عن غير واحد من خلفائهم، مثل المهدي والمامون، وكذا خطابة الجهاد، ومن أمثلتها ما وقع في غزوة الأرك من هذا النوع، حسبما يعلم من القرطاس 144 وغيره وكذلك الخطابة عن الوفود وفي النوازل

22) ارجع الى صبح الاعشى 2. 443 ومقدمة مجموع رسائل موحدية
23) ارجع الى المجموع 228 — 259
24) الرسائل السنية 1 ع 8 الحلل الموشية 121

المهمة، قال في المعجب 161 في ترجمة أبي موسى عيسى بن عمران التسولي الورديشي : كان يتكلم عن الوفود ويخطب في النوازل فيأتي بكل عجيبة، وارجع إليه 218، كما أدخلوا تنظيمات على الخطابة الدينية، كما يعلم هذا من الوقوف على الخطبة من هذا النوع التي أورد نصها في المعجب 228 ـ 230.

ويلحق بالخطابة الوعظ، وقد قامت له سوق في هذا العصر، ومن أبرز شخصياته أبو عبد الله محمد بن أحمد التلمساني المكناسي الأصل المعروف بابن الحجام 558 ـ 614، رئيس أهل عصره في هذا الميدان، والمؤلف فيه تأليفا حفيلا سماه (حجة الحافظين ومحجة الواعظين) (25)، وينبغي أن نضيف لابن الحجام زمرة كريمة ممن كانوا ينتحلون هذه المهنة، ومنهم أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمان بن بقي السلوي تـ 563 (26)، وأبو موسى عيسى بن واصل المراكشي تـ 237 (27)، وأبو إسحاق ابراهيم بن جابر المخزومي المراكشي. تـ 641 (28)، وأبو إسحاق ابراهيم بن أحمد بن هارون المرادي الفاسي يعرف بابن الكماد تـ 633 (29).

ومن المميزات الأخرى لهذا العهد؛ أن الموحدين شجعوا نشر الكتب التي تتحدث عن الفروسية أو سيرها، أو كتب المغامرات والقصص في جميع أنحاء المملكة سواء في المغرب أو الأندلس، بل لقد سمح بقراءة هذه الكتب من فوق منابر المساجد (30).

ومن القصص التي كانت شائعة على هذا العهد قصة الجازية والشريف، التي يرويها موجزة ابن خلدون في تاريخه، لدى حديثه عن دخول العرب الهلاليين لافريقية، ويقول : ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم الى افريقيا طرق، يزعمون أن الشريف بن هاشم كان صاحب الحجاز ومكة، ويسمونه شكر بن أبي الفتوح؛ وإنه أصهر الى الحسن بن سرحان في أخته جازية فأنكحه إياها، وولدت منه ولدا واسمه محمد، وأنه حدث بينهم وبين الشريف المذكور مغاضبة وفتنة، فاجمعوا الرحلة عن أرض نجد الى افريقيا، وتحيلوا عليه في استرجاع اخته جازية المذكورة، فطالبته بزيارة أبويها فازارها إياهم، وخرج بها الى حللهم، وأقام معها مدة الزيارة، فارتحلوا به وبها وكتموا رحلتهم عنه، وموهوا عليه بأنهم يباركون به الصيد والقنص

25) انظر الاعلام 3. 87، 88
26) التكملة 82. 27
27) الصلة 96
28) التكملة القسم الاول ع 462. جذوة 87
29) جذوة 84
30) تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ج 2. 54.

ويروحون به الى بيوتهم بعد بنائها، فلم يشعر بالرحلة الى أن فارق موضع ملكه، وصار الى حيث لايملك أمرها عليهم؛ ففارقوه ورجع الى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها داء دخيل؛ وإنها من بعد ذلك كلفت به مثل ما كلف بها الى أن ماتت من حبه، ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعفي على خبر قيس وليلى، ويروون كثيرا من أشعارها محكمة المباني مثقفة الأطراف، وفيها المطبوع والمنتحل المصنوع... وهم متفقون على الخبر عن حال جازية هذه والشريف خلفا عن خلف، وجيلا عن جيل، ويكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمى عندهم بالجنون لتواترها بينهم (31).

هذا سياق حكاية ابن خلدون لهذه القصة التي هي أصل قصة أبي زيد الهلالي الشهيرة، ومما يؤيد شيوعها في هذا العهد بالمغرب قول ابن خلدون : أن بني هلال متفقون في الخبر عن حال جازية والشريف خلفا عن سلف وجيلا عن جيل، فهذا السلف والجيل الذين رويت عنهم القصة لابد أن يتناول العرب الهلاليين الداخلين للمغرب وأعقابهم في العصر الموحدي، فهؤلاء لاشك أنهم تحدثوا بها وكانوا من السلف والجيل المذكورين في سند القصة.

ومن القصص الأخرى التي كانت رائجة على هذا العهد في الجملة قصة حي بن يقظان الفلسفية تأليف ابن طفيل، وممن قرأها حينئذ عبد الواحد المراكشي الذي وصفا موجزا في كتابه المعجب 156، ويوجد بدائرة المعارف الاسلامية مج ل ع (4) ذكر لخلاصة هذه القصة.

وآخر المميزات التي نذكرها لهذا العهد أن فيه ظهر ميل المغاربة للبحوث القصيرة، ومن أمثلة هذا أن يعقوب المنصور كان يقترح على الشعراء عروضا يسمى الخبب، كما في المعجب 194. كما ظهر فيه استعمال الأوزان المولدة من التوشيح والزجل وما إلى ذلك، وبسطة الكلام عن هذه الأوزان المولدة نخصها ببحث على حدة.

التوشيح والزجل

لعلنا لانعدو الحق إذا قلنا إن المغاربة عانوا فن التوشيح في عصر الموحدين ؛ هذا النوع الذي وجد في الأندلس جارة المغرب قبل هذا العهد بأزمان وأجيال، وشاع بها في هذا العصر وفي العصر اللمتوني قبله شيوعا بلغ به الغاية من الوفرة والاتقان، كما يعلم من أواخر مقدمة ابن خلدون 542 ـ 546.

أما المغرب فلا شك أنه بدوره كان أهله يعانون فن التوشيح على هذا العهد؛ فقد كان هذا الفن محبوبا عند غير ملك من ملوك الموحدين، وقد مدح به الناصر منهم؛ مدحه به أبو

31) بواسطة الاستقصا 1. 167، 168.

الحجاج يوسف بن أحمد بن علي المريبطري (32)، وأهدى بعض الأدباء للمرتضى الموحدي من أواخر ملوكهم تأليفا يتضمن الكثير الطيب من التوشيح (33)، وكذا كان محبوبا لدى الأفراد، ومن أمثلة هذا ما جاء عن الشاعر الأندلسي الكبير الهيثم الأشبيلي المتوفى سنة 630 كما في التكملة 2023 : أنه مر بقصر كتامة يريد مراكش، فاقترح عليه الشيخ أبو علي القصري رسالة وموشحة وشعرا؛ حيث أجاب الشاعر الأندلسي طلب المقترح المغربي حينا وبديهة، كما ورد في هذا : كتاب الوافي في القوافي تأليف أبي البقاء صالح بن شريف الرندي (خ).

يضاف الى ما ذكر أنه في هذا العهد توافد على المغرب عدد من الوشاحين الأندلسيين واتصلوا بأهله، وأقام غير واحد منهم به، ومن هؤلاء الوافدين : أبو بكر بن زهر الحفيد الماز الذكر في الحديث عن الطب وموشحاته توجد نسخة منها بالأسكوريال من اسبانيا، وابن حزمون، كما يؤخذ من المعجب 196 ـ 197، والمريبطري الهيثم الآنف الذكر.

ومع هذا كله يبعد كل البعد أن لايكون المغاربة عانوا التوشيح واشتغلوا به، بل المحقق أنهم نظموا فيه وشاركوا في نهضته على هذا العهد، والسبب في كونه لم ينقل لنا ولا بيت واحد منه : أن المؤرخين المغاربة في هذا الوقت ـ زيادة على إهمالهم ـ لم تجر عادتهم بإيراد الموشحات في الكتب المجلدة المخلدة، كما يذكر هذا في المعجب (56)، اعتذارا عن عدم ذكر موشحات أبي بكر ابن زهر الآنف الذكر.

وينبغي أن يلحق بالتوشيح الزجل الذي وجد بالأندلس قبل هذا العهد، وأول من أبدع فيه لعصر اللمتونيين : أبو بكر ابن قزمان إمام الزجالين على الاطلاق، ثم بلغ هذا الفن مبلغا كبيرا بالأندلس في عهد الموحدين، ومن رجاله مدغليش وابن حجدرو تلميذه المعمع كما في المقدمة 548 ـ 550، وقد دخل بعض الزجالين الأندلسيين للمغرب، مثل أبي الحسن سهل بن مالك الغرناطي كما يؤخذ من النفح (2) 230، ومدح بعضهم الموحدين بالزجل مثل ابن حجدو المذكور، الذي فضل على الزجالين في فتح مورقة بالزجل الذي أوله.

من عاند التوحيد بالسيف يمحق انابري ممن يعاند الحق (34)

بل إن الأزجال الأندلسية كانت مقروءة لهذا العهد بالمغرب، قال بن سعيد لدى حديثه عن أبي قزمان : رأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب (35).

32) طبقات الاطباء 2. 78
33) أزهار الرياض 2. 230
34) مقدمة 550
35) مقدمة 548

وإن هذا ما يجعلني أميل الى أن هذا الفن الزجلي اشتغل به المغاربة على هذا العهد ونظموا على منواله، ولا يستبعد أن تكون أمصار المغرب مما يندرج في الأمصار المذكورة في قول ابن خلدون في المقدمة 548 : «ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته، وتنميق كلامه، وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية؛ من غير أن يلتزموا فيه أعرابا، واستحدثوا فنا سموه بالزجل...».

وكما رجحت ما ذكر، كذلك يترجح لدي أن العرب الداخلين للمغرب على هذا العهد أيام عبد المومن ثم المنصور، لابد أن يشتغلوا بدورهم بنظم الشعر بلغتهم العربية المستعجمة.

فهذان الصنفان من النظم مما اشتغل به المغاربة في هذا العهد فيما يظهر لي وأميل إليه.

وهناك صنف ثالث من الشعر غير المعرب يقول عنه ابن خلدون في المقدمة 553 – 555 : «ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح، نظموا فيه بلغتهم الحضرية وسموه عروض البلد، وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير، فنظم قطعة على طريقة الموشح لم يخرج فيها عن مذاهب الأعراب إلا قليلا، فاستحسنه أهل فاس وولعوا به، ونظموا على طريقته، وتركوا الاعراب الذي ليس من شأنهم، وكثر سماعه بينهم، واستفحل فيه كثير منهم، ونوعوه أصنافا الى المزدوج والكاوي والملعبة والغزل، واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها، ثم ذكر قصيدتين فيما قاله من المزدوج ابن شجاع من فحولهم، وهو من أهل تازا» الخ كلام ابن خلدون فهل حدث هذا الفن أيضا بهذا العهد ؟ هذا ما لااستبعده، وإن كان ليست لي الآن الأدلة الكافية لاثباته.

وإنما لم تنقل لنا هذه الأنواع من الشعر الغير المعرب لما ذكرناه في بحث التوشيح عن المعجب؛ بل هذا أحرى منه، ولما ذكره ابن خلدون في المقدمة 533 من أن الكثير من المتتحلين للعلوم وخصوصا علم اللسان، يستنكر مثل هذه الفنون إذا سمعها، وابن خلدون وان ذكر هذا عن أهل عصره فهو جار أيضا في هذا العصر.

وقد شعر المقري في أزهار الرياض بهذا، فلذلك نراه بعد ما ذكر طائفة من الأزجال، يروح يعتذر ويقول (2) 227 : كأني بمنتقد ليس له خبرة يسدد سهام الاعتراض، ويتولى كبره، ويقول : ما لنا وادخال الهزل – الازجال – في معرض الجد الصراح ؟! وما الذي أحوجنا الى ذكر هذا المنحى ؟! والأليق طرحه كل الاطراح.

ويظهر لي أن ممن نظم في الشعر غير المعرب من الشعراء الكبار لهذا العهد : ابن خبازة، لنستمع الى ابن عبد الملك في الذيل والتكملة يصفه بأنه كان ناظما ناثرا؛ له التفنن في أساليب الكلام معربه وهزله على اختلاف اللغات (36).

وبيان هذا : أنه علم من كلام أزهار الرياض الآنف الذكر، أن الازجال في نظر بعض الناس انما هي من باب الهزل ليس إلا، فإذا لاحظنا هذا، مع مقابلة ابن عبد الملك للهزل بالمعرب في كلامه، نستنتج استنتاجا واضحا أن المراد بالهزل في الكلام المذكور الشعر الغير المعرب، ويكون المعنى ان ابن خبازة كان متفننا في هذا النوع من الشعر على اختلاف اللغات : لغة الأندلس ولغة العرب الداخلين للمغرب، ولغة المغاربة... وقد سمى ابن خلدون في المقدمة هذا ونحوه لغات.

وكما عثرت بهذا الشاعر الذي كان ينظم في غير المعرب، كذلك وقفت على فرد آخر ممن كان يحترف بالغناء بهذا الشعر في العهد الموحدي، وهو أبو علي حسن بن عمر الفهري السبتي؛ والمتوفى سنة 667، فقد ذكر ابن عبد الملك في الذيل والتكملة في ترجمة الابن : إن والده حسن المذكور كان قوالا يغني في المحافل والأسواق (37) (...) مجربا بذلك، والمتلبس بهذا العمل يعرف في بلاد المغرب بالمحلي (...) (38).

شيخا محليا ذكر لي أنه من أصحابه ومقاوليه (هـ) بواسطة الأعلام (3) 149 ـ 150.

تعرب لغة المحادثة في العصر الموحدي *

ونلفت النظر الى نقطة هامة في هذا الموطن؛ وهو أن تعاطي المغاربة لفن الزجل وما إليه؛ يدل على شيوع العربية في لغة التخاطب؛ وإن هذه اللغة كانت عربية شعبية.

وزيادة على هذا فهناك كلمات عرضية وردت في بعض المصادر تدل على هذا دلالة الآثار على الديار، ومن هذا ما جاء في المعجب 239 في سياق حديثه عن أهل فاس : ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الاقليم، وان من يقرأ كتاب لحن العامة لابن هشام السبتي المتوفى ـ كما سبق لنا ـ سنة 570، يلاحظ أن هذا حينما يقابل في كتابه المذكور الكلمات العربية بالكلمات العامية؛ كما ينطق بها أهل بلده في محادثتهم، يأتي بهذه الأخيرة عربية عامية، بل إن بعض أعلام هذه البلدة ـ سبتة ـ كان لايتكلم إلا بكلام عربي فصيح، كما في الديباج

36) بواسطة ازهار الرياض 2، 379

37) بياض في الاصل

(*) المقصود شيوع التعرب حينئذ وإلا فإنه كان موجودا قبل هذا العصر وفي ترجمة أبي عبد الله مروان بن عبد الملك بن ابراهيم بن سحنون اللواتي في فهرسة القاضي عياض : أنه أخذ نفسه بالاعراب والتعبير في كلامه مع الخاصة والعامة فلا يكاد يأخذ عليه لحن.

289م. عن أبي عبد الله محمد حفيد القاضي عياض الشهير 584 ـ 665، وكما جاء هذا عن هذا الفاضل من أهل سبتة؛ كذلك نقل عن أديب كبير ممن سكن مراكش؛ وكان صاحب القلم الأعلى في دولة المنصور وابنه الناصر، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش الآنف الذكر، كان ـ كما في الاحاطة ـ قاصدا الأعراب في كلامه، لايخاطب أحدا من الناس على تفاريق أحوالهم إلا بكلام معرب، وربما استعمل في مخاطبة خدمته وأمته من حوشي الألفاظ ما لايكاد يستعمله ويفهمه إلا حفاظ اللغة من أهل العلم؛ عادة ألفها، واستمرت حاله عليها (هـ).

ويجدر بنا أن نقف قليلا عند هذا الكلام، لنتفهم ما يدخل تحت كلمة الناس من أصناف المغاربة الذين كانوا يترددون على صاحب القلم الأعلى ويفهمون ـ طبعا ـ مخاطبته لهم بالكلام المعرب، فإن هذا ـ لابد ـ يدلنا على مدى تعرب القوم في هذا العهد.

وينبغي أن نضيف لما تقدم أن دخول طوائف العرب للمغرب على هذا العهد، لابد أن ينمي ويقوي عروبة لغة المحادثة بمدن المغرب، ويوجدها ببواديه التي نزلها أولئك الأعراب، واقتسموها مع سكانها قبلهم، فقد خلص من هذا أن لغة المحادثة لهذا العهد كانت العربية غالبة عليها في المدن، ولا سيما في كبرياتها، وفي البوادي التي نزلها العرب الداخلون للمغرب.

السبب الذي حدا بالموحدين الى الاستعانة باللسان البربري

ولا بد أن يرد في هذا المقام سؤال لامناص منه، نذكره ثم نحقق الجواب عنه، وهو أن هناك ظواهر يدل بعضها على تمركز البربرية في هذا العصر بالمغرب : مدن وبادية، تمركزا ينافي ما تقدم من شيوع العربية في لغة المحادثة، ومن هذا ما جاء عن خلفاء الموحدين

1. إنه كان لايؤم في أيامهم إلا من يحفظ التوحيد باللسان البربري كما في القرطاس 36، وعبارته 42 : كانوا لايقدمون للخطابة والامامة إلا من يحفظ التوحيد باللسان البربري.

2. كذا جاء عن المأمون بن المنصور الموحدي : أنه نعى ـ فيما نعاه ـ على المهدي ابن تومرت النداء للصلاة باللغة البربرية (39).

3. كان من التقاليد المتبعة لدى الموحدين أنهم يقرؤون عند ركوب الخليفة في المحافل الرسمية تواليف ابن تومرت بلسانهم البربري وباللسان العربي (40).

39 استقصا 1. 99
40 معجب 228

4. ألف ابن تومرت لاصحابه كتابا سماه بالتوحيد باللسان البربري، كما ألف لهم كتابا سماه بالقواعد، وآخر سماه بالامامة؛ دونهما بالعربية والبربرية، وكان ينقل إليهم المواعظ والأمثال ويقرب لهم المقاصد بالبربرية.

5. سلف لنا عن الرسائل الموحدية : أن عبد المومن أباح لمن لم يفهم اللسان العربي أن يقرأ توحيد ابن تومرت باللغة البربرية.

6. في ترجمة سالم بن سلامة السوسي المغربي المتوفى 589 الحافظ لمسائل الفقه : أنه كان قديرا على أداء هذه المسائل باللسان البربري (41).

وقبل الجواب عن هذا الكلام نقدم كلمة نبين فيها أن القوم كانوا ـ بصفة خاصة ـ شديدي الاهتمام بأمور الدين : من التوحيد والفقه وما في حكم ذلك، وكانت نشأتهم بمعقل كبير من معاقل البربرية ـ المصامدة ـ وقيام عصبيتهم الكبرى منه، من أكبر الأسباب التي حفزتهم أن يلقنوا تعاليم الدين وما إليها ويبيحوا قراءتها باللغتين العربية والبربرية لمن لايفهم إلا هذه اللغة الأخيرة في تدريسهم وتأليفهم ووعظهم، وما نحى منحى هذا، درجوا على هذا أول دولتهم أيام إمامهم ابن تومرت، وبقيت بقايا منه بعده حتى في المدن لما ذكرنا، وللمبالغة في الافهام لمن يكون بالمدن ممن لايعرف إلا البربرية.

وعلى هذا ينبغي أن يحمل ما ذكر من الايرادات الستة وما شاكلها، مع ملاحظة ما تقدم من أنهم ما كانوا يتساهلون في استعمال البربرية إلا من أجل إفهام من لايعرف سوى هذه اللغة، ومما يشير لهذا عبارة رسائل الموحدين المشار لها رقم (5)، ونصها (132) : ويومر الذين يفهون اللسان الغربي ـ البربري ـ ويتكلمون به : أن يقرءوا التوحيد بذلك اللسان...

فهذا هو المحمل الصحيح الذي ينبغي أن يحمل عليه ما أشرنا له من الايرادات، وهو الذي تدل عليه حالة القوم، وتشهد به سيرتهم، فقد كان لهم المكان المكين والمقامات الشهيرة في خدمة اللغة العربية وإحيائها وحمايتها، وكان كثير من خلفائهم وأمرائهم كتابا بلغاء، وشعراء مجيدين، وخطباء مصاقع، حسبما تقدم ويأتي، وما وقع في أيامهم من الجنوح لغير لغتهم الرسمية ـ العربية ـ في بعض المواطن إنما كان للضرورة، وهذا أمر واقع في كل جيل ودولة قديما وحديثا؛ وحتى الرسول العربي الهاشمي صلوات الله عليه وعلى آله، ثبت عنه أنه استعمل غير العربية في مواقف احتاج إليها (42)، والى الأيام القريبة من عصرنا نجد في بعض جهات المغرب أن بعض الكتب تؤلف أو تترجم بالبربرية وتقرأ وتدرس بها، وعلى سبيل المثال نذكر أحد أعلام سوس أبا عبد الله محمد بن مسعود البونعماني السوسي المتوفى 1330 : له

41 تكملة 2006. الجذوة 324
42 ارجع الى التراتيب الادارية 208 ــ 210

تآليف في الفقه باللهجة السوسية، الفه للاميين والنساء ليفقههم في الدين، وكذا معاصره أحد أشياخ سوس أبو الحسن علي بن أحمد الألغي السوسي، ترجم مجموع الأمير والحكم العطائية للغة السوسية، وزيادة على هذه التآليف فهناك تآليف أخرى مترجمة للسوسية، ومنها رسالة ابن أبي زيد القيرواني، والمختصر الخليلي، وشرح البردة. وفي ترجمة الامام سيدي عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم السوسي الحاحي، أنه كان يعلم زائريه مهمات دينهم العربي بالعربية، والعجمي بالعجمية (43).

وهنا تنبيه لابد منه وهو أنه لاينبغي أن يفهم مما ذكر إنهم كانوا يخطبون أو يعيدون الخطبة بالبربرية، أو أنهم يؤذنون رأسا بالبربرية، فإن هذا ليس بمراد، وليس واقعا قطعا وتحقيقا، وإن أوهمته العبارات المشار لها، وإنما المراد أنهم كانوا يشترطون في الخطيب ما ذكر من حفظ التوحيد ــ توحيد ابن تومرت ــ بالبربرية ليلقن خارجا عن الخطبة من لايعرف العربية، كما أنهم كانوا يعيدون بعد الآذان الشرعي العربي النداء للصلاة بالبربرية.

والدليل على الأول ــ زيادة على ما تقدم ــ أمور : أولا أن صاحب المعجب ذكر 228 ــ 230 مثالا من خطبة الجمعة التي كان يخطب بها بمحضر خلفائهم في صلواتهم للجمعة، ولم يذكر فيها ولا كلمة واحدة بالبربرية، ثانيا : ما جاء في القرطاس 42 : عن أبي محمد شكر بن موسى الجراوي أحد الخطباء الرسميين بجامع القرويين : إنه كان يؤم ــ في الصوات الخمس ــ ولا يخطب، وإنما ينيب عنه غيره،لأنه كان أعجمي اللسان شديد العجمة، وعبارة الجذوة 38 : «وكان بلسانه يسير عجمة» أي بربرية كما هو ظاهر، فقد استناب عنه غيره في الخطبة من أجل أن بلسانه عجمة بربرية، ثانيا : ما مر بنا آنفا من أن المامون نعى على ابن تومرت النداء للصلاة بالبربرية، ولو كانت الخطبة كذلك لكانت هي بدورها جديرة بأن ينعاها عليه، وينكرها ويندد بها.

أما مسألة الآذان بالبربرية فقد أجملت إجمالا، إما من المامون، أو من ناقلي كلامه مبالغة في الدعاية ضد الموحدين الآخرين وشيخهم ابن تومرت، وحقيقتها ما جاء في مبحث البدع من معيار الونشريسي (2) 361 ــ 362، وعبارته : ومنها ما أحدثه المهدي الظاهري محمد بن تومرت... من إعادة الدعاء بعد الصلاة، والدعاء عليها بتصاليت الاسلام عند كمال الآذان، وتقام تصاليت وهي إقامة الصلاة، فقد تبين في كلام المعيار ما أشرنا له قبل، من أنهم لم يكونوا يؤذنون رأسا بالبربرية، وإنما كانوا يعيدون النداء لها بتصاليت الاسلام بعد كمال الأذان الشرعي العربي.

43 النشر 1. 71

بعد هذه النظرة عن الأدب المغربي لهذا العهد؛ اتبعها بمبحثين : الأول يتناول أدباء عصر الموحدين بما فيهم من كتاب وخطباء وشعراء، وقد بلغ عددهم 51 أديبا، وسوف اقتصر على اسمهم ونسبهم... وعصرهم وحلاهم الأدبية، مع الاحالة على آثارهم النثرية والشعرية؛ التي لم تسبق الاشارة لها... وقد قسمت أولئك الأدباء الى ثلاثة أقسام : أ. الأدباء الذين وصلتنا آثارهم. ب. الأدباء الذين وصفوا بالكتابة أو الشعر من غير أن نقف لهم على اثر يذكر. ج. شاعران اثنان لم تقم لدي الادلة الكافية على مغربيتهما الأقصوية فأفردتهما بهذا القسم الأخير على حدة.

والمبحث الثاني أوردت فيه مختارات من النثر والشعر على هذا العهد، وقد انقسم النثر فيه الى كتابة وخطابة ووصايا وحكم كما انقسمت الكتابة الى : ديوانية واجتماعية وسياسية وأدبية وإخوانية وتوقيعات. وانقسمت الخطابة الى : سياسة واجتماعية. أما الشعر فقد ذكر منه في الأغراض التالية : المديح، الافتخار، الرثاء، الاعتذار والأستعطاف، الهجاء الذم، العتب التأنيب، الوصف، الغزل، الاجتماع، السياسة.

أدبـاء عـصـر الموحـديـن

1. محمد المهدي بن تومرت عبد الله الهرغي 485 ـ 524

فصيح في وعظه وخطبه ووصاياه، بليغ في ترسله وكتابته، وقد أثبت له في المعجب 125 ـ 127 خطبها التي خطبتها على الموحدين لما حضرته الوفاة، وفي الوفيات (2) 52 خلاصة وصيته لاصحابه لما حضرته الوفاة أيضا، وفي الحلل 78 ورد له نص خطبة قصيرة يلوح فيها الى مهدويته، ويوعز الى اتباعه في بيعته، وفي 2(81) منها ذكر له نص رسالة وجيزة كتبها من إنشائه للمرابطين، كما أثبت من شعره في الوفيات (2) 53 أبياتا ثلاثة (ع) (1)، كذلك نسب له في كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها، بيتين اثنين (ل).

2. عبد المومن بن علي الكومي الزناتي 495 ـ 558

من أئمة هذا الشأن، وله شعر رائق حسن، أثبت منه في المعجب 145 ـ 146 اثني عشر بيتا (ل) يستنفر فيها عرب افريقية الى الغزو بجزيرة الأندلس، كما أثبت له في الحلل 119 بيتين (ح) يشيد فيهما بانتصار الموحدين في بعض المواقع، وفي الشذرات (4) 183 نسب له بيتين (ب) قالهما لما كثر عليه الثوار.

3. موسى بن عبد المومن

من أدباء عبد المومن، ويوجد في القرطاس 129 أبيات ثلاثة من شعره (ث)، قالها بديهة في جواب بيتين كتب إليه بهما القاضي أبو يوسف حجاج.

1) يلاحظ في الحديث عن أدباء هذا العهد أنني استعمل عقب الاحالة على الشعر حرفا مشكولا، وأقصد بذلك روي الشعر المحال عليه وشكلته.

4. أبو علي الحسن بن عبد المومن

هو الأديب الثاني من أبناء عبد المومن الأمراء، وقد ذكر له في القرطاس 172 أبياتا ثلاثة (ب)، كتب بها الى أخيه يوسف لما عتب عليه.

5. يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المومن 555 ـ 595

أديب شاعر، وفي الحلل 121 ـ 122 تجد له وصية قصيرة؛ كما تقرأ له في النفح (2) 99 أبياتا عشرة من شعره؛ كتب بها الى العرب (م).

6. أبو الربيع سليمان بن عبد الله ابن عبد المومن بعد 600

كاتب شاعر، وقد أثبت في النفح 100.2 ـ 102 من نثره رسالة كتبها الى ملك السودان بغانة، ومن شعره قصيدة (ع) تشتمل على عشرين بيتا يمدح فيها ابن عمه المنصور، ويصف انهزام العدو، وأبياتا ثلاثة (م) يستعطف بها المنصور، وأبياتا ثلاثة أخرى في التغزل (ب)، وقطعة ثلاثية (لا) يخاطب بها المنصور أيضا، وبيتين (ع) كتب بهما الى ابن عمه السيد أبي الحسن الآتي الذكر، وبيتين (ب) يلغز بهما في جارية له، كما أثبت له صالح بن شريف في كتابه الوافي زيادة على البتين الأخيرين أبياتا سبعة (ع)، وبيتين (د) : الكل في موضوع اللغز. وأثبت صاحب المعجب (199) أن كاتب أبي الربيع محمد بن عبد ربه الذي أسلفنا أنه جمع (ديوانه)، نحل أبا الربيع كثيرا من شعره أيام كتابته له، قال صاحب المعجب عرفت ذلك بعد مفارقته ـ ابن عبد ربه؛ ـ إياه ـ أبا الربيع ـ لأني فقدت شعر السيد أبي الربيع واختلف علي كلامه، ورأيت بخطه أشعارا نازلة عن رتبة الشعر جدا، فعلمت أن ذلك الأول ليس من نسجه. هكذا يحكم المراكشي على شعر السيد أبي الربيع، وعلى عكسه نرى ابن سعيد في المغرب ينوه به ككاتب شاعر، أديب ماهر، له شعر مدون، حسبما ينقل هذا في النفح (2) 102. وإني وإن كنت لاأستبعد صحة رأي المراكشي لمعاصرته لأبي الربيع؛ ولما استند إليه في حكمه، فإني احتفظ برأيي النهائي في الموضوع حتى يتسنى لنا الوقوف على ديوان السيد أبي الربيع *.

7. أبو الحسن علي بن عمر ابن عبد المومن

من الأدباء الأمراء، وتجد في النفح (2) 102 أبياتا ثلاثة (ر) قالها في يعقوب المنصور يمدحه ويستزيده، ويطلب منه ما يقضي به ديونه، وبيتين اثنين (ع) أجاب بهما عن البيتين الذين أسلفنا أن أبا الربيع كتب إليه بهما.

*) من حسن الحظ يسر الله لكاتب السطور من ديوان السيد أبي الربيع بعد ما قدم بحث الآداب للطبع، وفي النية كتابة بحث عن الديوان وصاحبه إن شاء الله.

8. السيد أبو محمد عبد الله صاحب فاس

من أهل هذه الكتيبة، وتقرأ له في النفح (2) 103 أبياتا أربعة (ب) قالها في الفخر.

9. بعض السادة من بني عبد المومن

انشد له في النفح (2) 103 بيتين اثنين (د) في التغزل.

10. عبد العزيز بن يوسف بن عبد المومن

ترجمه في كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها، ووصفه بأنه كان ينظم الشعر ويجيده، وأثبت له أبياتا أربعة (م) في موضوع قول الشعر.

11. ادريس المامون بن يعقوب المنصور 581 – 629

عارف بالآداب، فصيح بليغ، خطيب كاتب شاعر، ويوجد بالقرطاس 161 مثال من خطابته، كما أثبت في الحلل 125 قطعة شعرية له، تشتمل على أبيات أربعة (ر)، قالها في أهل الحرابة والفساد، وقد أورد هذه القطعة في القرطاس 162 بزيادة بيت خامس عليها.

12. أبو حفص عمر المرتضى 665

له حظ في الأدب، وقد أثبت له في الحلل 127 : أبياتا أربعة من شعره (د).

13. عبد الواحد بن أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المومن

أديب شاعر بليغ، وقد أثبت له في الاعلام (3) 157 – 159 قصيدة طنانة (ن) يمدح بها أبا عبد الله بن رشيد البغدادي الوارد على مراكش، وهي تشتمل على أربعين بيتا *.

* بعدما حررت بحث (أدباء عصر الموحدين) وكثيرا مما بعده، وقع الى كتاب (امراؤنا الشعراء)، تأليف الأخ العلامة المؤرخ المطلع سيدي عبد الله كنون، أهداه في ضمن مجموعة من الكتب الصديق العلامة المؤرخ البحاثة سيدي محمد داود شكر الله عمله، وبالطبع كان أول ما قرأت من الكتاب قسم امراء الدولة الموحدية؛ بحيث وجدت المؤلف أثبت آثارا أدبية أخرى مهمة لكل من السيد أبي الربيع والمامون والمرتضى، وتتميما لبحث أدباء عصر الموحدين رأيت أن أذيل بتلك الأثار على هذا البحث، وأبين أن كتاب (أمراؤنا الشعراء) انفرد بالاثار الأدبية التالية : فقد أثبت للسيد أبي الربيع قطعة رباعية (ن) في الطيف، وقصيده (ر) بها ثلاثة عشر بيتا في صفة الروض والحث على الشرب، وبيتين (ف) في وصف مسقية، وأبياتا خمسة (ب) في التوبة والدعاء، كما أورد قصيدة أبي الربيع (ع) في مدح المنصور في ثلاثة وعشرين بيتا مع تقديم وتأخير في بيتين منهما عما في النفح، وذكر شعره في التغزل (ب) في تسعة أبيات، والمامون أثبت في ثمره صفحة لامعة من رسالة، ومثالا من توقيعه، كذلك المرتضى ذكر له قطعة سداسية (ل).

الأدبـاء الآخـرون

وإذ ذكرنا الأدباء الخلفاء والأمراء في هذا العهد؛ نتبعهم بذكر آدباء عصر الموحدين الآخرين :

14. الطبيب الأديب علي بن يقظان السبتي

كان حيا سنة 544، ذكره ابن القطفي في أخبار العلماء بأخبار لحكماء (160) كطبيب شاعر أديب، وأورد له أبياتا سبعة من قصيدة (د) في الوزير الجواد جمال الدين الأصفهاني بالموصل.

15. الوزير الكاتب أبو جعفر أحمد بن جعفر بن محمد بن عطية القضاعي المراكشي 517 ـ 553

من أبلغ أهل زمانه كتابة وشعرا، ذكره في المعجب 128 ـ 129. والقرطاس 124 ـ 125. وفي النفح (3) 99 ـ 102 وفي غير ذلك، وقد أثبت له في القرطاس والنفح فصولا من الرسالة النثرية الشعرية التي يستعطف بها عبد المومن ويطلب عفوه، كما أثبت له المصدر الثاني فصولا من الرسالة التي كتبها عن أبي حفص عمر أينتي الى الموحدين بمراكش؛ يخبرهم عن صورة موقعة حربية انتصر فيها أبو حفص المذكور، وفي مجموع رسائل موحدية تجد له ست عشرة رسالة كتبها عن عبد المومن، وسبع رسائل 1 ـ 22، وسبع أخرى 26 ـ 71، ورسالة 95 ـ 99، ورسالة أخيرة 126 ـ 138.
وقد وردت هذه الرسالة الأخيرة مرتين : مبتورة وتامة أول وآخر الكتاب المعنون ـ بكتاب أخبار المهدي ـ للبيدق 13 ـ 17 و134 ـ 145، وزيادة على الشعر الذي تضمنته الرسالة المشار لها أولا؛ فقد أثبت له في النفح بيتين آخرين (ح) كتب بهما من السجن الى عبد المومن.

16. الكاتب أبو عقيل عطية اخو ابي جعفر ابن عطية 520 ـ 553

أشار له في النفح (3) 99، وأثبت له في مجموع رسائل موحدية ثلاث رسائل 22 ـ 26 و71 ـ 93.

17. شاعر من أهل سلا كان حيا 555

أورده عرضا ابن الابار في كتاب الحلة السيرافي ترجمة عبد الله ابن خيار الجياني، وأثبت له بيتين (ر) من الشعر يؤنب بهما الوزير عبد السلام بن محمد الكومي، انظر كتاب خبار المهدي للبيدق 147 ـ 148.

18. الشريف الادريسي السبتي 494 ـ 62ـ

كان يضيف الى معارفه الواسعة في الجغرافيا والفلك والطب اطلاعا واسعا على الشعر الأندلسي، وقد عانى بدوره صناعة القريض، ومن شعره الأبيات التالية نثبتها برمتها لغرابتها :

ليس شعري أين قبري ؟ ضاع في الغربة عمري
لم أدع للعين ما تشتـ ـاق في بر وبحر
وخبرت النـــاس والأر ض لدى خير وشر
لم أجد جارا ولا دا را كما في طي صدري
فكأني لم أسر الـــ ـابيت أو بقفـــز
دعني أجل ما ندت لي سفينـــة أو مطيـــة
لابـــد بقطـــع سيري أمنيـــة أو منيـــة
ومن قبل أن أمشي على قدم المنى سعى قلمي في المدح سعيا على الرأس

مقال عن الادريسي نشر بمجلة المستمع (3) 15.

19. أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمان بن بقى السلوي 563

أديب شاعر، وممن ترجمه ابن الابار في التكملة 2782 ووصفه بأنه من أهل سلا، وأغفل هذا المصدر الأستاذ الفاضل عبد القادر محداد؛ في تعليقه على اسم هذا الشاعر حين أورد شعره صاحب زاد المسافر، وقد أورد له في الزاد 115 ـ 117 في الوحدانية والرجاء قصيدة (ل) تشتمل على (11) بيتا؛ كما أثبت له قصيدة (لا) بها أبيات (16) وفيها يتشوق الى بيت الله الحرام؛ ويتألم من تعذر الوصول عليه الى زيارة الرسول ص.

20. محمد بن حسين عبد اللّه بن حبوس الفاسي 570 ـ 500

شاعر مفلق، فاق في ذلك أهل زمانه، حتى لقب بشاعر الخلافة المهدية، وكانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانىء الأندلسي في قصد الألفاظ الرائعة، والقعاقع المهولة، وإيثار التقعير، إلا أن محمدا بن هانيء كان أجود منه طبعا، وأحلى مهيعا، ذكره في المعجب 137 ـ 138، وفي زاد المسافر 1 ـ 6 وترجمه في التكملة 1055 وفي الذيل والتكملة حسبما نقل ترجمته في الأعلام (3) 26 ـ 31.

وقد أورد مثالا من نثره في المعجب، كما أورد في الذيل والتكملة أمثلة من شعره : أبيات عشرون من قصيدة (ر) يمدح بها عبد المومن لما حل برباط الفتح، وأورد أول هذه القصيدة

بزيادة بيت في زاد المسافر؛ فذكر منها تسعة أبيات، كما أورد له في الذيل والتكملة قصيدة (د) في موضوع التوحيد والزهد والتمسك بالسنة، تشتمل على ثلاثين بيتا، وقصيدة (ر) أبياتها اثنا عشر في الوصايا والأمثال وذم الزمان، وقصيدة أخرى من تسعة أبيات في الاعتبار (ن). وزاد المسافر أورد له زيادة على ما ذكر عنه : في المديح : بيتين من قصيدة (ج)، وعشرة أبيات من أخرى (لا)، وخمسة أبيات من قصيدة ثالثة (ر)، ومن قصيدة رابعة : تسعة أبيات (ق) يمدح بها بعد المومن ويصف فتحه لبجاية، وثمانية أبيات من قصيدة (ل) في الوزير ابن عطية، وفي موضوع الذم : أثبت له بيتين (ر) يهجو بها ابن عطية لما نكب، ومن قصيدة أخرى (ع) أبياتا تسعة يذم بها الشعر، كما ذكر له قصيدة (ص) ذات سبعة عشر بيتا فيما يطلب أن يعامل به الناس. وينبغي أن يضاف لما ذكر بيتان اثنان من قصيدة أيضا أوردهما ابن حماد الصنهاجي في : (أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم) ص (10)، وهما في مدح عبد المومن، وذكر اختطاط المهدية، وبابها، وأبراجها الثمانية (ر).

21. محمد بن القاضي عياض الشهير اليحصبي السبتي 575

من أدباء هذا العصر، ترجمه في التكملة 1056 وفي الديباج 289 والغالب أنه الذي ذكره في زاد المسافر 95 ـ 96 وسماه أبا عبد الله ابن عياض، وهو وان وصفه بأنه قرطبي؛ فالظاهر أن هذا إنما هو سبق قلم، وإنهم من باب قول زاد المسافر في ابن حبوس الآنف الذكر : انه من قطر بجاية، مع أن الرجل فاسي تحقيقا، وقد أثبت في زاد المسافر لأبي عبد الله بن عياش عدة أشعار في التغزل : قصيدة (ب) تشتمل على عشرة أبيات، وقطعتين (أ،ق) تشتمل كل منهما على ثلاثة أبيات، كما ذكر له في كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها في ترجمة ابنه عياض : بيتين في التسلية (ح)، وبيتا واحدا ارتجله في التغزل (ن).

22. عيسى بن عمران بن دافال التسولي الوردميشي 512 ـ 578

أديب لوذعي، خطيب مصقع بليغ، شاعر مفلق ترجمته في المعجب 160 ـ 161 وفي التكملة 1931. والصلة 94. والذيل والتكملة والقرطاس 172. والجذوة 283، وفي هذين المصدرين الأخيرين تقرأ له رسالة نثرية كتبها لابنه حيث كان يدرس بفاس.

23. محمد بن أحمد بن عبد الرحمان ابن الصقر الأنصاري الخزرجي المراكشي 527 حدود 590

ممن تعاطى الشعر على هذا العهد، وكان له حظ صالح من قرصه، وأكثره في الزهد والحكم وما نحا ذلك، ترجمه في الذيل والتكملة، ونقل هذه الترجم في الأعلام (3) 64 ـ 66، وأثبت له قطعة خماسية (م) في الشكوى.

24. أبو بكر عتيق بن علي بن حسن بن حفاظ الصنهاجي الحميدي المعروف بالفصيح المكناسي الفاسي 595

من شعراء هذا العهد، وسلف لنا أن له ديوانا شعريا، ترجمه في التكملة 2433 والجذوة 278.

25. عبد الله بن محمد عيسى التادلي الفاسي 511 ـ 597

أديب ناظم ناثر، له رسائل وأشعار جيدة، ترجمه في التكملة 1491 والجذوة 236، والنيل 137 ـ 138، وفي هذا المصدر الأخير ذكر له بيتين (ك) يخاطب بهما ابن مضا. كذلك نسب له في كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها؛ في ترجمة ابن عياض بيتين اثنين في التسلية (ح).

شاعر من أهل فاس ذكره عرضا في زاد المسافر 62، ونسب له هذين البيتين :

يعاف السمع شعرك يايزيد	وخطك في بشاعته يزيد
إذا وجهت شعرك في مراد	بخطك ليس يدري ما تريد

26. أبو حفص عمر بن عبد الله السلمي الاغماتي نزيل فاس 530 ـ 603

كاتب مجيد، خطيب مفوه، شاعر مبدع، غلب عليه الأدب حتى عرف به وشهر، ترجمه في التكملة وزوائدها 1831، والصلة 130. والجذوة 286 ـ 288 وأزهار الرياض (2) 359، وذكره في زاد المسافر 101 ـ 102 والعبدري في رحلته (خ) والغرناطي في شرح المقصورة (1) 100 والمقري في النفخ (2) 425 و149، وفي هذا الرقم الأخير نسبه في النفح الى قرطبة غلطا، وقد ذكر العبدري في رحلته نص خطبة من خطبه، وأثبت له في الأزهار قطعة نثرية شعرية في ذم الدنيا، كما أورد له هذا المصدر الأخير كثيرا من شعره، فأثبت له أبياتا 39 من قصيدة طنانة (م) في مدح يوسف الموحدي، وقد أورد في الجذوة الأبيات الأربعة من أول هذه القصيدة؛ كما روت له الأزهار أبياتا أربعة (م) في الفخر، وبيتين من قصيدة (ر) يمدح بها يوسف ويهنئه ببيعته الثانية. وذكرت من غزلياته قطعة (م) بها أبيات خمسة، وهي مذكورة في النفح، وقطعة (ر) بها أبيات سبعة، وأخرى (ب) تشتمل على ستة أبيات، مع أبيات ثلاثة في الزهد (ر)، وخمسة في مدح العلم (ر)، وقد أورد هذه القطعة الأخيرة في الجذوة أيضا؛ التي ذكرت له في التغزل أبياتا سبعة (ر)، وبيتين اثنين (ف)، واثنى عشر بيتا (م).

وقد أورد في زاد المسافر الأبيات الثلاثة الأولى من هذه القصيدة، وفي النفح بيتين منها، كما أورد في الجذوة والنفح بيتين اثنين (ر) تساجل فيهما أبو حفص مع بعض أشياخ عصره،

وانفرد زاد المسافر بستة أبيات من قصيدة (ن) في المديح، بأخير نذكر أن شرح المقصور أثبت له أبياتا ستة (م) في الاعتذار والتغزل، وحذفت الصلة من هذه الأبيات بيتا واحدا.

27. عقيل بن عطية السالف الذكر 549 ـ 608

أديب كاتب شاعر، ترجمه في التكملة وروائدها 1946. والصلة 313 والديباج 219 وذكره في النفح (3) 101 وأثبت له بيتين من شعره (د).

28. أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي 609

عالم بالآداب، نهاية في حفظ الأشعار القديمة والمحدثة، بليغ اللسان، شاعر مفلق، مداح هجاء، حاضر البادرة، وكان أيضا يلقب بشاعر الخلافة، وهو الذي اختير لمجالسة الأديب الشرقي عبد الرحمان بن منقد؛ لما ورد المغرب سفيرا عن صلاح الدين الى يعقوب المنصور، وكان يقول آخر عمره : تعسا لطول العمر، الذي أخرني لمعاشرة هؤلاء الأنذال ! وعهدي بالخليفة عبد المومن يقول لي في جبل الفتح : يا أبا العباس إننا نباهي بك أهل الأندلس، «مجلة الأنوار» عدد جمادى الأولى 1367 ـ مارس 1948.

ترجمه في القسم الأول من التكملة رقم 323، والوفيات (2) 494، وذكره في زاد المسافر 7 ـ 9، وفي النفح (2) 388 والأزهار (2) 365، وكان لايعرف من شعره إلا الأبيات التالية : بيتان على اللام المفتوحة في يوسف بن عبد المومن، وبيتان في فاس، قافيتهما ياء مفتوحة، وقطعة سداسية ميمية في الهجو، وبيتان على الراء قالهما بتونس وبيت على النون يمدح به خليفته، وبيتان على الضاد وردا في بستان ابن أبي مريم؛ يجوز أن يكونا له، مجموع هذه الأبيات ثلاثة عشر أو خمسة عشر، «انظر الملحق الثقافي لجريدة المغرب ع 9».

ولما طبع زاد المسافر ظهرت به أربعة عشر بيتا أخرى للجراوي : بيتان من قصيدة (ن) في هجو الصابوني الذي صلب، بيتان من قصيدة أخرى (ن) في الهجو أيضا. بيتان أيضا (ف) في الموضوع، قطعة (ن) تشتمل على ستة أبيات مما وقع له مع أحد المبتذلين، بيتان (د) وقع بهما لشاعر استجداه بقصيدة، كذلك ظهرت كمية مهمة من شعره أوردها ابن عذاري في أحد أجزاء البيان المعرب، وهو مخطوط فريد توجد منه نسخة عند الأستاذ كولان بالرباط.

وابن عذاري يورد شعر الجراوي بمناسبة الحوادث التي يتعرض لها، وكله في المدح، وأكثره يتعلق بيعقوب المنصور، وهو يتكون من خمس قصائد وأربع مقطوعات وأبيات، ومجموعه أربعون ومائة بيت، فإذا أضيف الى الأبيات الثلاثة عشر، والى أربعة عشر بيتا في زاد

المسافر، يكون مجموع ما نعرف الآن من شعر أبي العباس الجراوي سبعة وستين ومائة بيت (رسالة المغرب) (1) ـ 8.

وينبغي أن يضاف لكل ما تقدم البيتان أو الثلاثة أبيات الواردة عرضا أثناء مقدمة الحماسة المتأخرة للجراوي؛ إن لم تكن ضمن الأشعار الآنفة الذكر، وكذا ينبغي أن يضاف لذلك ثلاثة أبيات (ر) في الهجو، وقد وردت في الأزهار ضمن ترجمة أبي حفص بن عمر الآنف الذكر.

29. عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي 581 ـ 625

أديب ناقد كاتب، وفي كتابه المعجب الذي هو أهم مرجع لاخباره تقرأ له في غير ما صفحة قطعا نثرية يتجلى فيها أسلوبه الفني، كما تجد له أبياتا تظهر فيها شاعريته الجيدة على قلة ما أورد من شعره في كتابه، حيث إنه لم يذكر فيه إلا بيتين (ب) في التغزل 202، وأبياتا ثمانية من قصيدة (م) يمدح بها الأمير ابراهيم ابن يعقوب المنصور ويذكر ولايته اشبيلية 206 ـ 207.

30. أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي ابن دحية الكلبي السبتي يعرف بابن الجميل 547 ـ 633

عارف بالشعر العربي، قارض له، كاتب مستعمل لحوشي اللغة في رسائله ومخاطباته، ترجمه في الوفيات (1) 481 ـ 482. والتكملة 1832. والصلة 132، وعنوان الدراية 159 ـ 167. والبغية 360. والنفح (1) 368 ـ 371 والشذرات (5) 160 ـ 161.

وقد أثبت له في العنوان من نثره رسالة قصيرة مقفلة على نحو ما وصفنا، كتبها لوالي بجاية؛ يطلب منه اطلاق سراح خديم له، كما أثبت من شعره قصيدتين اثنتين في مدح السلطان الكامل ابن أيوب ملك مصر، الأولى (م) بها خمسة وأربعون بيتا، والثانية (ع) بها ستة وأربعون بيتا، واقتطف في النفح من القصيدتين الأولى ثمانية أبيات، والثانية ثمانية عشر بيتا.

31. أبو عمرو ميمون بن علي بن عبد الخالق الريفي الصنهاجي الخطابي 637

كان من أكبر أعاجيب الدهر في سرعة البديهة ناظما أو ناثرا، مع الاجادة التي لاتجارى، والتفنن في أساليب الكلام معربه وهزله على اختلاف اللغات، وكان في آخر عمره جانحا الى امتداح ملوك عصره، فكان يأتي في ذلك بما لم يسمع بمثله، ولا يطمع في لحاقه سرعة ارتجال، وحسن افتنان، وسرعة امتثال، هكذا تقول عنه عبارة الذيل والتكملة المنقولة في أزهار الرياض، لدى ترجمته التي استغرقت منها (2) 392، كما اسغرقت ترجمته من الجذوة

209 ـ 218. وقد أثبت له كل من الأزهار والجذوة قصيدته الطنانة (ي) التي مدح بها الرسول (ص)، وأشار الى جملة مفاخره ومعجزاته، بها 145 بيتا، كما ذكرا له كثيرا من قصيدته (ر) التي يرثي فيها أبا محمد عبد الله بن وزير اشبيلية؛ وعظيمها أبي بكر حفيد الحافظ أبي بكر ابن الجد، ويعزي والده الوزير، أثبت له في الأزهار منها 45 بيتا، وفي الجذوة 68 بيتا، وكذا أثبتا له بيتين اثنين من قصيدة (ل) يذم فيها المهدي بن تومرت لما تبدأ منه المامون بن المنصور، وأثبت له في الأزهار قصيدة (ل) في الحنين الى أحبابه تشتمل على 14 بيتا، واقتصر في الجذوة على الأبيات الأربعة الأولى منها. وانفردت الأزهار بأبيات ثلاثة من قصيدة (ب) قالها لما قطع جند المامون أطناب القبة الحمراء التي ضربها المعتصم بن الناصر بن المنصور بظاهر مراكش، وابن عبد الملك * هو الآخر أثبت له في الذيل والتكملة (نسخة مكتبة الرباط) قصيدة (لا) في تهنئة أبي العلاء بن منصور ـ المامون بعد ـ بولاية اشبيلية بعد قرطبة.

32. علي بن أحمد التجيبي المعروف بالحرالي المراكشي 637

أديب مبرز. له الشعر الفائق غزلا وتصوفا، ترجمه في التكملة 1921، وعنوان الدراية 85 ـ 97 والنفح (1) 441 ـ 412. والنيل 201 ـ 202 والشذرات (5) 189. وقد أثبت له في العنوان مثالا من أدبه الصوفي، ومنه قطعة (ن) بها أبيات (6)، وقصيدة (م) بها (10) أبيات.

33. أبو القاسم عبد الكريم بن عمران القصري 643

متحقق بالآداب، كاتب شاعر، ترجمه في التكملة 2184 وأثبت له بيتين (ل)، وأورد له في الاعلام (3) 102 ـ 103 رسالة نثرية مفتتحة بقطعة شعرية؛ يطلب فيها من ابن العابد الفاسي الآتي الذكر بعض قريضه.

34. أبو عبد الله محمد بن عبدون بن قاسم الخزرجي المكناسي 659

أديب وقته، وشاعر عصره، كما تحليه بهذا الذخيرة السنية 106، وهو مترجم أيضا في الجذوة 177 ـ 179، وقد أورد له هذا المصدر الثاني من شعره قصيدة (ل) في التغزل بها أبيات (13)، وبيتين (م) في الشيب، وثلاثة أبيات (ل) في وصف مصباح، وبيتين (ك) في وصف نهر قذفت فيه مصابيح، وثلاثة أبيات (ب) في وصف نهر وردته عصابة طير، كما أثبت له في الجذوة أيضا (ص) 43 بيتا واحدا (ن) من مقطوعة بها أبيات أربعة في وصف الثريا الكبرى بالقرويين. تساجل في هذه القطعة مع الأدباء : أبي اقاسم المزياتي ومالك بن

(*) ينسب هذا المصدر المذكور، رسالة المغرب س 6. ع 4.

المرحل ومحمد ابن خلف، وأنشد له ابن الخطيب في نفاضة الجراب بيتيه الشهيرين (أ) في مدح بلده مكناس، وقد أثبتهما نقلا عن النفاضة بن غازي أواخر الروض الهتون.

35. أبو عبد الله محمد بن عيسى ابن عمر الفهري السبتي يعرف بابن المحلى 582 أو 583 ـ 661

أديب بارع، كاتب بليغ، شاعر فصيح، مفوه لسن، ترجمه في الذيل والتكملة حسبما نقل هذه الترجمة في الاعلام (3) 149 ـ 152 وفي البغية 84، وأثبت له في الذيل والتكملة ثلاث قصائد في التغزل على محو في بعضها، الأولى (بـ) بها (14) بيتا، الثانية (ح) بها (15) بيتا، الثالثة (ن) بها (21) بيتا.

36. أبو عبد الله محمد بن علي بن العابد الأنصاري الفاسي 662

كاتب محسن، مبرز في حفظ الشعر ونظمه ونسبته الى قائله، ترجمه في البغية 77 والجذوة 144، والنيل 254 والاعلام (3) 102 ـ 106 نقلا عن الذيل والتكملة، وقد أثبت له هذا المرجع الأخير رسالة نثرية مفتتحة بقطعة شعرية، يجيب بها رسالة أبي القاسم عبد الكريم بن عمران التي أشرنا لها في ترجمته، كما أثبت من شعره بيتين (ر) في أخوين وسيم وأحدب، وقطعة (ر) بها ثمانية أبيات في وسيم مثغر الثنية له خال بشاربه، وبيتين (ف) في شاعر رعف، وقصيدة (ر) تشتمل على وصف حمام أبياتها (15)، وقد وقع المحو في غير بيت منها، كما أثبت له في الجذوة بيتين في التغزل (ج).

وقد منيت ترجمة هذا الأديب بشيء من الغلط والتصحيف في بعض مراجعها، ومن هذا ان صاحب الجذوة اخر وفاته عن تاريخها بقرن كامل؛ فجعلها سنة 762 عوض 662، وتبعه في هذا بابا في النيل، ولا شك أن هذا سبق قلم ليس إلا، وكذلك البغية طوحت بنسبته من فاس الى فارس، حيث جاء فيها الفارسي بدل الفاسي، وبديهي أن هذا تصحيف مطبعي لاغير.

37. أبو الحسن علي بن مروان الرباطي

من كتاب وشعراء هذا العهد، ذكره ـ عرضا ـ في النفح (1) 466 نقلا عن ابن سعيد، وأثبت له شيئا من النثر والشعر، فمن النثر رسالتان موجزتان خاطب بهما المؤرخ ابن الربيب، ومن الشعر أربع قطع، كل قطعة بها ثلاثة أبيات، الأولى (ق) يبرر بها ضنه بكتبه وبخله بإعارتها. الثانية (ق) يتأسف فيها لحالة ولده، الثالثة (ر) في التغزل، الرابعة (ن) أوصى بها أن تكتب على قبره.

أولئك هم الأدباء الذين وقفت على ما أشرت له من آثارهم الأدبية نثرا وشعرا، وينبغي أن نذيل عليهم بالأدباء المغاربة الآخرين الذين لم أعثر لهم على أثر يذكر، وإنما وقفت على وصفهم بالشعر أو الكتابة.

38. علي بن خلف بن غالب الأنصاري القصري568

أديب شاعر. ترجمه في التكملة 1870 و2380. والصلة م201 والجذوة 297.

39. محمد بن عبد الله بن عبد الكريم الأنصاري الطنجي 585

من أهل الأدب والشعر وله ترجمة في التكملة 1059.

40. محمد بن حسن بن عطية السبتي المعروف بابن الغازي بضع 590

له حظ من قرض الشعر، كما هي عبارة التكملة 1060 في ترجمته.

41. أبو الصبر أيوب بن عبد الله بن أحمد الفهري السبتي 609

من شعراء هذا العهد، ترجمته في التكملة، ض.ج. 536. والجذوة 100.

42. عياض بن محمد حفيد القاضي عياض الشهير السبتي 561 ـ 630

فصيح لسن، شاعر مفوه، ترجمه في التكملة 1947. والصلة 322 والديباج 172.

43. أبو عمرو عثمان بن دحية السبتي أخ أبي الخطاب 546 ـ 634

من أدباء هذا الجيل، لكنه كان مولعا بالتقعير في كلامه ورسائله لهجا بذلكم، ترجمه في الوفيات (1) 482. والتكملة 1837 والصلة 140. والبغية 322. والنفح (1) 366 والشذرات (5) 168. ومن سوء حظ أبي عمرو ان لم يثبت ترجمته صاحب عنوان الدراية، فيذكر بعد آثاره الأدبية؛ كما ذكر ذلك في ترجمة أخيه السالف الذكر أبي الخطاب.

44. أحمد بن محمد أحمد التميمي البكري السلوي الأصل المراكشي النشأة 581 ـ641

وافر الحظ من الآداب، شاعر محسن، ترجمه في البغية 156 ـ 157 والاعلام (1) 351 ـ 352.

45. ابراهيم بن يحيى بن أبي حفاظ مهدي المكناسي 600 ـ 666

أديب شاعر، وله ترجمة في البغية 190.

46. أبو الربيع سليمان بن مخلوف الحضرمي

يعرف بابن البقال وابن تاعظميت عند أهل أغمات، وبسليمان آحضري عند الموحدين، من رجال الكتابة، كان يكتب الرسائل عن اذن المهدي ابن تومرت، ذكره في المقتبس من كتاب الانساب 33.

47. ملول بن ابراهيم بن يحيى الصنهاجي

فصيح بديه بالألسن، يكتب بالسريانية والرومانية وغير ذلك وينفد في ذلك، وكان كاتبا مع المذكور قبله عن المهدي بن تومرت، أورده في المصدر المذكور 39.

48. ابنه يعقوب بن ملول

أحد كتبة الخليفة عبد المومن. المصدر 40.

□ □ □

ونختم سلسلة الأدباء على هذا العهد بذكر الشاعرين الذين أسلفت أنه لم تقم لدي الأدلية الكافية على مغربيتها الأقصوية؛ فلذلك ذكرتهما على حدة في هذا.

49. الشيخ الشاعر السبتي

جاء في آخر الفتوحات المكية باب الوصايا (4) 551 ما يأتي : ولقد وفد علينا ونحن باشبيلية شيخ شاعر يعرف بالسبتي من قرطبة رحمه الله، ولم يكن للسبتي موضع ينزل فيه، فكتب الى صاحب الديوان أبي عبد الله ابن كعب :

اتحفل بالفرزدق والكميت	وفي قيد الحيا شعر السبيتي
يروعني بشعرهما أناس	وجهلا روعوا حيا بميت
لئن اسكنتني بيتا رفيعا	لنسكن من ثنائي ألف بيت

فوقع له صاحب الديوان ببيت ينزل فيه، واعتذر إليه ووصله بنفقه.

50. محمد بن محمد البربري

أثبت له ابن فضل في المسالك (خ)، والقلقشندي في صبح الأعشى (5) 162 بيتين من شعر له يمدح به الموحدين، ويصف دار الضيافة المعروفة بدار الكرامة بمراكش :

خير قوم دعوا الى خير دار	هي للملك نضرة وكمامة
عالم السبعة الأقاليم فيها	وهم في فنائها كالقلامة

نماذج من أدب هذا العهد

I. النثر

1. الكتابة الديوانية

من رسالة من إنشاء الكاتب أبي عقيل بن عطية عن الخليفة عبد المومن؛ الى طلبة تلمسان يعلمهم بفتح قسنطينة، ويخبرهم بإنابة يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية الى التوحيد :

... وهذا كتابنا إليكم؛ كتب الله لكم فيها خولكم النماء والزيادة. ومكن في تمكينكم وإصلاح شؤونكم الانالة والافادة، وبسط في أرجائكم ومتعلقات رجائكم اليمن والسعادة، من حضرة بجاية ـ حرسها الله ـ عن أحوال ترتب صلاحها على أفضل وجوده، وفتوح تتابع افتتاحها في قريب المعمور وبعيده، وبشائر ينزه بشرها وسماحها عن الجري على معتاد الدأب المألوف ومعهوده، وآيات بينات أغنى تخيلها واتضاحها عن كل برهان ووجوده، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها في المستولية محصى العادة ومعدودة؛ نسأل الله سبحانه وقد بهرت البواطن والظواهر، وعمي الأبصار والبصائر، تعظيم ما نشاهد ونعاين عونا بعين وينهض، وعملا يتخلص بشكر آلائه الباهرة ويمحض، وقوة لاتنتكث بالعجز عن أداء حقوقه ولا تنتقض.

وقد تقدم أعلامكم ـ وصل الله سروركم، وضاعف شكوركم ـ بما كان من صنع الله تعالى في فتح هذه البلاد؛ التي يسر مرامها بحوله واقتداره، ونور ظلامها بأضواء هذا لأمر السعيد وأنواره، وصير أباطحها وآكامها من مواطيء أوليائه وأنصاره، وكيف كانت صورة الحال في درجها. وتصرف الانتقال من محصها الى عرجها، وإن أبا زكرياء يحيى بن العزيز بالله بن المنصور بن الناصر وجميع إخوته وقرابته وخؤوله حين أتاهم الرائد الذي لايكذب أهله، وانتحاهم القائد المبيح وعر المنتحى وسهله : لم يكن لهم بد عن التولي عن قرارهم.

والتخلي عن أوطانهم وأقطارهم : لامر قضى الّله فيه لهذا الأمر المبارك بخير قضائه. وشأن طوى الخيرة درج تضمنه واقتضائه، فكان مأمهم الذي اعتقدوا منعهم وحصانته، واعتمدوا ثقته عليهم وأمانته : بلد قسنطينة ــ عمره الّله ــ لكونه بحيث لاينال بقدرة مخلوق، وأين يستعلى بامتناعه على كل ملحوظ بعين المحاربة أو مرموق، وكانت جمل من عساكر الموحدين حين احتلال الجملة المذكورة فيه، واعتدادهم في عداد من يحويه ويؤويه، بجهة القلعة ــ حرسها الّله ــ على إثر فتحها الميسر، ونيل أجرها على الوجه المتخير، فانهض منهم ــ بعون الله الى تلك الجهة من رجى الخير في إنهاضه، وحض على خدمة هذا الأمر وإعراضه، فحين أمل الناهضون المذكورون ــ وفقهم الّله ــ بجهات قسنطينة ــ حرسها الّله ــ فتح لهم الفتح الذي تقدم إليكم بيان القول فيه واعرابه. وأورد عليكم إبداع القدر في تقريبه وأغرابه، وعلمتم كيف انهزمت له جموع الضلال وأحزابه، وحل الموحدون هناك ــ وفقهم الّله ــ بساحة ذلك القطر وذراه. وغشيهم منه ما غشيه وغراه وماترك القطابه أن يقطم كراه.

وكان التخييم الملاصق. والتدويم المراهق؛ والحق يتجلى والنصر يتولى من إظهار الطائفة العزيزة ما يتولى، إلى أن صرف الّله ألباب القول المذكورين الى قبلة الاصابة، وأراهم أن النجاة في جانب هذه العصابة، والحياة في قرارها الذي هو مقر قرار اليمن والمثابة، فاتفق رأيهم على إنفاذ جماعة منهم؛ فيهم إخو أبي زكرياء وشيوخ صنهاجة، وقسنطينة معتصمين بهذه العروة الوثقى، مستسلمين للأمر الذي لايقابل بعناد ولا يلقى، سائلين من التأمين والابقاء ما يدوم خيره للمحق السائل ويبقى، ووصلت الجماعة المذكورة الى هذه الحضرة المحروسة، يسعى أملها بين يديها، ويعرف القصد عما لديها، وأنهت ما تحملته من المخاطبة، وأمته لها ولمن وراءها من حسن العاقبة، فمن الّله على جميعهم بتيسير مطلبهم، وإجمال منقبلهم؛ وصدروا الى مربهلهم تتهلل أسرتهم، وتتجمل بحلل العافية والنعمة الصافية كرتهم، فاتوا قومهم على تطلع الى بشراهم، وتمتع بطيب ذكراهم، واعلموهم بالصنع الذي عرفهم تعظيم صنع الّله وأدراهم، فرأوا أجمعين أن الّله سبحانه سنى لهم بفضله غاية ما طلبوه، ورزقهم من حيث لم يحتسبوه، ووهبم من إيواء الفضل وقبوله فوق منا استوهبوا، حيث لم يكن لهم منجى إلا الذي نزحوا عنه وغربوا، وفتحوا أبواب المدينة المذكورة عند تيقن الأمر وتحققه، وتعرف سنة هذا الأمر المبارك وعظيم خلقه؛ وخرجوا عن آخرهم فرحين بفضل الّله ورحمته الواسعة، مستظلين بظلال هذه الدعوة المحيطة الجامعة، ودخل القطر من أمناء الموحدين وغزاتهم ــ وفقهم الّله ــ من أمر بعمارته، والاستقرار في قرارته، واستقبل أبو زكرياء المذكور ومن معه ــ وفقهم الّله ــ هذه الجهة ــ حرسها الّله ــ على أحسن حال، وأكرم وإقبال.

وأتم الله نعمته بهذا الفتح المحيط، والصنع المبسوط، إتماما بلغ الأمل غاية مأمونه، والسائل كافة مسؤوله، فذلك القطر هو الطرف الأعلى، والرابط الأحق الأولى، ورأس الجسد الذي استتبع بعضه بعضا واستتلى؛ وبه انعقدت روابط هذا الاقليم العظيم وقواعده، وفقدت ضرر من كان ينوي الضرر فواقده، ومعه متأتى جمع شمله وضمه، وإمساك شأنه كله وعزمه، وبه ختم كتابه وكرم الكتاب ختمه، والله نسأله بشكر هذه النعم المتظاهرة عونا ممدودا، وحولا بمعاقد المعونة الربانية معقودا، وقوة تلقى من حمدها الى كل جديد منها جديدا؛ (1).

2. الكتابة الاجتماعية :

أ. من الرسالة المعروفة برسالة الفصول. أنشأها الكاتب أبو جعفر بن عطية عن إذن الخليفة عبد المومن إلى أهل بجاية يوصيهم بإقامة الحدود وحفظ الشرائع وإظهار الحق بلزوم الواجبات :

... وابتديء بأول مباني الاسلام فآخذ الناس بعلم التوحيد الذي هو أساس الدين ومبناه، وروحه ومعناه، والقاعدة التي لايثبت عمل دون تأصيلها، والرابطة التي لايقبل دين دون تحصيلها؛ فلا سبب لمن لم يتمسك بسببه، وقد بنى وجوب العلم بالفرائض على وجوب العلم به، وهو إثبات الواحد ونفي ما سواه، بتقييدات في الشريعة لايكفي معها إطلاق اللفظ دون تحقيق معناه؛ وذاك أن يعلم على وجهه وحده، ليكون عن علم لا عن ضده، وعن يقين لا عن شك، وعن إخلاص لا عن شرك، وإن يقوله مع العمل ولا ينكل، ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي ويتكلمون به أن يقرؤوا التوحيد بذلك اللسان من أوله الى آخر القول في المعجزات، ويحفظوه ويفهموه، ويلازموا قراءته ويتعهدوه، ويومر طلبة الحضر ومن في معناهم بقراءة العقائد وحفظها وتعاهدها على سبيل التفهم والتبين التنبه والتبصر ويلزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها : «اعلم أرشدنا الله وإياك» وحفظها وتفهمها، وأشمل في هذا الالزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد، وكل من توجه عليه التكليف، إذ لايصح لهم عمل ولا يقبل منهم قول دون معرفة التوحيد، فمن لم يعرف المرسل لم يصدق بالمرسل ولا بالرسالة، ومن حصل على مثل هذه الحالة، فقد تعثر في أذيال الضلالة، فإن لم يبادر الى التخلص منها، والانفصال بالعلم عنها، فقد وجب عليه حكم الكتاب ولا عنت في إراقة دمه لامحالة.

وآخذوا بإقامة الصلاة التي هي الكتب الموقوف على المومنين، والحكم المثبوت على كل من آمن بهذا الدين، والناهية عن الفحشاء والمنكر على ما ورد في الكتاب المبين؛ ولاحظ في الاسلام لمن ترك الصلاة؛ فهو ممحو من ديوان المومنين، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع من

1) مجموع رسائل موحدية 23 — 26

الوظائف والقوانين، وتاركها ميت في عداد الأحياء؛ لخشاشة تقضى عند انقضاء أمد الأمهال والأملاء، فخذوا من قبلكم بإقامة الصلاة على ما شرعت، وأدائها بحسب ما فرضت، وخذوا العوام ومن في الديار بحفظ أم القرآن وسورة معها؛ وما تيسر من القرآن لتتم صلاتهم ويكمل عملهم، ومن أضاع الصلاة وأهملها ولم يبادر الى أداء ما فرض عليهم منها فاجله للحين متاح، وقتله بحكم الكتاب والسنة واجب.

وخذوا بإيتاء الزكاة، وبالكشف عن مانعيها وتشخيص ممسكيها أو النزر اليسير منها، فالزكاة حق المال، والجهاد واجب على من منع منها قدر العقال، فمن ثبت منعه للزكاة فهو لاحق بمن ثبت تركه للصلاة، فمن منع فريضة كمن منع الفرائض كلها، ومن منع عقالا فما فوقه كمن منع الشرع كلها.

وآمر بالنظر في الربوب وتمييزها، والهجوم على بائعها ومدمني شربها ومستعمليها، فيراق مسكرها، ويقطع منكرها، وليعمد الى من عمل المسكر الحرام عامدا، وشربه مدمنا عليه ومعاهدا، ولم ترعه الحدود، ولم تقيده القيود، ولم يعظه الاعتبار، ولم ينفعه الاذكار، فيمحى أثره، ويحذف خبره، فالخمر أم الكبائر، وجماع الاثم وكاشفة شمس العقل، والبلاغة على كل قبيح من الفعل، والفاتحة كل مرتج من أبواب العصيان، وهي رجس من أعمال الشيطان.

وآمر بالكشف عن التلصص والحرابة،ـ والتولج في مكان من الريب والغواية، والاجتماع على السير الجاهلية من الملاهي على فنونها وأنواعها وضروبها واختلاف آلاتها؛ وما يتبعها من المناكر الناشئة عن أصل الجهالة، والأفعال المنافية للشريعة الصادرة على أهل الذراعة والضلالة من الرجال المفسدين، والغواة المضلين، ومن النساء المفسدات، المفننات في طرق الغوايات، فاكشفوا عن هذه الأصناف وأثيرهم عن مكامنهم، ونقبوا عليهم في مظانهم، فمن شهد عليه منهم بشهادة صحيحة سالمة من الهوى والظنة باستصحاب حاله، وتماديه على الاحضار في محل باطله ومحاله، فيحكم كتاب الله ـ جل اسمه ـ عليه، وتطاع سنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه.

وليكشف عن الذين يغرمون الناس ما ليس قبلهم، ويأكلون بالباطل أموالهم، وعن أهل العناد والتقاعس والاخلاد، والتثبط الذين إذا دعوا الى الجهاد، ونودوا الى الصلاة والرشاد، صموا عن النداء وتلوموا في إجابة الدعاء، وألقوا المعاذير المعربة عن العناد، والناطقة عن الضمائر الممتلئة بسوء الاعتقاد، وعن القبائل الباقية على سير الجاهلية من الهرج فيما بينهم والقتل والفساد، والخبل والانقياد الى سلطان الجهل والخروج عن قانون الحق وضبط الأمر، وعن أهل النفاق والتدليس، الناطقين بما لايعلمون، والقائلين ما لايفعلون، فإذا تعينوا على التحقيق، فليمض عليهم حكم الله تعالى الذي أمر به فيهم. (مجموع رسائل موحدية 131 ـ 134، كتاب أخبار المهدي للبيدق 139 ـ 142).

ب. من رسالة السيد أبي الربيع الموحدي الى ولي ناحية سجلماسة؛ جوابا عن رسالة ملك غانة بالسودان ينكر عليه تعويق التجار.

... نحن نتجاوز بالاحسان، وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية، ونتألف على الرفق على الرعية، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجور لاتعانيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيها هم بصدده، وتردد الجلابة الى البلد مفيد لسكانها، ومعين على التمكن من استيطانها، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية، لكنا لانستصوب فعله، ولا ينبغي لنا أن ننهى عن خلق ونأتي مثله. نفح (2) 100.

ج. أبو حفص الأغماتي يحذر من الدنيا وأهلها، ويحض على علم الكتاب والسنة :

هذه الدنيا ـ حفظك الّله ـ كما قد علمته، فاعرض بحلمك عن جهلها، وارغب بنفسك عن أهلها، وأذكر قبائح ابنائها. واصرم وصل ابنائها، لاترتع في روضهم، ولا تكرع في حوضهم، وقل الّله ثم ذرهم في خوضهم، وإذا مررت باللاغين بذكر محاسنها، اللاهين بحسن ظاهرها عن قبح باطنها، فاله من لهوهم، ومر كريما بلغوهم؛ مر المهتدي في سيره، واعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، فالسيادة والسعادة في نبذها، لا في أخذها، وفي تركها لا في دركها، وإليك عن وصلها اليك، وعليك بهجرها عليك، واتل قوله تعالى : «ولا تمدن عينيك»، وقوله تعالى : «ولا تعد عيناك عنهم»، واحرص أن لاتكون منهم؛ فزخرف الدنيا في نظر العين زين، وفي نظر العقل شين؛ فغمض عينك تبصر، ولا تمدها واقصر، جعلنا الّله ممن نظر بقلبه وأبصر بلبه، فأولوا الألباب والفكر، المخصوصون بالذكر، والعلم ارفع المزايا، وأوسع العطايا، هو غاية المنال والمدرك، من ناله أي شيء فاته. ومن فاته أي شيء أدرك ؟!... ولا علم إلا علم الكتاب والسنة، هما أفضل العطايا والمنة، فمن علمهما ونظر فيهما وعمل بهما؛ نال غاية السعادة، وادرك منتهى السيادة؛ قال الّله تعالى لنبيه الكريم : «ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم»، هذه المزايا العالية، والعطايا الواسعة الباقية، لا ما نهت عنه الآية الثانية، جعلنا الّله ممن ابصر رشده، وذكر مراده، ووجه اليه قصده، ورأى في أول أمره آخره، وابتغى فيها أتاه الّله الدار الآخرة؛ بمنه وفضله آمين. الأزهار (2) 359 ـ 360.

3. الكتابة السياسية

أ. من رسالة للمهدي ابن تومرت يذكر مثالب المرابطين وما أنعم الّله به على الموحدين : (1).

1) نثبت هذا القسم من إحدى رسائل ابن تومرت كانموذج لكتابة السياسية أول قيام دولة الموحدين على أن عهدة ما ورد في هذا النوع من الكتابة عن المرابطين يتحملها ابن تومرت وحده من غير أن تشاركه في رأيه.

... واعلموا وفقكم الّله أن المجسمين والمكارين وكل من نسب الى العلم أشد في الصد عن سبيل الّله من ابليس اللعين؛ فلا تلتفتوا الى ما يقولون؛ فإنها كذب وبهتان، وافتراء على الّله ورسوله، وما نسبوكم إليه من الخلاف لّله والرسول؛ فذلك خب وغش للمسلمين، وخيانة لله ورسوله؛ يأبى الله ورسوله أن يكون من تمسك بالحق واتبع سنة رسول الّله صلى الّله عليه وسلم؛ وأناب الى الّله، مخالفا لله ورسوله؛ بل المخالف لله ورسوله من اتبع الباطل وخطوات الشيطان.

فانتبهوا وفقكم الّله لهذه الحيل؛ التي يحتالون بها على عيشهم ودنياهم حتى حملهم ذلك الافتراء على الّله ورسوله، حتى عكسوا الحقائق وقلبوها؛ وحرفوا الكلام عن مواضعه، ونسبوا من دعى الى التوبة والتوحيد واتباع السنة الى الخلاف؛ وسموه مخالفا ببغيهم، وسموا من اتبع الباطل وخطوات الشيطان؛ من اتباع عادات الجهل والمداهنة؛ وأكل الحرام وارتكاب الآثام؛ والاصرار على الكبائر والفجور؛ واكل الدنيا بالدين؛ واكل أموال الناس بالباطل؛ وسموا هؤلاء كلهم مطيعين، وسموا اتباع الباطل وخطوات الشيطان طاعة افتراء على الّله ورسوله؛ فلا تلتفتوا الى تلبيسهم؛ ولا تنظروا الى تدليسهم، فإنه ظهرت أباطيلهم وتعاضدهم على إخماد الدين؛ وتعاونهم على الاثم والعدوان؛ فويل لهم مما كسبت أيديهم؛ وويل لهم مما يكسبون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون...

... واعلموا وفقكم الّله أن الموحدين في الأمن والأمان، ونصر من الّله وعافية وفضل منه وإحسان؛ تتابعت عليهم النعم، وترادفت عليهم المنن؛ لّله الحمد في ذلك؛ اشتغلوا بتعليم ما يلزمهم، والاهتمام في دينهم، والقيام بفرائضهم، والاستعداد للقاء ربهم، فالّله يتم علينا وعليهم، ويوزعنا شكر أنعمه، أذل الّله لهم عدوهم، وقذف في قلوبهم الرعب وزلزل أقدامهم وانتقم منهم بجورهم، وأخذهم بسوء أفعالهم، أخذهم الّله في كل ناحية، وقطع الّله لهم كل حيلة، هم في خزي وخسران، ورعب وخذلان، وذلك كله من حول الّله وقوته لا منا؛ ولا من أفعالنا، إنما هو من وعد الّله الذي لايخلفه لأوليائه؛ وخزي من حاد الله ورسوله من أعدائه، أرسل عليهم جنودا لاقبل لهم بها؛ وأظهر عورتهم وذلتهم لاوليائه؛ وكل من استند إليهم من حزب الشيطان من أوليائهم لاشك فيه ولا ريب أن من اعتصم بغير الّله تعالى ضل سعيه، ومن اتكل على غيره خسر دنياه وآخرته؛ لا عاصم لمن أراد الّله هلاكه، ولا حيله لمن أراد الّله فتنته.

والكفرة اليوم قد تبين للناس ما هم عليه من تبديل الدين وعكس الأمور؛ وايثار الضلال على الهدى؛ وايثار العناد والطغيان، على العدل والاحسان؛ وايثار الاستنكاف والاستبكار على الاستسلام للأمر والانقياد للحكم؛ وايثار الفساد في الأرض على الاصلاح

فيها، وقطع ما أمر الّله به أن يوصل من حس الزاد، وحسن الاستعداد للمعاد، وحملهم الغي والبغي على أن جعلوا الحق باطلا؛ والباطل حقا، الكفر ايمانا، والايمان كفرا، والهدى ضلالا، والضلال هدى، والعدل جورا، والجور عدلا، من يهد الّله فلا مضل له؛ ومن يضلل فلا هادي له، فقد كشف الّله لعباده المومنين تلبيسهم، وأظهر كيدهم الآن لاخفاء به، قد وضح سبيله، وكذلك الباطل؛ إلا لمن سبقت عليه شقوته من الّله، فقد تبين الرشد من الغي؛ فمن يكفر بالطاغوت ويومن بالّله فقد استمسك بالعروة الوثقى لانفصام لها؛ والّله سميع عليم، ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الّله فقد خسر خسرانا مبينا، أعاذنا الّله من الزيغ والزلل؛ وعصمنا من المحن والفتن» (1).

ب. من رسالة للمامون يوبخ فيها طائفة من جنده :

تبا لهمتكم المنحطة، وشيمتكم الراضية بأدون خطة، أحين ندبتهم الى حماية إخوانكم، والذب عن كلمة ايمانكم، نسقتم الأقوال وهي مكذوبة، ولفقتم الأعذار وهي بالباطل مشوبة، ولقد آن لكم أن تتبدلوا حمل الخرصان الى مغازل النسوان، وما لكم ولصهوات الخيول ؟!... وإنما على الغانيات جر الذيول (1).

4. الكتابة الأدبية

أ. الوزير الكاتب؛ أبو جعفر ابن عطية يستعطف الخليفة عبد المومن، من رسالة :

تالله لو أحاطت بي كل خطيئة، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة، حتى سخرت بمن في الوجود، وانفت لآدم من السجود، وقلت إن الله تعالى لم يوح في الفلك لنوح، وبريت لقدار ثمود نبلا، وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا، وحططت عن يونس شجرة اليقطين، وأوقدت مع هامان على الطين، وقبضت قبضة من إثر الرسول فنبذتها، وافتريت على العذراء البتول فقذفتها، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة، وظاهرت الأحزاب بالقصوى من العدوة، وذممت كل قرشي، وأكرمت لأجل وحشي كل حبشي، وقلت أن بيعة السقيفة لاتوجب أمامه الخليفة، وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة، واعتلقت من حصار الدار وقتل شمطها بشعبة، وقلت تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر، وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر، وغادرت الوجه من الهامة خضيبا، وناولت من قرع سن الحسين قضيبا، ثم أتيت حضرة المعصوم لائذا، وبقبر الامام المهدي عائذا، لقد آن لمقالتي أن تسمع، وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع مع أني مقترف، وبالذنب معترف.

فعفوا أمير المومنين فمن لنا ... برد قلوب هدها الخفقان (2)

1) أمراؤنا الشعراء (35).
2) النفح (3) 100 — الاستقصا (1) 153.

ب. عبد الواحد المراكشي يصف قصيدة ابن عبدون في رثاء بني المظفر؛ ملوك بطليوس من الأندلس :

... وفيهم يقول الوزير الكاتب الأبرع؛ ذو الوزارتين أب محمد عبد المجيد بن عبدون؛ من أهل مدينة يابرة؛ قصيدته الغراء لا بل عقيلته العذراء؛ التي ازرت على الشعر، وزادت على السحر، وفعلت في الألباب فعل الخمر، فجلت عن أن تساما، وانفت من أن تضاهى، فقل لها النظير، وكثر اليها المشير، وتساوى في تفضيلها وتقديمها باقل وجرير، فلله هي من عقيلة خدر، قربت بسهولتها حتى أطمعت، وبعدت حتى عزت فامتنعت، وأوردتها في هذا المصنف وإن كان فيها طول مخرج عن الحد الذي رسمته؛ مخل بالتلخيص الذي شرطته، لصحة مبانيها، ورشاقة الفاظها، وجودة معاينها، سلك فيها أبو محمد رحمه الله طريقة لم يسبق إليها، وورد شريعة لم يزاحم عليها، فلذلك قل مثلها، لابل عدم، وعز نظيرها، فما توهم ولا علم (3).

ج. أبو الخطاب ابن دحية يرثي بغداد وخلفاءها العباسيين، ويستعرض الشيء الكثير من الدول والأعيان الذين ذهبوا وماتوا، وقد ختم بهذه المرثية النثرية كتابه : النبراس في تاريخ بني العباس، وقال بعد كلام :

... وأخذت من طريق خوزستان؛ الى طريق حلوان، وقاسيت من الغربة أصناف الألوان، ومررت على مدائن كسرى أنو شروان وزرت بها قبر صاحب النبي صلى الله عليه وسلم الزاهد العابد، المعمر : سلمان، وأعملت منها السير والأغذاذ، الى مدينة بغداد، فنظرت اليها معالم وربوعها وأقمت مرة عاما؛ ومرة أسبوعا وأسبوعا، وأنا أبدي في ندائهم وأعيد، والتراب قد علا على منازلهم والصعيد، وأسأل عن الخلفاء الماضين وأنشد، ولسان الحال يجاوبني وينشد :

ياسائل الدار عن أنـــاس	ليس هم نحوهــا معـــاد
مرت كما مرت الليــــــالي	أيـن جديس وأيـــن عاد ؟!

بل أين أبو البشر آدم الذي خلقه بيده الكبير المتعال ؟! أين الأنبياء من ولده والارسال؛ أهل النبوة والرسالة؛ والوحي من الله ذي الجلالة، أين سيدهم محمد الذي فضله عليهم ذو العزة والجلال، وجعلهم شفيعهم مع أمته والناس في شدائد الأهوال، أين القرون الماضية والأجيال، أين التبابعة والأقيال، أين ملوك همدان، أين أولو الأبلق الفرد أو غمدان، أين

3) المعجب 49.

أولو التيجان والأكاليل، أين الصيد والبهاليل، بل أين النمارذة وأكبرهم نمروذ ابراهيم الخليل، أين الفراعنة ومن هو بالسحر عليهم؛ الذين منهم فرعون موسى الكليم، أين ملك الهدنانية : هدد بن بدد الكردي؛ الذي لم يكن غدره بمفيد له ولا مجدي؛ ووقد أخبر الحق جل جلاله عنه أنه كان يأخذ كل سفينة غصبا، وزعم المؤرخون أنه كان أيضا يملأ القلوب رعبا؛ ويسوم أصحابه قتلا وصلبا، مع الطمع في المال؛ وعدم النظر في عقبي المآل، أي الفرص وملوكها، وعدلها وعدولها، أين دار ابن دارا بن بهمان، أين اسكندر بن فلبش اليوناني الذي غلبه وملك بلاده في ذلك الزمان؛ وأطاعه جميع ملوك الأقاليم، وقدر الله به امتحان الخلق ذلك تقدير العزيز العليم، أين كسرى وقيصر، غلبهما من الموت الأسد القشور، بعد أن أخرجهما من بلادهما أمير المومنين أبو حفص عمر، لما ظهرت الملة الحنيفية كما ظهرت الشمس وبدا القمر.

أين أولاد جفنة وملوك غسان، أين مماديح زياد وحسان، اين هرم ابن سنان، أين الملاعب بالسنان، أين أولاد مضر بن نزار بن معد بن عدنان، أين بنو عبد المدان، أين أرباب العواصم، أين قيس بن عاصم، أين العرب العرباء الأمة الفاضلة؛ والجماعة المناضلة، أين أولو البأس والحفاظ، وذو الحمية والاحفاظ؛ حيث الوفاء والعهد، والحباء والرفد، الى علو الهمم والوفاء بالذمم، والعطاء بالجزل والضيف والنزل وهبة الافال والبزل، وإنها لاتدين عزا ولاتقاد ولاترام أنفة ولا تفاد، أين قريش المغرورة في الجاهلية بالحي اللقاح؛ والشعب الرقاح، أين الماضون من ملوك بني أمية؛ ذوو الألسن الذلق والأوجه الطلق والحمية، أين خلفاء بني العباس بن عبد المطلب؛ الذين شرفهم بالأصالة وليس إليهم بالمنجلب، ذوو الشرف الشامخ، والفخر الباذخ، والخلافة السنية الرضية، والمملكة العامة المرضية.

بلغتنا والله وفاتهم ولم يبق إلا ذكرهم وصفاتهم؛ قبض ملك الموت أرواحهم قبضا، ولم يترك لهم حراكا ولا نبضا، ومزق الدود لحومهم قددا، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا؛ إلا ما كان من أجساد الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم، فإن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء وقد تكلمت على هذا الحديث وأثبت أنه من الصحيح لا السقيم، وخرجت طرقه في كتابي العلم المشهور بعون من العزيز الرحيم.

فما أبعد المرء عن رشده وما أقصاه ؟! كم وعظمه الدهر وكم وصاه، يخلط الحقيقة بالمحال، والعاطل بالحال، ولا توبة حتى يشيب الغراب، ويالف الدم التراب، فيالهفى لبعد الدار، وانقضاض الجدار، وأنت هامة ليلى أو نهار، وقاعد من عمرك على شفا جرف هار، تقرأ العلم وتدعيه؛ ولا تفهمه ولاتعيه، فهو عليك لا لك، فأولى لك ثم أولى لك، أما آن لليل الغي أن تنجلي أحلاكه، ولنظم البغى أن تنتثر أسلاكه؛ وأن يستفظع الجاني جناه، ويأسف

على ما اقترفه وجناه، وأن يلبس عهاده بتأ، ويطلق الدنيا بتا، ويفر منها فرار الأسد، ويتيقن أنه لابد من مفارقة الروح الجسد.

نبهنا الله تعالى من سنات غفلاتنا، وحسن ما ساء من صنائعنا الذميمة وسلاتنا، وجعل التقوى أحصن عددنا وأوثق آلاتنا، اللهم إليك المآب، وبيدك المتاب، قد واقعنا الخطايا، وركبنا الأحرام رواحل ومطايا، فتب علينا أجمعين، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين الطائعين وصلى الله على سيدنا ولد آدم محمد شفيعنا يوم القيامة، وصاحب الحوض المورود والمقام المحمود والكرامة، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه أهل الرضوان المنتخبين، وسلام الله عليه وعليهم الى يوم الدين. (4).

5. الكتابة الاخوانية

أ. رسالة أبي الحسن علي بن مروان الرباطي، وقصتها أنه ذكر لابن الربيب المؤرخ أن عند أبي الحسن نسخة جليلة من تاريخ عريب، فأرسل اليه في استعارتها فكتب إليه :

يا أخي سدد الله آرائك، وجعل عقلك أمامك لاوزاءك؛ ما يلزمني من كونك مضيعا أن أكون كذلك، والنسخة التي رمت اعارتها هي مؤنسي إذا أوحشني الناس، وكاتم سري إذا خانوني، فما أعيرها إلا بشيء أعلم أنك تتاذى بفقده إذا فقد جزء من النسخة، وانا الذي أقول :

أنس أخي الفضل كتاب أنيق   أو صاحب يعني بود وثيق
فإن تعره دون رهن به   تخسره أو تخسر وداد الصديق
وربما تخسر هذا وذاك   فاسمع رعاك الله نصح الشفيق (5)

ب. كتب أبو القاسم عبد الكريم بن عمران القصري الى أبي عبد الله محمد بن علي بن العابد الفاسي، يستقرضه بعض قريضه بعد أن شافهه بذلك، ووعد به فمطل :

... أيها الشاعر المفلق، قولة منصف لا متملق؛ بقيت وللعصر بك اختيال، ولزهر الآداب من خمائل شمائلك انثيال، ومهما ذكر القريض بتصريح أو بتعريض، فالناس فيه على براعتك عيال، اقتضى الود الذي لم نزل نتعاطاه تعاطي الجريال والاعتدال (6).

(...) في مضرة برودها سابغة الأذيال، أن أهز عطف (...)

4) النفح (3) 61 — 63
5) النفح (1) 466
6) بياض بالأصل، وكذا الآتي بعده في هذه الصفحة.

انطباعكم (...) عنصر طباعكم السيال، وأتقاضى منكم دينا ما أحمل اللوم (...) صرف الليالي، فبعثت بهذه الرقعة على ما ترون بها من (...) جدب (...) سجع في مصوح هشيم (...) هامراد ولاً لمتطلع في تصفح مرسومها (...) ضمي فلعب بخواطرها (...)لمواطرها رقص الال تشير بمعطل جيدهها (...) قلائد النظم ومجيدها إشارة من راقها لديه لالاء اللآل فكيف بها إذا (...)

ففتح لها الباب وكرعت في فم ذلك العباب، واشتملت من مصون ذخائره (1) (...) اللباب، فهنالك تبرد الأوام، وتنثى بفرادى من فرائد البديع وتوام، ولا تزال تصرح بالثناء عليكم مترنمة كورقاء في فروع الايك مهيمنة، وفي دوح سراوتكمم إن شاء اللّه تجد الظلال وترد الزلال، وتحل حيث حل من وسنى المقل الخيال، فتصدق عليها واوف المكيال، واللّه يهنيكم ما منحكم من محاسن رايقة وخلال؛ ويقين في آيات السحر الحلال، وسلام اللّه عليكم مانحسر قناع الغيم عن جبين هلال، ولبى المحرومون باهلال، ورحمة اللّه وبركاته (7)

ج. وقد أجاب ابن العابد كاتب هذه الرسالة أبا القاسم القصري بما يأتي :

أيها البحر الوهوب لفرادى الجواهر والتوام، والحبر اللعوب بأطراف الكلام، وقيت عين الكمال، وبقيت محروس الجمال؛ تتأنق لمن باراك في ارتياد البراعة؛ وتسبق من جارك بجياد اليراعة، وتتبختر من ملابس السعادة في موشى برودها، وتظفر من أوانس الآمال المنقادة بشهي برودها. وصلتني رقعتك التي جلوت في أسطارها الكواعب، وعلوت بأظهارها الكواكب، وأظهرت في نظمها ونثرها السحر لمرتاده، وذكرت بمستاف عنبرها الشحر على نادي بلاده فقلت هذه غاية لا أبلغ مداها، وآية يتحدى بها من أهداها، فتوقفت عن الاجابة توقف الحسير، وانصرفت الى الاذعان. (8).

الأسير

وانشدت الخاطر وأرجاءه داحب أبعد حول

فإني لاغترازه إلا أن يساجل عبابك بهذه الصبابة ويعاجل

يرزق سواهل من عدم الاصابة،

وجدك أسبل على هذه الهنات   يعدل

من قابل تلك الحلل المسهمات في أسمال معاوزه، والله يقيكم

تنظمون عقودها، والمآثر تحبرون برودها، والسلام عليكم ما اعـ

7) من سوء الحظ أن محى المطر كثيرا من هذه الرسالة وجوابها في نتيجة الذيل التي احتفظت بالرسالتين، وبالرغم من ذلك أثبتهما على علاتهما لما في الباقي من دلالة على تفوق صاحبيهما في ميدان الكتابة. انظر الاعلام (3) 102، 103.

8) بياض في الأصل

أنابيب وانسدلت من الظلام جلابيب،
وهطلت من سماء بلاغتكم شابيب، ورحمة الّله وبركاته (9).

6. التوقيعـــات

وكانت تصدر عن كثير من خلفاء الموحدين وبعض أمرائهم توقيعات عريقة في الاجادة والصنعة؛ على ما يقدم إليهم من القصص أو الشكاوي، لا سيما يعقوب المنصور؛ فقد كان مضرب الأمثال في هذا الباب، وهذه أمثلة من توقيعاتهم :

الآن وقد عصيت من قبل....

كتب أبو جعفر ابن عطية الى عبد المومن بقصيدته الآتية يستعطفه لما نكبه، فوقع عبد المومن على القصيدة : الآن وقد عصيت من قبل وكنت من المفسدين (10).

ظهر الفساد في البر والبحر

وطلب يعقوب المنصور يوما من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين؛ من تعليم ولد وحفظ أمر، فعرفه برجلين قال في أحدهما : وهو بحر في علمه، وقال في الآخر : وهو بر في دينه، ولما أحضرهما المنصور واختبرهما؛ قصرا بين بديه، وأكذبا الدعوى، فوقع على رقعة القاضي : أعوذ بالّله من الشيطان الرجيم : ظهر الفساد في البر والبحر (11).

ما لنا ولد فن الجبابرة

وأمر المنصور القيم على أخيه عمر؛ وعمه سليمان بقتلهما... ودفنهما، فقتلهما القيم المذكور صبرا ودفنهما، وكتب للمنصور يعلمه بذلك، ويقول : بنيت قبريهما بالكدان والرخام، وجعل يذكر حسنهما، فكتب اليه المنصور : ما لنا ولدفن الجبابرة، إنما هما رجلان من المسلمين، فادفنهما كيف يدفن عامة المسلمين (12).

نحن لانريد أن نكون أصحاب الفيل

وأتى قوم الى المنصور ـ أيضا ـ بفيل من بلاد السودان هدية؛ فأمر له بصلة ولم يقبله منهم، وقال : نحن لانريد أن نكون أصحاب الفيل (13).

الجواب ما ترى لا ما نسمع...

كتب أذفونش الأسبان ليعقوب المنصور كتابه الشهير يستدعيه فيه للقتال، وبعدما قرأ المنصور هذا الكتاب؛ دعى بولده وولي عهده محمد الناصر، فدفعه اليه وأمره أن يجيب عنه،

9) الاعلام (3) 103 — 104
10) نفح (3) 101
11) شرح رقم الحلل 58. نفح 2. 100
12) المعجب 183
13) النفح 100.2

ففراه هذا الأخير؛ ثم مزقه وقلبه فمكتب على ظهر قطعة منه : قال الله العظيم : ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون، الجواب ما ترى لا ما تسمع وأنشد بيت المتنبي متمثلا :

ولا كتب إلا المرشفية والقنا   ولا رسل إلا الخميس العرمرم (14)

... فاحذر فإنك على شفا جرف هار

وقع أبو الربيع سليمان أمير ناحية سجلماسة الآنف الذكر، الى عامل كثرت الشكاوي منه : قد كثرت فيك الأقوال، وأغضائي عنك رجاء أن تتيقظ فتنصلح الحال، وفي مبادرتي الى ظهور الانكار عليك تنبيه الى شر الاختيار، وعدم الاختيار، فاحذر فإنك على شفا جرف هار.

يخرج هذا النازل، ولا يعوض بشيء من المنازل.

شكت امرأة الى المامون بن المنصور جنديا نزل دارها وآذاها، فوقع عل رقعتها : يخرج هذا النازل، ولا يعوض بشيء من المنازل (15).

الـخـطـابــة

1. الـخطـابة السيـاسـيـة

لما مرض المهدي مرض موته استدعى قبل موته بأيام بسيرة أهل الجماعة وأهل الخمسين، فلما حضروا بين يديه قام ـ وكان متكئا ـ فحمد الله واثنى عليه بما هو أهله، وصلى على سيدنا محمد نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم أنشأ يرتضي عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم، والعزيمة في أمرهم، وإن أحدهم كان لاتأخذه في الله لومة لائم، وذكر من حد عمر... رضي الله عنه ابنه في الخمر، وتصميمه على الحق، في اشباه لهذه الفصول، ثم قال :

فانفرضت هذه العصابة نضر الله وجوهها، وشكر لها سعيها، وجزاها خيرا عن أمة نبيها، وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيرانا، والعالم متجاهلا مداهنا، فلم ينتفع العلماء بعلمهم؛ بل قصدوا به الملوك واجتلبوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس إليهم، في اشباه لهذا القول الى هلم جرا، ثم إن الله سبحانه ـ وله الحمد ـ من عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصكم

14) القرطاس 140
15) أمراؤنا الشعراء 35 .

من بين أهل العصر بحقيقة توحيده، وقيض لكم من الفاكم ضلالا لاتهتدون، وعميا لاتبصرون، لاتعرفون معروفا، ولا تنكرون منكرا، قد فشت فيكم البدع واستهوتكم الأباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل، وترهات إنزّه لساني عن النطق بها: وأربأ بلفظي عن ذكرها، فهداكم الله به بعد الضلالة، وبصركم بعد العمى، وجمعكم بعد الفرقة، وأعزكمم بعد الذلة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبته أيديهم وأضمرته قلوبهم، وما ربك بظلام للعبيد، فجددوا لله ــ سبحانه ــ خالص نياتكم، وأروه من الشكر قولا وفعلا ما يزكي به سعيكم، ويتقبل أعمالكم لينشر أمركم، وأحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء وكونوا يدا واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس واسرعوا الى طاعتكم؛ وكثر اتباعكم وأظهر الله الحق على أيديكم، وألا تفعلوا شملكم الذل، وعمكم الصغار؛ واحتقرتكم العامة فتخطفتم الخاصة، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة واللين بالعنف، واعلموا مع هذا أنه لايصلح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أمر أولها، وقد اخترنا لكم رجلا منكم وجعلناه أميرا عليكم، هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله من ليله ونهاره، ومدخله ومخرجه، واختبرنا سريرته وعلانيته؛ فرأيناه في ذلك كله ثبتا في دينه، متبصرا في أمره، وإني لارجو أن لايخلف الظن فيه، وهذا المشار إليه هو عبد المومن، فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعا مطيعا لربه، فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره، ففي الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير، والأمر أمر الله يقلده من شاء من عباده (1).

2. الخطابة الاجتماعية

من خطبة لأبي حفص الأغماتي يحذر فيها من بعض أصناف الفلسفة والفلاسفة، ويحض على التمسك بالكتاب والسنة : ... فإياكم والقدماء ــ الفلاسفة ــ وما أحدثوا، فإنهم عن عقولهم حدثوا، أتوا من الافتراء بكل أعجوبة، وقلوبهم عن الأسرار محجوبة. الأنبياء ونورهم لا الأغبياء وغرورهم، عنهم يتلقى وبهم يدرك السول، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول، الدين عند الله الاسلام، والعلم كتاب الله وسنة محمد عليه السلام، ما ضر من وقف عندهما ما جهل بعدهما، خير نبي في خير أمة؛ يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، دلهم من قرب عليه، وختصر لهم الطريق إليه، فما ضر تلك النفوس الكريمة؛ والقلوب السليمة، والألباب العظيمة؛ ما روي عنها من العلوم القديمة، نقاهم من الأوضار والأدناس، وقال كنتم خير أمة أخرجت للناس، كتابهم أعظم كتاب أنزل، ونبيهم أكرم نبي أرسل، السيد الامام، لبنة التمام، خير البرية على الاطلاق، بعث ليتمم مكارم الأخلاق، أنزل

1) المعجب 125 ــ 127

الكتاب اليه، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، هو الشفاء والرحمة، وفيه العلم كله والحكمة. معجز في وصفه، عزيز في وصفه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، آياته باهرة قائمة، ومعجزاته باقية دائمة. إذ هي للنبوة والرسالة خاتمة، لاتنقضي عجائبه ولا تنتهي غرائبه، ماذا أقول وقد بهر العقول، حسبي حسبي : قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي....

رحلة العبدري (خ)

3. الوصيـــة

أ. لما دنت وفاة يعقوب المنصور. جمع بينه والموحدين ووصاهم بوصايا منها : أيها الناس أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالايتام واليتيمة، فقيل له : وما الأيتام واليتيمة ؟ فقال : الأيتام أهل جزيرة الأندلس وهي اليتيمة، فإياكم والغفلة عما يصلحها من تشييد الأسوار، وحماية الثغور، وتربية أجنادها، وتوفير رعيتها، ولتعلموا أعزكم الله أنه ليس في نفوسنا شيء أعظم من همها، ولو مد الله لنا في الخلافة الحياة لم نتوان في جهاد كفارها، حتى نعيدها دار اسلام، ونحن الآن قد استودعناها الله تعالى وحسن نظركم فيها، فانظروا للمسلمين وأجروا الشرائع على منهاجها (1).

ب. أوصى أبو موسى عيسى بن عمران التسولي الوردميشي ابنه لما كان يدرس بفاس بما يأتي :

... وقد اجمعت الأمة على أن الراحة لاتنال بالراحة. وأن العلم لاينال براحة الجسم، فادرس ترأس، واحفظ تحفظ، واقرأ ترق، ومهما ركنت الى الدعة، كنت في أهل الضعة، وما رأيت الناس مجتمعين على حمده فاجتلبه، وما رأيتهم مجتمعين على ذمة فاجتنبه، والأعدل الأقصد، أن تسلك السبيل الأوسط.

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأعمال نفسك فاجعل (1)

4. الحكمـــة

ويمكن أن نجد الحكمة المنثورة على هذا العهد فيما رواه ابن العربي الحاتمي قال : سمعت محمدا بن قاسم بن عبد الرحمان بن عبد الكريم التميمى الفاسى بمدينة فاس العدل ـ

أظن ــ في سنة أربع وتسعين وخمسمائة يقول : تكلم أربعة ملوك بأربع كلمات؛ كأنما رميت عن قوس واحدة قال كسرى : أنا على رد ما لم أقل أقوى مني على رد ما قلت، وقال ملك الهند : إذا تكلمت بكملة ملكتني وإن كنت أملكها، وقال قيصر ملك الروم : لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت، وقال ملك الصين : عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول (2).

II الشعر

المديح :

□ ابن خبازة يمدح الرسول (ص) ويذكر جملة من مفاخره ومعجزاته :

حقيق علينا أن نجيب المعاليا — لنفني في مدح الحبيب المعانيا
ونجمع اشتات الأعاريض حسبة — ونحشد في ذات الالاه القوافيا
ونقتاد للأشعار كل كتيبة — لنصر الهدى والدين تردي الاعاديا
فالسن أرباب البيان صوارم — مضاربها تنسي السيوف المواضيا
لتطلع من أمداح أحمد انجما — تلوح فتجلو من سناه الدياجيا
كواكب ايمان تنير فيهتدي — بأضوائها من بات للحق ساريا
سهوت بمدح الخلق دهري فهذه — سجودي لجبري كل ما قلت ساهيا
فلا مدح إلا للذي بمديحه — تطيع إذا ما كنت بالمدح عاصيا

الى أن قال :

وكم آية خصت سراقة إذ مشى — على إثر المختار للغار قافيا
فشاهد آثارا من الخسف كاد أن — يكون لقارون السفاه مؤاخيا
ولما دعا بالهاشمي اجاره — فابصره في الحين مع ذاك ناجيا
واصحبه منه ظهيرا مكرما — بخط أبي بكر يخيف الدواهيا
وأخبره أن سوف يفتح أمره — مدائن كسرى والبلاد الأقاصيا
ويجعل في كفيه من بعد فتحها — سواره مما يحرز الدين ساميا

فأنجزها الفاروق في حين فتحها ... له عدة بالصدق فيها مباهيا
وآيته في خيمتي أم معبد ... وفي الشاة إذ لم تبق تصحب راعيا
وفي الذئب إذا أقعى وأخبر مفصحا ... عن المصطفى والذئب مازال عاويا
وفي الضب لما أن دعاه أجابه ... وقال له : لبيك لبيك داعيا
وآيته إذ فارق الجذع فضله ... فحن اليه الجذع في الحال شاكيا
إن انشقاق البدر أعظم آية ... ترد على من كان للدين زاريا
وفي الجمل الآتي بحضرة صحبه ... ليشكو تكليف المشقة راغيا
وقصته في المحل لما دعا لهم ... فأبصرت سحبا كالجبال هواميا
وسال به وادي قناة لاجله ... ثلاثين يوما لم يزل متواليا
وفي قصة الزوراء للخلق آية ... وذكرى لعبد كان للذكر ناسيا
دعا باناء ليس ينقع ماؤه ... لقتله بالري من كان صاديا
ففاض نمير الماء بين بنانه ... وكان وضوءا للكتيبة كافيا
وركوته يوم الحديبية التي ... أفاض بها الله البنان سواقيا
واشباعه الجم الغفير بقبضة ... من التمر حتى شاهدوا التمر باقيا
وأخباره بالشيء من قبل كونه ... فيأتي على النص الذي قال حاكيا
فأخبر ذا النورين أن تصيبه ... على الأمر بلوى تعقب الأجر وافيا
وأخبر عمارا بأن حياته ... سيقطعها بالقتل منن كان باغيا
وقال لذى السبطير : اشقي الورى الذي ... سيخضبها من هامة الرأس عاصيا
يصادف نور الشيب أبيض ناصعا ... فيسقيه صوب الحتف أحمر قانيا
ونص على السبط الشهيد بكر بلا ... فقام له الدين الحنيفي ناعيا
وفي الحسن الزاكي أبان بأنه ... سيصلح بين الناس للأجر ناويا
وقال لقوم : ان آخركم بها ... مماثا سيصلى جاحم الجمر حاميا
وقال : إذا ما مات كسرى فما ترى ... سميا له أخرى الليالي مساميا
وأخبر عن موت النجاشي حينه ... وبينهما من الصوج طافيا
وقال على قرب الحمام لبنته : ... تموتين بعدي فافرحي بلقائيا
وآيته جلت عن العد كثرة ... فما تبلغ الأقوال منها تناهيا
وأعظمها الوحي الذي خصه به ... فبلغ عنه آمرا فيه ناهيا
تحدى به أهل البيان بأسرهم ... فكلهم ألفاه بالعجر وانيا
وجاء به وحيا صحيحا يزيده ... مرور الليالي جدة وتعاليا

تضمن أحكام الوجود بأسرها ... وحكم القضاء مثبتا فيه نافيا
وأخبر عما كان أو هو كائن ... يرى ماضيا أو ما يرى بعد آنيا
ووافق أخبار النبيئين كلهم ... وتم بالغايات منها المباديا
وما كتبت يمناه قط صحيفة ... ولا رأى يوما للصحائف تاليا
عليه سلام الله لازال رائحا ... عليه مدى الأيام منا وغاديا

الجذوة 210 و214. أزهار الرياض (2) 384 و389 ـ 392.

□ أبو حفص الأغماتي يمدح الخليفة يوسف بن عبد المومن.

الله حسبك والسبع الحواميم ... تغزو بها سبعة وهي الأقاليم
سبع المثاني التي لله قمت بها ... عليك من نصرها نص وتقديم
وأنت بالسور السبع الطوال على ... كل الورى حاكم الله محكوم
والدهر سبعته وسبعة جعلت ... خواد مالك ـ والمنصور مخدوم
وسبعة الشهب لم تحفل بها ثقة ... بوعد ربك هيهات التناجيم
تسمو بنفس على السبع الشداد سمت ... فينا وثم لها زلفى وتكريم
أنوار عدلك في الآفاق داعية ... هل في البسيطه ظلام ومظلوم ؟
أعلى بك الله أعلاما هديت بها ... فأنت فيهن إكال وتتميم
عليك أهل الهدى والحق متفق ... وحبل من فارق الاجماع مصروم

ومنها :

فؤاده بضياء العلم منشرح ... ووجه بجمال النور موسوم
وكفه بطنها بالخير منهمر ... وظهرها لعهود الله ملثوم
العلم قيمته؛ والحلم شيمته ... طابت أرومته والنفس والخيم
لطالبي العلم ما شاءوا بخدمته ... غنى وعز وإرشاد وتعليم
سحب العلوم عليهم من سماحته ... تهمي ففي بحرها هم شرع هيم
العين من نظر، والأذن من خبر ... لاتشبعان وباغي العلم منهوم
يغضي اناة وحلما عالما وله ... في موضع الحق أقدام وتصميم
تشتد فيمن عصى أو خان وطأته ... وفي الثقاف لذات الزيغ تقويم
إرادة فوق إدراك العقول لها ... فحسبها منه ايماء وتسليم

حتى إذا ما بدا منها النجاح بدت ... كالشمس مادونها في الجو تغييم
انظر خواتمها تفهم مبادئها ... بالشرح ما ليس بالمفهوم مفهوم
والحظ سماء علاها عبرة وكفى ... من يسترق سمعها بالشهب مرجوم
إن الخليفة سر الله ظاهرة ... آياته وهو عند الله معلوم
فسلموا واخلعوا الآراء واتبعوا ... حكم الامام فما في الدين تحكيم
الشرق والغرب من عرب ومن عجم ... في كفه عودهم بالقبض معجوم
والبحر والبر من سهل ومن جبل ... جميعها بزمام الرأي مخطوم

ومنها أيضا :

وكل مجد مفاد من علا ملك ... نسيمه نفس العلياء مشموم
للمسلمين أمير المومنين حمى ... يحله من صروف الدهر تحريم
الدهر في أنفه من حكمه برة ... بها الزمان على الابرار مخزوم
العلم والدين والدنيا وساكنها ... في سلك رأيك ياوسطاه منظوم
جزاء سعيك عند الله مدخر ... هذا كتابك في الأبرار مرقوم
عطفا على حر امداحي وإن عجزت ... إن الجمال على العلات مرحوم
ما عقلوا لو رأوا هذا (قفا) و(ألا ... هبى) ولو جاءهم حجر وكلثوم
إذا لقال لراويه عليقمة : ... «هل ماعلمت وما استودعت مكتوم؟»
ياسامعين أماديح الامام ألا ... فاجثو على الركب الأعظام أو قوموا
خذ كأس لفظي دهاقا من مدائحه ... فيهال الحقائق لا لغو وتاثيم
ندعو له بدلا من مدحه- لقصو ... ر المدح عنه وفيه العذر معلوم
عز الامام فلا تضرب به مثلا ... من ذا يقاس به ؟ والمثل معدوم
أعطى الورى فضل ما أعطاه خالقه ... عليه من ربه بشرى وتسليم
صل بالصلاة عليه صدق مدحته ... ذاك الرحيق بهذا المسلك مختوم

أزهار الرياض (2) 362 — 364. الجذوة 286

□ عبد الواحد المراكشي يمدح الأمير ابراهيم بن يعقوب المنصور :

لكم على هذا الورى التقديم ... وعليهم التفويض والتسليم
الله أعلاكم وأعلى أمره ... بكم وأنف الحاسدين رغيم

1) لما قال أبو حفص هذا البيت قام جميع من في المجلس وكان فيهم الشاعر أبو العباس الجراوي فاحتاج الى مشايعتهم لذلك، وثقل عليه لضخامته، فجعل وهو يحاول القيام بسبب القاضي أبا حفص عمر ويشير الى أنه انتصف منه. الأزهار 2. 364.

أحييتم المنصور فهـو كأنـه ... لم تفتقـده معـالم وعلـوم
ومحابـر ومنابـر ومحارب ... وحمى يحاط وأرمـل ويـتيم

الى أن يقول في ذكر ولايته اشبيلية :

فكـأنما حمص جمالا سارة ... وكان ابـراهيم ابـراهيم
وأرى طليطلة كهاجر أثرهـا ... سيرفهـا الأدفـنش وهـو ذميم

ويقول فيها :

يذر الصلـيب صغيره وكـبيره ... فيها جذاذا والعلـوج جثـوم
ويحرق الأعداء فيمـا أضرمت ... ويجوب نار الحرب وهي جحيم

المعجب 206 — 207

□ أبو الخطاب ابن دحية في سلطان مصر الملك الكامل من قصيدة :

بأسيافه في الأرض هدت كنائس ... وشيـد للاسلام فيها جوامـع
كتائبـه منصورة كتـائب ... من الملا الأعلى وجبريل وازع
يهيم بمقـراه جلال وهمة ... وتغنـى بمغنـاه نفـوس نوازع
فلا تطمعن فيه العدى فل حدهم ... ففي غير أمر الله يطمع طامع
ليهنك ياعز الملـوك بشائـر ... توالى بها في المشركين وقائـع
تدال بها أرض العدى بالعمى هدى ... يكسر ناقـوس وتبنـى صوامـع
وتفتـح قسطنطينـة وتلاعهـا ... يتاح لها أمر من الله قالـع

عنوان الدراية 165 — 166

□ الأمير عبد الواحد بن عبد الرحمن بن عمر بن عبد المومن يمدح الواعظ ابن رشيد البغدادي لما ورد مراكش من قصيدة :

بحر ولكنـه عذب جواهـره ... أصدافهـا شقـقتها منـه أذهـان
يبدي الجلي من المخفي منطقه ... كان ألفاظـه للسحـر خزان
معنى رقيق ولفظ زانـه زجـل ... جزل يسدده للعقـل برهـان
تجمـعت فيـه أشيـاء محاسنها ... تفوق عدا إذا ما عد ديوان
إذا بدا صاعـدا أدراج منبره ... غارت عليه من الأبصار آذان
وإن تكلم غار العين من حسد ... فأعجب فبينهما في ذاك شنآن
طورا يعلمنـا طورا يخوفنـا ... طورا يرجي فهذا الوعظ الوان
يا واعظا بهرت حسنا مواعظه ... عليك لازال للرحمان إحسان
ذكرت غافلنـا علـمت جاهلنـا ... حليت عاطلنا (1)

تصوب من وعظك الأجفان واكفة ... كما يصوب لوصت (...)
أيدت بالصدق في قول وفي عمل ... فللدموع إذا اسمعت طوفان
كما تؤيد في نظم العروض وقد ... دعا الرسول بروح القدس
كم من شرود أخي غي إلى رشد ... قادته يا ابن رشيد منك أرسان
رأى ولولاك لم تبصر بصيرته ... وكيف يبصر وجه الرشد عميان ؟
فأنت أنت جمال الدين لاكذب ... لاجحد في ذلك إن الجحد كفران
لله قوم بهذا لقبوك وقد ... تحروا الصدق حيوا حيث ما كانوا

الاعلام (3) 158 — 159

الافتخار

الأمير عبد الله الموحدي من أبيات :

الست ابن من تخشى الليالي انتقامهم ... وترجو نداهم غاديات السحائب
يخطون بالخطي في حومة الوغى ... سطور المنايا في نحو المقانب
كتابا بأطراف العوالي ونقشه ... دم القلب مشكولا بنضح الترائب
وما كنت أدري قبلهم أن معشرا ... أقاموا كتابا من نفوس الكتائب

النفح (2) 103

☐ الجراوي مع أحد المتبذلين :

يا سيدي جاءتك رقعة شاعر ... شهدت له الشعراء بالاحسان
لو أدرك النعمان في أيامه ... لرأى له فضلا على الذبياني
أو كان يوما في بني حمدان لم ... تبهج بأحمدها بنو حمدان
لاكنه قد أدركته حرفة ... أدبية مزجته بالعبيدان
فغدا مززة [1] كل مصفوع القفا ... صفر اليدين ممزق الأردان
فإذا نظرت الى قفاه حسبته ... نبتت عليه شقائق النعمان

زاد المسافر 8

1) مززة من الزز، كلمة عربية، بمعنى الصفع كما في القاموس وغيره وهي من الألفاظ العربية التي كانت شائعة بالأندلس والمغرب، مستعملة في مدلولها العربي حسبما يذكر هذا عن الأندلس مرتضى في شرح القاموس (4) 42 وعن المغرب الونشريسي في المعيار (2) 398.

الـرثــاء

ابن خبازة يرثى أبا محمد عبد الله نجل وزير اشبيلية وعظيمها أحمد حفيد، الحافظ أبي بكر ابن الجد ويعزي والده الوزير :

أرجة الصعق يوم النفخ في الصور   أم دكة الطود يوم الصعق في الطور
أم هدت الأرض إظهار لما زجرت   به الخليفة من ايقاع محذور
أم الكواكب في آفاقها انتثرت   وباتت الشمس في طي وتكوير
ما للنهار تعرى من ثياب سنى   واشبه الليل في أثواب ديجور
قد كان للصبح طرف زانه بلق   فقسم الخلق بين الدجن والنور
فما الملم الذي غشى بدهمته   أديمه عنبرا من . بعد كافــور
أصخ لتسمع من أبنائها نبأ   يطوي من الأنس فيها كل منشور
وانظر فإن بني عدنان ما حشروا   إلا لرزء عظيم القدر مشهور
وافى مع العيد لاعادت مضاضته   فشاب سلساله إلا صفى بتكدير
واعتام دارا لها في السباق جمهرة   من المفاخر ازرت بالجمــاهير
رمى قريشا فاصمى سهم حادثه   أبنـاء فهـر بتفريــق المقاديــر
فخانها الجد في ابن الجدحين قضى   واثــر الخطب فيها أي تأثير
لله والمجد ما أبقاه من أثر   أخرى الليالي بطيب الذكر مأثور
نوارة عندمـــا راقت بدوحتها   أهوت الى الترب من بين لنواوير
جار الذبول عليها بعد ما ملأت   معاطس الدهر من طيب وتعطير
وسيف بأس لكسر الخطب اغمده   صرف الحودث فيها بعد تكسير
قضى فوافق شهر الصوم مر تحلا   ووافق الشهر في فضل وتطهير
واختاره خاطب الخطب الملم به   للصهر كفئا فامضى العقد للحور
فسار للحين مسرورا وخلفنـا   للحـزن فاعـجب لمحزون بمسرور
نادته الجشة الاحزان يوم حدا   اظعـان قلبـي رفقـا بالقواريــر
فالوجد والدمع من حزن قد اقتسما   قلبـي وجفنـي بمنظـوم ومنثــور
فالقلب بالغيظ في تصعيد مستعر   والجفن بالفيض في تصويب ممطور
وسائق الخطب يشدو الحاملين به   يسوقهم سوق حادي العير للعير
وللملائك في آفاقهـا زجــل   قد شيعتــه بتهليـل وتكـبير
اثنى المصاب على شيخ الجزيرة في   عقـد وحـل وتقـديم وتــأخير
ذاق الرزايا على مقدار منصبه   والابتـــلاء على قدر المقاديـــر

لم يصمه الدهر في الابناء من حنق ... ولا بلاه لتذنيب وتجدير
وإنما بادر الاعلاق منتقيا ... يضنونها صون تعظيم وتكبير
ان كان فرق شمل الانس عنه فكم ... أولاه للجمع من جمع وتوفير
يا دهر حملته وقع الخطوب ولم ... تزل تنفذ عنه كل مأمور
فلم تجرب عليه جبن ذي خور ... في النائبات ولا احجام مذعور
اردت بالصبر منه أن تقيم لنا ... برهان تقديمه للخير والخير
ياعامر الترب كم خلفت من كبد ... ومن فؤاد بتأوي الحزن معمور
لو كنت تحمى وتفدى للعلا ابتدرت ... آلافها بالغنى أو بالقناطير
مشمرين إلى ورد الكريهة ما ... نالوا العلاء الذي نالوا بتقصير
بنو الكرام أولوا الرايات قاد بهم ... إلى (1) كل منصور
ساقتهم غيرة الايمان فانتدبوا ... لنصرة الدين كالاسد المهاصير
بعزم كل معدي يسايره ... فتح الجزيرة بين السرح والكور
حفوا بباطل لزريق لحقهم ... فأبطلوه بأبطال مغاوير
وإنما الموت حكم ليس يدخله ... نسخ لخلق وعدل دون تجوير
يقضي على الاسد في الآجام حاكمه ... وفي الكناس على البيض اليعافير
ويقنص الشهب في شم الجبال كما ... في الوكر يغتام افراخ العصافير
اعظم بآياته من آية عظمت ... فليس تدرك في حال بتفسير
فسلم الامر فالاقدار قد نفذت ... وكل شيء بتقدير وتدبير
ما فقر ذي الفقر عن جهل ولا كسل ... ولا غنى المرء عن كيس وتشمير
ولا الحمام بنقص في المزاج ولا ... ضعف الطبيعة عن اسباب تدبير
فكم صحيح قضى فيها بلا مرض ... وكم مريض اقامته لتعمير

ومنها :

فاسمع بقلبك فالاشياء ناطقة ... والسن الحال تغني كل تحرير
مقدمات الليالي طالما فضحت ... نتائج الغدر منها كل مغرور
جمع السلامة معدوم الوجود بها ... وكم بها للردى من جمع تكسير
وعامل الموت قد احصى مهندسه ... منازل العمر عدا دون تكسير
والارض طرس وهذا الخلق احرفه ... والحرف ما بين ممحو ومبتور

والدهر يعرب بالافعال يظهرها ... طورا ويعجم منها كل مسطور
وانما الخلــق اسماء تعاورهـــا ... اعرابــه بين مرفــوع ومجرور
وكلهم في مدى الاعمار تحسبهم ... كحاالها بين ممدود ومــقصور
والموت مثل عروضي يقطع من ... ابيــاتهم كل موزون ومـــكسور
يامن يؤمل أن يبقى وقد نفضت ... ايدي المقادير من ابرام تقدير
هذي الحقيقة لا ما حدثتك به ... آمال نفسك عن دنياك من زور
لاتخدعنك الليــالي ان فتـــنتها ... كادت فكادت ترينا كل محذور
كم بادرت بعبوس الخطب من ملك ... قد بات بالبشر وضاح الاسارير
سائل بكسرى مليك الفرس هل تركت ... له المنايا جناحا غير مكسور
وانزل بصنعاء في قصر ابن ذي يزن ... تلمهم بقصر على الاغيار مقصور
واعبر على حيرة النعمان معتبرا ... تعبر باطلال نعمى ذات تغيير
واين من كان سجن الجن في يده ... والانس والجن في قهر وتسخير
وايـن مختـرق الدنيــا بعزمتـــه ... يطوي البلاد بها طي الطوامير
بادوا فليس بها باد يحس به ... منهم وافناهــم ريب الدهاريــر
هو القضاء أبا بكر اصبت به ... فاصبر وسلم له تسليم مأجور
والله يحرس دنياك ويدفع عن ... سامـي معاليـك انـواع المحاذيـر

جذوة الاقتباس 215 ـ 218، أزهار الرياض (2) 380 ـ 382.

الاستـطـعـاف والاعـتـذار

☐ الوزير أبو جعفر ابن عطية يستعطف عبد المومن :

(أ)

عطفنا علينا أمير المومنين فقد ... بان العزاء لفرط البث والحزن
قد اغرقتنا ذنوب كلهـا لجج ... وعطفة منكم انجى من السفن
وصادفتنـا سهـام كلهـا غرض ... ورحمة منكـم أوقى من الجنـن
هيهات للخطب أن تسطوا حوادثه ... بمن اجارتـــه رحماكم من المحن
من جاء عندكم يسعى على ثقة ... بنصره لم يخف بطشا من الزمن
فالثوب يطهر عند الغسل من درن ... والطرف ينهض بعد الركض في سنن
انتم بذلتم حياة الخلق كلهـم ... من دون من عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من احيت مكارمكم ... كلتا الحياتين من نفس ومن بدن

وصبية كفراخ الورق من صغر لم يالفوا النوح في فرع لافنن
قد أوجدتهم اياد منك سابقة والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

(ب)

انوح على نفسي أم انتظر الصفحا فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحى
فها أنا في ليل من السخط حائر ولا اهتدي حتى ارى للرضا صبحا

القرطاس 124 : النفح (3) 100 ـ 101.

□ الأمير الحسن بن عبد المومن : وقد عتب عليه أخوه الخليفة يوسف فكتب إليه بهذه الأبيات :

إذا نحن اذنبنا فعفوك نطلب وان نحن قصرنا فما عنك مهرب
حنانيك قد عودتنا منك رحمة وانت لنا في كل حالاتنا الاب
ولم نتعود قبل حالة ذلة ولا حذرا مما يقول المحبب

القرطاس 172

□ أبو حفص السلمي : لما اهديت إليه جارية لم يعرف أنه كان قد تسرى أمها فصرفها الى مهديها، وكتب معها يعتذر :

يا مهدي الرشا الذي الحاظه تركت فؤادي نصب تلك الاسهم
ريحانة كل المنى في شمها لولا المهيمن واجتناب المحرم
ما عن قلي صرفت إليك وانما صيد الغزالة لم يبح للمحرم
ان الغزالة قد علمنا قبلها سر المهاة وليتنا لم نعلم
يا ويح عنترة الذي قد شفه ما شفني فشدا ولم يتكلم
يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت علي ولـيتها لم تحرم

الصلة 130. شرح المقصورة (1) 100 ـ 101

الهجاء والذم

□ الجراوي (أ) فيمن اسمه خلوف :

زعمو يا خلوف انك خلف صدقوا : فيك من خليوف الوف
ولهذا دعوك بالجمع فردا جمع خلف بلا خلاف خلوف

زاد المسافر 8

(ب) في لبي حفص الاغماتي :

نبغت عمرة بنت ابن عمر هذه فلتعجبوا أم العبر

قل لها عني إذا لاقيتها ... قولة تترك في الصخر أثر
هتك كالخنساء في اشعارها ... أو كليني هل تجارين الذكر ؟!

أزهار الرياض (2) 364 - 365

(ج) في قبيلته بني غفجوم :

يابن السبيل اذا نزلت بتادلا ... لا تنزلن على بني غفجوم
ارض اغار بها العدو فلن ترى ... إلا مجاوبة الصدى للبوم
قوم طووا ذكر السماحة بينهم ... لكنهم نشروا لواء اللوم
لايملكون إذا استبيح حريمهم ... إلا الصياح بدعوة المظلوم
لاحظ في اموالهم ونوالهم ... للسائل العافي ولا المحروم

ازهار الرياض (2) 365 النفح (1) 754،

☐ ابن حبوس يذم الشعر من قصيدة :

يا غراب الشعر لاطر ... ت وملئيت الوقوعا
وإذا استيقظ شهم ... قرم زدت هجوعا
هبك لاتقنص عزا ... لم تقنصت الخضوعا ؟
رمت ان ترقى سريعا ... فترديت صريعا
ربما اصطاد بغاث ... شبعا واصطدت جوعا
ولقد غال حبيبا ... منك ما غال صريعا
بسط الايدي حتى ... منع الطير الوقوعا
واستباح الشيخ ذي الكبـ ... ـرة والطفل الرضيعا
واعد الشعر للعلـ ... ـم سيوفا ودروعا

زاد المسافر 4

العتب والتأنيب :

☐ الجراوي : استجداه شاعر بقصيدة فوقع له في اسفلها :

يامن يجدي لمن يجدي ... اسرفت والله في التعدي
أنا اجدي الانام طرا ... وانت تبغي النوال عندي

زاد المسافر 8

☐ الشاعر السلوي وقد قصد – صحبة جماعة من أهل سلا – الوزير عبد السلام ابن محمد الكومي، فقعد عن برهم ولم يقض حاجتهم فكتب إليه :

يامن راى خيبة الراجين تكرمه ونيل مااملو عجزا وتقصيرا
مهلا فإنك خام في يد زمن وقد اعدله كمدا وتقصيرا

الوصف :

□ ابن حمس يصف الرياض :

ان رنت الريح الخفوق ازائها ترك القضيب قوامه وتميلا
شرب النشاط سلافة حتى انثنى ولو انها حرمت عليه تأولا

زاد المسافر 2

□ السيد أبو الربيع (أ) يصف الروض ايضا :

تنبه ترى ديمة تمطر ووجه الصباح لنا يسفر
وكالند لاكن كافوره بدا فيه واكتتم العنبر
على حين فل الدجى مدبر وللصبح في اثره عسكر
وبين الغمام وممطوره من الروض كالحرب أو أكثر
اذا التاج من برق ذا ابيض تاطر من غصن ذا اسمر
وللقطر في جيد غض النقا لآل من الماء أو جوهر
وفي عاتق الروض من سيفه نجاد ولكنه اخضر
كان الرذاذ على زهره يفت من السكر أو ينثر
وماعبق الروض طيبا لنا ولاكنه للحيا يشكر

امرؤنا الشعراء 30.

(ب) في وصف فسقيه :

انظر إليها وقد سالت جوانبها بالماء سيلا خفيفا دمعه يكف
كأنها مقلتي يوم الوداع وقد لاح الرقيب فلا تجري ولا تقف

المصدر 31

□ ابن عبدوس (أ) في مصباح :

تلألأ مصباحنا فاكتسى بهيم الرجا من سناه نحو
كأن الذبالة نوارة ومن حولها الدهن ماء يجول
إذا رويت نعمت نضرة وإن ظمئت أخذت في الذبول

الجذوة 178.

(ب) يصف نهرا قذفت فيه مصابيح :

انظر إلى النهر يحكي الافق إذ قذفت فيه مصابيح ذا دت عنه احلاكا

جالت به سرج شبهتها شهبا ... على قواعد قد حاكين افلاكا

المصدر 178.

(ج) في نهر وردته عصابة طير :

اما ترى النهر في انصبابــه ... كأنــه الطــل في انسيابــه

قد انتحتــه ظمـــاء طير ... مقتحمـــات على حبابـــه

تنقــع من مائـــه أوامـــا ... وتلقـــط الحب من حبابـــه

المصدر 78

(د) يصف فاس ومكناس ويفاضل بينهما :

ان تفتخر فاس بما في طيها ... وبـــأنها في زيها حسنـــاء

يكفيك من مكنـاسة ارجاؤهـا ... والاطيبـــان هواؤهـــا والماء

الروض الهتون.

□ ابن العابد الفاسي (أ) في حمام :

وحين ضم الليـــل اذيالـــه ... وانـــتشرت الويـــة الفجـــر

قمنـــا لبـيت حرج مظلـــم ... قسم بين البرد والحر

تخال من ضمتـــــه احشاؤه ... كأنما ادرج في قبر

تلـــوح في اقبائـــه انجم ... نقـــيضة للأنجم الزهـــر

تبـــدو نهارا فإذا ما بدا ... جنح الدجـى غارت ولم تسر

يا طيبه ليـلا ويا حسنـــه ... صبحا لقد حاز اسنى العمر

الاعلام (3) 105 — 106.

(ب) في اخوين وسيم واحد ب :

في ابني محمد ان نظرت عجائب ... اخـوان ظبـي احـور وحـوار

فمن الجمال بوجه ذاك مآثر ... ومـن الجمـال يظهـر ذا آثار

المصدر (3) 104.

الــغـزل

□ السيد أبو الربيع :

أقـــول لركب ادلجوا بسحيرة ... قفوا ساعـة حتـى ازور ركابها

واملأ عيني من محاسن وجهها ... واشكو إليها إن اطالت غيابها

فإن هي جادت بالوصال وانعمت ... والا فحسبي أن رايت قبـابها

وقفت بها اشكو واسكب عبرة ... على غير بين ما علمت انسكابها

فأومت برخص من بنان مخضب ... وحطت عن البدر المنير نقابها
وقالت : ايبكي البين من قد اراده ... ويشكو النوى من قد اثار غرابها
ولما تناءت دارها وتباعدت ... وعاقت على بعد المزار خطابها
كتبت إليها اشتكي ألم النوى ... لعلي ارى يوما إلي كتابها
وكنت ارى أن الجواب تعلل ... فقد زاد ما بي أن رايت جوابها

النفح (2) 102 ـ أمراؤنا الشعراء 29.

□ أبو حفص الاغماتي :

مها القفر لادمية المرمر ... وفي العر لا في بني الاصفر
بنفسي يعافير تلك الخيام ... ومسرحها في النقا الاعفر
ملاعب يصبو إليها الحكيم ... ويسلب فيها فؤاد الجري
وفيها الظبأ بنات الاسود ... غيارى متى بغمت تزأر
فخيس الهزبر كناس الغزال ... به الشبل ناش مع الجؤذر
تخالسها نظرا تحته ... غرام به الحي لم يشعر
وباللحظ يقدح زند الهوى ... فطرف غر وفؤاد بري

الازهار (2) 366.

□ ابن خبازة :

هب النسيم ضحى ففاح المندل ... وتارجت منه الصبا والشمأل
اسرى عليلا فاستحث إلى الصبا ... صبا بانفاس الصبا يتعلل
يهوى الغدير وساكنيه ومن له ... لو كان يدنو منه ذاك المنزل
ما شام برقا بالغضا إلا انبرى ... شوقا على جمر الغضى يتململ
والبرق في نقع السحائب سيفه ... سيف الكمي إذا يكر ويحمل
فكان ذاك البرق واش قد مشى ... بنميمة والرعد لاح يعذل
وأنا الفداء لجيرة نزلوا الحمى ... وحمى القلوب هو الحمى والمنزل
وتحملوا يوم الفراق وإنما ... بقلوبنا يوم الفراق تحملوا
قبسوا ومن قلب المعذب موقد ... وردوا ومن جفن المعنى منهل
ما ضرهم إذا أعرضوا لو عرضوا ... للوصل أو ذكروا العهود فأقبلوا
حملوا الجمال على الجمال كأنما ... أفلاكها منها الاهلة تكمل
أبدت لنا حلي الطلى وتبسمت ... زهرا فراق مقلد مقبول ومقبل
ومن العجائب أن أهيم بجنة ... حلت بقلبي وهو نار شتعل

ويهان مرسل ناظري في حبها ... ومن التناصف أن يعزل المرسل
الأزهار (2) 383

□ ابن المحلي السبتي :

أبــوح بما ألقــاه فهــو مبــاح ... فقــبلي أربـــاب المحبـــة باح
إذا باح من قلبي ولم يلق بعض ما ... لقــيت فإني ما علي جنـــاح
أأحبابنــا لاتحسبــوا الصبر بعــدكم ... سخيا ولا أن الدمــوع شحــاح
وأن فنــيت إجسادنـــا وقلوبنـــا ... فتلك العهــود السالفــات صحــاح
سمحت لكم بالنفس كي أربح الرضا ... على ثقــة أن السمــاح ربــاح
فؤادي منقــاد إليكـــم مذلـــل ... فمـــالي إذا لج العـــذول جماح
وهـل من سبيـل أن أطير إليكم ... وقـد حص لي ريش وقص جناح
تغير وقتـــي بعـــدكم فكـــأنما ... صباحـــي ومساء والمساء صبـــاح
وأوحشنه فالكـــل في الاذن نابح ... لدي وآفاق الوجـــــــــو (1)
وما تفضل الأيام أخرى بذاتها ... ولكـــن أيـــام الملاح ملاح
خرست عن الشكوى إليكم مهابة ... والسن حالي بالغـــرام فصاح
ويـا عجبـا أني أسير وأننـــي ... أنـــاشدكم أن لايتـــاح سراح
إذا هز أرباب السماع تواجد ... فحظـي منــه زفــرة وصيــاح
فها أنا عند الباب منوا أو أطردوا ... فمالي عنـه كيـف كان براح
الاعلام (3) 150 ـ 151

ابن العابد الفاسي في شارب رعف :

ومهفهـف للبـدر حسن جبينـه ... وليانـع الأغصان مائس عطفـه
لما أراق دمـــي ولاح بخده ... أجراه قصد إهانتي من أنفـه
الاعلام (3) 105

الاجتماع

□ ابن حبوس (أ) الوصايا والأمثال وذم الزمان :

رد الطرف حتى توافي النميرا ... فرب عسر أتـــاح الـــيسيرا
وأرسل قلـــوصك طورا شمالا ... وطـورا جنوبـا وطـورا دبــورا
وشن على غازيـــات البـــلاد ... من النص والرمل جيشا مغيرا
وفـر ماء وجـهك حتـى تجم ... واطـــف السمـــوم به والهجيرا

وطرحين أنت قوي الجنا ... ح لاعذر عندك أن لاتطيرا
ولا تفعلن وأنت السليم ... حيث تضاهي المهيش الكسيرا
فام الترحل تدعى وليدا ... وأم الاقامة تدعى نزورا
وذو العجز يرضع ثديا حدودا ... وذو العزم يرضع ثديا درورا
يعز على النبل إنى غدوت ... أكنى أديبا وأسمى فقيرا
وإني ثبت لكف الزمان ... يعرق عظمى عرقا مبيرا
وما ذاك أني هيابة ... أخاف الرحيل واشنا المسيرا
ولكن بحكم زمان عدا ... يحط الجياد ويسمى الحميرا

(ب) مذهبه في معاملة الناس :

أعد لنا بجبك عصا ... وأقضم ما ضغيك حصا
وشعشع للورى شرقا ... مع الساعات أو غصصا
وكن وردا خبعثنة ... يراوغ منهم قنصا
وعامل بالخديعة من ... لقيت وبادر الفرصا
وغمض عينك النجلا ... حتى تنعت الحوصا
وهز لمعشر سيفا ... وهز لآخرين عصا
وكاشر من يدب لك الـ ... ـضر أو احرص كما حرصا
ولا تعتب عليه فلو ... ظفرت به لما خلصا
وسؤظنا بكل أخ ... يقاسمك الثنا حصصا
ولا تحفل بامعة ... بخال الشحمة البرصا
ولا تحرص فرب فتى ... مضاع عندما حرصا
وحرص الطائر الواقع ... صيرجوه قفصا
لقد رخص الغلأ واهـ ... ـون الاعلاق ما رخصا
وقد ذهب الوفاء فلا ... يقول مغالط نقصا
فلا تلزم مكان الظل ... أن وافيته قلصا
وغن لذا الزمان إذا انتـ ... ـشى وازمر إذا رقصا
ومن شهد الخطوب وعا ... ش مثلي يشرح القصصا

زاد المسافر 4 ـ 5

(ج) موقفه إزاء الفلاسفة، من قصيدة :

الدين دين الله لم يعبأ بمبـ ... ـتدع ولم يحفل بضلة ملحد
قالوا : بنور العقل يدرك ما ورا ... ء الغيب قلت : قدي من الدعوى قد

بالشرع يدرك شيء غائب — والعقل ينكر كل ما لم يشهد
من لم يحط علما بغاية نفسه — وهي القريبة من له بالأبعد
ولقد نرى الفلك المحيط وعلم ما — في ضمنه أعيى على المترصد
سعـد المجرة بالكـواكب دائم — في زعمهم وقسيمها لم يسعد
من خص بالسفلي جرم البدر أم — من خص بالعلوي جرم الفر قد
ما شاهق الطود المنيف وأن علا — إلا بمنزلة الحضيض ألا وهد
وجواز عكس الأمر في ذا واضح — للعقل فازدد من يقينك ترشد
ذاك اختصاص ليس يعلم كنهه — من ليس يوصف بالبقاء السرمد
خفض عليك أبا فلان أنها — نوب تطالعنـا تروح وتغتـد
سالت علينا للشكوك جداول — بعـد اليقين بها ولما تنفـد
وتبعقت بالكفـر فينـا السن — لاتفقد التضليل من لم تفقد
أعدؤنـا في ربنـا أحبابنـا — جرحوا القلوب واقبلوا في العود
كشف القناع فلا هواد ترينا — حتى نغادرهم وراء المسقـد
ستنـاهم منـا الغـداة قوارع — إن لم تغلهم غولها فكان قد
وتصوب فيهم سحبنا بصواعق — تلك التي جلبت منية أريد
من كان يضربهم بسيف واحد — فأنـا أضرب (1)
ولعمر غيرهـم وتـلك اليـة — أن الحمام لجمعهـم بالمرصد
قالوا : الفلاسف قلت : تلك عصابة — جاءت من الدعـو
خدعت بالفـاظ تروق لطافـة — فإذا طلبت حقيقة لم توجد
ذو علمهم لو كان شاهد علمنا — ورأى جهابـذة الكـلام
لعراه من حسن هنالك لؤلؤ — وأقـام بين تحير وتبلـد
أسفي ولـو أني نصرت عليهم — للثمت في المهجات كل مهند
يلغى كتاب الله بين ظهورهم — وجميع مسنون النبي محمـد
يا قاتل اللـه الجهالـة انها — ورق لاغصان الشباب الأملد

اعلام (3) 28 ـ 29

□ بو حفص الأغماتي (أ) يبين مزية الشرع على العقل :

هذا كلام للهـدى جامـع — فاصغ إليـه أيها السامـع
الشرع للعقل هدى من يصل — بينهمـا برهانـه قاطـع

الشرع للعقل بلا مرية ... كالشمس للعين سنى طالع
الشرع متبوع به يهتدي ... من ضل والعقل هو التابع
لايهتدي العاقل في قصده ... إلا بما سن له الشارع
هذا كتاب الله يهدي الورى ... لكل علم نوره ساطع
معرفة الله وآياته ... ومنهج الرس وما الرابع
والعلم والحكمة في طيه ... اجمع وهو المعجز الساطع
وهو من الله فما فوقه ... هاد الى الله ولأشافع
تحت لواء الشرع يمضي الحجا ... والشرع وال ماله خالع

رحلة العبدري (خ)

(ب) يذكر هذه الحياة الدنيا :

يا راكضا في طلاب دنيا ... ليس لمن تصرع انتعاش
تنح يا عرضة لرام ... اسهمه بالردى تراش
تحش نار أهوى لظاها ... بمن له حولها انحياش
اعذر منك الفراش إلا ... علمت ما يجهل الفراش
تطلبها لاتنام عين ... عنها ولايستقر جاش
من لك بالري من شراب ... يشتد من شربه العطاش
دعها فطلابها رعاع ... طاشت بالبابهم فطاشوا
واظمأ لتروى وكن كقوم ... ماتوا بها عفة فعاشوا
لم يردوها فهم رواء ... ووارودها هم العطاش
كان آمالنا ظباء ... ونحن من حيرة خراش
لاتامنن بها انبساطا ... به لاعمارنا انكماش
كان آجالنا صقور ... ونحن من تحتها خشاش

الأزهار (2) 360 – 361

السياسة :

☐ ابن حبوس (أ) في فتح بجاية :

من القوم بالغرب تصغى إلى ... حديثهم إذن المشرق
جروا والمنايا الى غاية ... فلم يسبقوها ولم تسبق
بأيديهم النار مشبوبة ... فمهما تصب باطلا تحرق
يقودهم ملك أروع ... تفرد بالسؤدد المطلق

تخيره اللـــــــــه من آدم فمـــا زال منحـــذرا يرتقـــي
الى الناصريـــة سرنـــا معـــا ولما تفتنـــا ولم نحـــق
الى برزة في ذرى أرعـــن تحل عن السور والخنـــدق
يعـــوذون منـــا بمولاهـــم ومولاهـــم عاد بالـــزورق
واكسبـــه خوفـــه خفـــة فلو خاض في البحر لم يغرق
زاد المسافر (6)

(ب) يذم الوزير ابن عطية لما نكب :
انـــدلسي ليس من بربـــر يختـــلس الملك من البربـــر
لاتسلـــم البربـــر ما شيـــدت بالملك القـــيسي من مفخـــر
المصدر 3 ـ 4

الجراوي (أ) يذكر انتصار المنصور في غزوة الاراك وهزيمة الادفونش وجنده :

هو الفتح اعيى وصفه النظم والنثرا وعمت جميع المسلمين به البشرى
وانجد في الدنيا وغار حديثـــه فراقت به حسنا وطابت به نشرا
تميز بالأحجـــال والغـــرر التـــي اقل سناهـا يبهر الشمس والبـدرا
لقد أورد الادفونش شيعته الردى وساقهم جهلا إلى البطشة الكبرى
حكى فعل ابليس باصحابه الالى تبرا منهم حين اوردهـــم بدرا
اطارتـــه شدة تولى امامهـــا شريـدا وانسته التعاظم والكفـــرا
رأى الموت للابطال حوليه ينتقي فطـار إلى اقصى مصارعه ذعـرا
وقـد أوردتـه الموت طعنة ثائـــر وان لم يفارق من شقاوته العمرا
ولم يبق من افنى الزمان حماته وجرعـه من فقـــد انصاره صبرا
الـوف غدت ماهولـة بهم الفلا وامست خلاء منهم دورهم قفـرا
ودارت رحى الهيجا عليهم فاصبحوا هشيما طحينا في مهب الصبا قدرا
يطير باشلاء لهم كل قشعـــم فما شئت من نسر غدا بطنه قفرا
فكيف رأى المغتر عقبى اغتـراره وكيف رأى الغدار في غيه الغدرا
وكان يرى اقطـــار انـــدلس له متى يرم لم يخطيء باسهمه قطرا
فسلاه يوم الاربعـــاء عن المنـــى فمـــا يرتجى مما تملكـــه شبرا
إذا عزلتـه الـــروم كانت نجاتـــه وقد احرقت جمر المنايا به عذرا
فتعسا له مادام حيـــا ولامنـــى وكسرا له مادام حيـــا ولاجبرا
بيمن الامام الصالح المصلح الرضى نضى سيفه الاسلام فاستأصل الكفرا

فلا زال بالنصر الالاهي يقتضي بشائر يحصى قبل احصائها القطرا
رسالة المغرب : س (1) ع (8)

(ب) فيمن عصى دعوة المهدي من قصيدة :

وهل هو الأمر اناس تهافتوا فراشا على أسيافكم وهي نيران
عصوا دعوة المهدي وهي سفينة فأغرقهم طغيانهم وهو طوفان
زاد المسافر (8).

(ج) من قصيدة في الصابوني الذي صلب :

اني لاعجب من خساسة عقله نسى الذنوب فخانه الغفران
وغدا على مشروعة رهن الردى الجو قبر والهوى اكفان
المصدر (7).

☐ ابن خبازة (أ) في المهدي ابن تومرت لما تبرأ منه المامون بن المنصور..

وجد النبوة حلة مطوية لأيستطيع الخلق نسج مثالها
فاسر حسوا في ارتغاء يبتغي بمحاله نسجا على منوالها
الازهار (2) 379 — 380 الجذوة 210.

(ب) حكي أن المعتصم يحيى بن الناصر بن المنصور الموحدي ضرب بظاهر مراكش قبة حمراء، فبادر إليها العرب والنصارى من عسكر عمه المامون فقطعوا أطنابها فسقطت، فقال في ذلك ابن خبازة من قصيدة :

انظر إلى القبة الحمراء ساقطة لما رأت مضر الحمراء عن كثب
من كان أولى بها ان كنت ذا بصر . العجم أو معدن العليا من العرب
وانما سجدت لما سمت وغدت فوق الضلال وكانت أعجب العجب
الازهار (2) 383.

نهضة الفنون

إن الفنون ارتقت في كثير من مظاهرها على هذا العصر . وقطعت باحات من التقدم والازدهار، في دائرة طابع الدولة الثلاثي من العظمة والدين والتجديد؛ كما سنرى هذا في تضاعيف الحديث عن أصناف الفنون في هذا العصر؛ تصريحا في بعضها؛ أو تلويحا في أخرى. وفيما يلي شرح لتلك المظاهر الفنية التي تتجلى بوفرة في شيء غير قليل من الصناعات.

الصناعات

نهض مجموع الصناعات لهذا العهد؛ وبالأخص إبان عظمة الدولة نهضة فائقة، وذلك بما توافر حينئذ من أصنافها؛ وبما كانت عليه من الجودة والاتقان، وبما ظهرت به من الابداع والاختراع.

ومن مظاهر وفرة الصناعات إذ ذاك : ما ذكره ابن أبي زرع في الأنيس 26 والجزنائي في زهرة الآس 33 : إنه كان بفاس وحدها لعهد المنصور وابنه الناصر من معامل الصناعات ما يأتي : داران للسكة . واحدة في كل عدوة. و3064 معملا لنسج الثياب، و47 من ديار عمل الصابون، و86 من ديار الدبغ، و116 دارا للصباغة، و12 معملا لتسبيك الحديد والنحاس، و11 مصنعا للزجاج، و135 من كوش الجير، و400 حجر لعمل الكاغد، و188 دارا لعمل الفخار، وكانت هذه خارج مدينة فاس.

ومما يدل أيضا على وفرة الصناعات حينئذ؛ ما نقله في النفح (1) 286 : إنه لما أراد عبد المومن تفخيم مصحف عثمان الآتي الذكر؛ حشر له الصناع المتقنين ممن كان بحضرتهم العلية وسائر بلادهم القريبة والقصية ـ وفي نقل الاستقصا (1) 151 وسائر بلاد المغرب والأندلس ـ فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة، ومهرة كل طائفة من المهندسين، والصواغين،

والنظامين، والحلائين، والنقاشين، والمرصعين، والنجارين، والزواقين، والرسامين، والمجلدين، وعرفاء البنائين، ولم يبق من يوصف ببراعة أو ينسب الى الحذق في صناعة إلا أحضر.

وإن هذا الكلام ـ زيادة على أنه يدل على وفرة الصناع والصناعات بالمغرب حينئذ ـ يفيد أيضا اهتمام الموحدين بجلب الصناعة للمغرب من خارجه، ليتعاونوا مع الصناع المغاربة في بعض المناسبات، وانظر النفح (2) 124، ومن الشواهد على اتقان الصناعات الاتقان الفائق، ما كانت عليه ابنيتهم ـ مثلا ـ من التفنن العظيم، والتانق الفائق، حسبما يعلم من مشاهدة ما بقي قائما منها، ووصف ما حفظ وصفه، وقد قال بعض : إن اتقان البناء من شواهد التقدم والرقي، ولا ينتج الابنية الفخمة الشاخمة إلا حضارة ضخمة، وشعوب لها شأن في فنون الهندسة والعمارة، ونزعة الى حسن الذوق.

أما إبداعات الموحدين وابتكاراتهم الميكانيكية فسنفرد لها فصلا على حدة فيما بعد.

وبعد هذه المقدمة أفصل الحديث عما وقفت عليه من مظاهر النهضة لبعض صنوف الصناعة بما فيها من الفرع الصوتي؛ فالفرع الرسمي بأقسامه الثلاثة : فن العمارة، وفن التصوير، وفن النقش، ثم أذيل على الموضوع بملحقات له.

صناعة الموسيقى

لقد أثر أثرا كبيرا في ضيق نطاق نهضة الموسيقى لهذا العهد النشاة التي نشأت عليها دولة الموحدين : من التدين والتقشف ومقاومة المناكر، بمافيها من آلات اللهو التي كان المهدي ابن تومرت يأمر أصحابه بتكسيرها؛ مثل ما فعل في فاس؛ كما أشار لهذا في القرطاس 109، وبسطه في كتاب أخبار المهدي ابن تومرت 65.

كان ذلك عاملا قويا في تحديد النهضة الموسيقية في هذه الدولة، وبالأخص في أوائلها، ومن أبرز الشواهد على هذا أن الجيش الموحدي نفسه لم تكن به موسيقى تذكر؛ حسبما يشير لهذا قول ابن طفيل ـ كما في المعجب 157 ـ لو نفقت عليهم الموسيقى لانفقتها عندهم، فإن نفاق الموسيقى لو كان لظهر قبل كل شيء في جيشهم الذي لم يكن به منها سوى طبول كثيرة، أما الطرب الشعبي فكان يعتمد على أغاني مغربية؛ ينشدها بعض المغنين في المحافل والأسواق، مثل أبي علي حسن بنعمر الفهري السبتي الذي كان قوالا يحترف بهذه المهنة (1).

كما كان هناك نوع آخر من الطرب عرفه المغرب في هذا العهد ـ فيما يظهر ـ وهو غناء العرب الداخلين للمغرب حينئذ بأشعارهم وملاحمهم، يضاف الى هذا وذاك : نوعان

(1) الاعلام 3 149

منحطان من الطرب كان يقوم بإحدهما السودان كما في الروض الهتون، وبالآخر البربر؛ كما في رسالة الشقندي (2).

على أنه بعد أوائل هذا العصر أخذ الطرب يشيع ويترقى، وصار يستمع له بعض الأمراء، مثل أبي الحسن علي بن عمر بن عبد المومن (3)، كذلك وجد الطرب الأندلسي حينئذ بالمغرب، حسبما يؤخذ من رسالة الشقندي (4)، وبخاصة نوع من الغناء يعرف بالسماع شاع أواخر هذا العهد، وتولع به حتى الخلفاء؛ مثل المرتضى من أواخرهم (5)، وكذا ورد ذكر السماع في شعر ابن المحلى السبتي لما قال :

إذا هز أرباب السماع تواجد فحظي منه زفرة وصياح (6)

أدوات الموسيقى

تلخص مما ذكر أن المغرب حينئذ عرف أصنافا من الموسيقى ما بين مغربية وأندلسية وغيرها، ونذكر هنا من أدوات تلك الأصناف ما وقفت عليه، ومن المؤسف أن المصدر المهم عن هذه الآلات ـ وهو رسالة الشقندي بنقل النفح (2) 151 ـ كتبت عن هذا الموضوع كعادتها على أساس الحط من قيمة المغرب؛ فلم تذكر من أدوات الطرب بالمغرب سوى الدف، وافوال واليرا وابو قرون...

أما آلات الموسيقى الأندلسية؛ فذكرت منها ما يأتي : الخيال، والكريج، والعود، والروطة، والرباب، والقانون، والمونس، والكثيرة، والفنار، والزلامي، والشغرة، والنورة ـ وفيها مزماران : الواحد غليظ الصوت، والآخر رقيقه، والبوق.

ولا شك أن أشهر أدوات الطرب حينئذ هي الطبول الموحدية ـ إن صح أن فيها طرب ـ وكانت في نهاية الكبر، وغاية الضخامة، يخيل لسامعها إذا ضربت أن الأرض من تحته تهتز، ويحس بقلبه يكاد يتصدع من شدة دويها، وكان يصحب جيشهم منها عدد كثير وفي غزوة عبد المومن لافريقية، كانت في جنده أكثر من مائتي طبل؛ حسبما ثبت كل هذا في المعجب 150، وكان بين هذه الطبول واحد هو أكبرها، إذا ضرب فيه ثلاث ضربات علم أنه

2) النفح 151.2
3) النفح 102.2
4) النفح 151.2
5) الاستقصا 208.1
6) الاعلام 151.3

طبل الرحيل، يسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع، في يوم لاريح فيه، وكان مستدير الشكل دوره خمسة عشر ذراعا، منشا من خشب أخضر اللون مذهب. (الحلل 115).

صناعة الغراسة والفلاحة

اهتم الموحدون بالغراسات اهتماما فائقا، وعاصمتهم مراكش كانت متفوقة في هذا الميدان الى حد بعيد. يقول عنها صاحب الاستبصار : إنها أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعنابا وفواكه وجميع الثمرات... وأكثر شجرها الزيتون، وسلف عن مستشفى مراكش أن يعقوب أمر أن يغرس به من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات.

ومن البساتين الشهيرة بمراكش

1. بستان المسرة انشاه عبد المومن خارج مراكش، وغرس به كل فاكهة تشتهيها الأنفس، طوله ثلاثة أميال، وعرضه قريب منه. الحلل 109 ـ 110.

2. بستان الصالحة، من إنشاء عبد المومن كذلك، وهو بستان كبير من جملة بساتين : (اجدال)، بمراكش، ولا زال مشهورا بهذا الاسم الى الآن، قاله في الاستقصا (1) 108.

3. البحائر؛ التي انشاها يوسف، وهي تفوق في غراساتها ما غرسه عبد المومن، حسبما يوخذ من الاستبصار.

4. البحيرة التي أحدثها المنصور بمراكش الجديدة؛ طولها اثنا عشر ميلا. فيها العمائر الجليلة؛ والمصانع العظيمة، والبركة التي لم يعمل مثلها... طولها ثلاثمائة وثمانون باعا، على جانبها الواحد : أربعمائة شجرة من النارنج؛ وبين كل الاثنتين إما ليمونة، وإما ريحانة. (مسالك الأبصار (خ)).

ولم تكن بساتين مراكش هي الوحيدة بالمغرب؛ فقد كانت بساتين أخرى غرسها الموحدون أول أيامهم : بمكناس وفاس والمقرمدة وتازا. وأكثر غراساتها الزيتون. كما في الروض الهتون التي وصف بحيرتي فاس ومكناس : بأن بهما ـ زيادة على الزيتون ـ أنواعا كثيرة من الفواكه الصيفية والخريفية والورد؛ مما كان له غلة جليلة، وفيها أرض بيضاء للخضر والكتان تكترى بمال جسيم، وكما وصف هذا المصدر ما ذكر؛ كذلك وصف مؤلف مساكل الأبصار بركة بحيرة فاس نقلا عن ابن منقد في رسالته المغربية؛ الذي قال : ذرعت كل جانب منها مائتين وستة عشر ذراعا بالمرفق، ويكون دور البركة ثمانمائة ذراع وأربعة وستون ذراعا، كذلك كانت قرية (بليونش) بضاحية سبتة ذات جنات وبساتين وأشجار، وفواكه كثيرة، وقصب سكر، واترجع، يتجر به الى ما جاور سبتة من البلاد؛ لكثرة الفواكه بها (نزهة المشتاق).

ويفهم من بعض هذه النصوص أن الغراسة لهذا العهد كانت على جانب من الجودة الناشئة عن النظام، وهذا يؤيده الأثمان الباهظة التي كانت تباع بها منتوجات تلك الغراسات، وقد استعرضت ما وقفت عليه من تلك الأثمان في مقدمات الكتاب ص 18 فليرجع إليه.

وهذا ولا أدع الحديث عن الغراسة دون أشير الى أن الفلاحة هي الأخرى كانت متقدمة حينئذ، وعولجت بالأساليب الفنية.

صناعــة البنــاء

أكثر الموحدون من تشييد البنايات الضخمة؛ ورفع الهياكل الخالدة، الأمر الذي جعل الأستاذ سديو يحكم عليهم بأن حب تشييد المباني اظهر صفاتهم (1) وكان لهم ذوق خاص في البناء؛ تجلى فيما بقي من آثارهم متوجا بالعجائب الثلاثة : منائر اشبيلية، والكتبيين، وحسان. ويعقوب منهم كان مهتما بالبناء الى حد كبير، وفي طول أيامه لم يخل من قصر يستجده، أو مدينة يعمرها (2).

ولقد كانت مبانيهم مطبوعة بطابع ناطق بعظمتها، وهذه بعض شهادات المؤرخين في هذا الصدد : يقول في النفح (1) 97 عن منارة جامع اشبيلية، «إنه ليس في بلاد الاسلام أعظم منها». ويقرر صالح بن شريف في كتابه روض الأنس (خ) «أن مسجد مراكش ــ الذي ابتناه المنصور ــ ليس بعد جامع قرطبة مثله»، ويلاحظ بعض الباحثين أن مسجد اشبيلية ــ الذي أسسه المنصور ــ فاق مسجد قرطبة في اتساع الأرجاء وفخامة البنيان، ويشهد صاحب الاستبصار (خ) «أن قيسارية مراكش الجديدة ليس في بلاد الاسلام أعظم منها» ويثبت المراكشي في المعجب 176 «أن مسجد حسان ليس في مساجد المغرب أكبر منه» كما يذكر ص 240 أن القصور التي بناها الموحدون بمراكش لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من الملوك، ويصف ابن سعيد مراكش ويقول إنها بغداد المغرب، وهي أعظم ما في بر العدوة وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة إنما ظهرت في مدة بني عبد المومن، (النفح (2) 124).

كما يقرر ابن سعيد نفسه أنه لم يشاهد في البلاد التي طاف بها ــ وهي المغرب وافريقية وما جاورها، والبلاد المصرية والشامية ــ لم ير ما يشبه الأندلس في حسن المباني والتشييد والتصنيع، إلا ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المومن... المصدر (1) 97.

كذلك كانت بعض مبانيهم تحمل مسحة التجديد؛ فقد بنيت مدينة الرباط على هيئة الاسكندرية في الاتساع، وحسن التقسيم واتقان البنيان وتحصينه وتحسينه، (وفيات الأعيان (2)

1) تاريخ العرب العام 343

2) المعجب 194

431). وشيدت صومعتها العالية على هيئة منار الاسكندرية، (المعجب 176)، كما كان مسجد هذه المدينة يشبه مسجد مدينة (بلخ) في عظم سواريه، (رحلة ابن بطوطة (1) 246).

كذلك كانوا يراعون في مبانيهم تخليد ذكريات غزوات الاسلام العظيمة، فقد بنى يعقوب بعد انتصار المسلمين في وقعة الأرك منارة اشبيلية، (الاستقصا (1) 180).وانظر تاريخ العرب العام 343، كما بنى بعد استنقاذ مدينة شلب حصن الفرج العظيم على النهر الكبير : نهر اشبيلية، وشيد به قصورا وقبابا، ولما رجع من غزوة الأرك جلس للوفود في قبة من تلك القباب مشرفة على النهر الأعظم؛ واذن فدخل عليه الناس على طبقاتهم ومراتبهم وأنشده الشعراء، (المعجب 193 ـ 194).

المصانع والمباني

وبعدما تقدم أذكر أن مباني الموحدين كثرت بصفة خاصة بمراكش درجة أولى وبالرباط درجة بعدها، كما شيدوا مباني عديدة في كثير من مدن المغرب وبعض جهات الأندلس، وفوق ما ذكر من ذلك ـ في هذا المبحث وقبله ـ أذكر هنا طائفة من مصانعهم ومبانيهم في غير مدينة بالمغرب والأندلس، ثم أعقب على ذلك بنص فريد منقول من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (خ)، وهو يصف بعض مصانع مراكش القديمة؛ كما يصور تصويرا دقيقا مدينة «تا مراكش»، أو مراكش الجديدة التي ابتناها يعقوب المنصور، وهذه طائفة من مصانعهم ومبانيهم.

☐ قصر أبي بكر ابن زهر بمراكش

شيده للمذكور يعقوب المنصور، واراد أن يجعله صورة طبق قصر ابن زهر باشبيلية؛ فارسل المهندسين الى هذه المدينة وأمرهم أن يحتاطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته؛ ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش، ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة... أنظر النفح (1) 439 ـ 440.

وهذه القصة تضرب رقما قياسيا كبيرا لرقي صناعة البناء حينئذ، وتشهد بما كان للمغرب إذ ذاك من التقدم في هذا الميدان.

☐ قصر السيد أبي الربيع بمراكش

وهو قصر جليل؛ حسبما يوخذ من قطعة للسيد أبي الربيع يصف بها هذا القصر أو الدار، وها هو نصها :

رعـاك الله يا دار الكـــرام وجـادك بالحيا صوب الغمـــام

ومتــــع فيك أعوامـــــا طوالا على نعـــم وخير مستــــدام
أرى مراكش الحسنـاء تزهـــى - وحق لها - على دار السلام
كأن الأرض شخص وهي وجه وقت بوجههـــا وضح ابـــتسام
تقـــول لأهلهـــا لما أتوهـــا قدمتم فادخلـــــوني بالسلام
أقيمــــــوا آمنين بخير حال فعنـدي للعلى أسنـــى مقـــام

ديوان السيد أبي الربيع (خ)

□ قبة السيد أبي حفص بمراكش

أنشد فيها السيد أبو الربيع الأبيات التالية :

أيا قبة العلياء حل بك السعد وحل بك التوفيق واليمن والمجد
وقـرت بما نهواه فيك عيوننـا وانجز في لقيا أبي حفص الوعد
وحالفـــه فيك السرور مخيمـــا إذا ما أتى وفد قفا اثره وفد
ولا زال والأقـدار تخدم أمـره على وفقه والدهر في ملكه عبد

ديوان السيد أبي الربيع المذكور.

□ قصور الرباط

ورد عنها في الاستبصار ما معناه : أن في الرباط من المباني الملوكية الرفيعة، والمناره البديعة، وقباب الجلوس للسادات، والقصور العلياء ـ ما جعلها من منتزهات الدنيا.

مقدمة الفتح 124

□ دار العادل بالرباط

من آثار السلطان أبي عبد الله محمد المعروف بالعادل بن يعقوب المنصور. وأنشد في حقها صاحب الجذوة :

يا عاذلي دع عنك عذل العاذل واخلع عذارك في الحبيب الواصل
وإذا ذكـــرت عشيـــة لمحاسن فاذكـر عشايانا بدار العـــادل

المصدر 124 ـ 125

□ قصر أبي العباس بن القاسم بسلا

من أخبار هذا القصر : أنه لما شاده صاحبه وصفته الشعراء، وهنته به، ودعت له، وكان بالحضرة حينئذ الوزير أبو عامر بن الحمارة ولم يكن أعد شيئا؛ ففكر قليلا ثم قال :

ابا أوحد الناس قد شيدت واحدة فحل فيها حلول الشمس في الحمل

فما كدارك في الدنيا لذي أمل ولا كدارك في الاخرى لذي عمل
النفح (2) 351

□ قصر عبد المومن بالأندلس

أنشد فيه أبو جعفر بن سعيد؛ وقد مر به بعدما رحل عنه عبد المومن :
قصر الخليفة لا أخليت من كرم وإن خلوت من الأعداد والعدد
جزنا عليه فلم تنقص مهابته والغيل يخلو وتبقى هيبة الأسد
المصدر (2) 300

□ قصر السيد أبي يحيى بن يوسف خارج قرطبة

وهو مبني على متن النهر الأعظم، تحمله أقواس، وقيل للسيد أبي يحيى : كيف تأنقت في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة ؟! فقال علمت أنهم لايذكرون واليا بعد عزله ولا له عندهم قدر؛ لما بقي في رؤوسهم من الخلافة المراونية؛ فأحببت أن يبقى لي في بلادهم أثر أذكر به على رغمهم، وأنشد لنفسه في هذا القصر ناهض بن ادريس شاعر وادي آش :
الا حبذا القصر الذي ارتفعت به على الماء من تحت الحواجب أقواس
هو المصنع الأعلى الذي أنف الثرى ورفعه عن لثمه المجد والنـاس
فاركب متـن النهر عزا ورفعـة وفي موضع الأقدام لايوجد الراس
فلا زال معمور الجناب وبابه يغص وحلت أفقه الدهر أعراس
المصدر (1) 218

□ قصر السيد بغرناطة

وهو قصر كبير، بناه السيد اسحاق بن يوسف على نهر شنيل خارج غرناطة، وبنى أمامه الرابطة.

الحلل 126.

□ قصر السيد بمالقة

بناه المامون بن المنصور حين كان واليا على مالقة؛ وبرأيه واختراعه كان جميع بنائه.
المصدر 124

□ حمام وخان جليلان بإحدى جهات الأندلس

بانيهما السيد أبو زكرياء، وكانا آيتين في براعة الصنعة والتأنق، والاتقان؛ حسبما يوخذ

مما تصفهما به الأبيات التالية :

قد كنت أحسب أن الحسن مسكنه ... في ثغر أشنب أو في جفن وسنان

حتى بصرت به والسحر يقسمه ... على السواء لدى الحمام والخان

تنافسا في بديع الصنع فارتقيا ... هضب التأنق في مرقاه اتقان

فذايتيـه بتـاج فوق مفرقـه ... كانه هرمز في ملك ساسان

وذا عليه رواق لم يلم به ... كسرى قحط ولم يلمح بإيوان *

ماء يسح بمصقول الرخام كما ... سحت على الخدد معامقلة العاني

حدا به السير فانقادت إبايته ... من بعدكم حلف حنث وإيمان

إن أكثر الناس مما أبصروا واعجبا ... حتى لظنوا به من صنعة الجان

فلست أعجب من بنى تكنفه ... من الخليفة سعد أنجد البـان

من قصيدة في مدح السيد أبي زكرياء، صاحبها الأديب عيسى ابن زنون الأندلسي. ت 627. وقد وردت في ترجمته من كتاب : بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها (خ).

☐ مباني الموحدين بمراكش القديمة والجديدة

وهكذا كلام المسالك عن مصانع مراكش القديمة، وخطط المدينة الجديدة؛ قال في صدد الحديث عن مراكش : وحكى لي غير واحد عن سعة دورها، وضخامة عمائرها، وما فيها من قصور بني عبد المومن وأولادهم وأجنادهم؛ حتى يقال إنه إذا كان الرجل في صدر الدار ونادى رفيقه وهو في صدرها الآخر باعلى صوته لايكاد يسمعه لاتساعها، ودورها سبعة أميال، وهي بسيطة يمتد فيها البصر، بناها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين... ثم إن يوسف العشري وهو ابن يعقوب * ابن عبد المومن؛ كبرها وفخمها، ومصرها وضخمها، وجلب اليها المياه والغراس، ومنارة جامعها المعروف بالكتبيين طولها مائة وعشرة أذرع من الحجر...

قال ابن سعيد : وحضرة مراكش مما سكنت بها وعرفتها ظاهرا وباطنا، ولا أرى العبارة تفي بما تحتوي عليه، ويكفي أن كل (قصر) من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمام والاصطبلات والمياه وغير ذلك، حتى يغلق الرئيس منهم بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج؛ ولا يخرج له أمر الى خارج داره، ولا يشتري شيئا من السوق لمأكل، ولا يقري أولاده في مكتب خارج، ويخرج هو من بابه راكبا؛ لاتقع عليه العين راجلا، وفيها قصور عظيمة، وبها

* هناك بيت بعد هذا لاتستقيم قراءته.

سبق قلم. والمراد يعقوب بن يوسف.

قصر الخلافة، بناه المنصور يعقوب بن يوسف ابن عبد المومن؛ وهو وسط المدينة (التي) اختطها خارج مراكش خاصة به وبخواصه، وتعرف بتامراكش. قال ابن سعيد : ولا أدري كيف أصل الى غاية في الوصف؛ أصف به ترتيب هذه المدينة المحدثة، فإنها من عجائب همات السلاطين؛ ذات أسوار ضخمة وأبواب عالية؛ وبها قصر الخلافة؛ وبه ديار عظيمة، منها دار البلور، ودار الريحان ودار (...) * وكل دار منها لايخلو من المياه، والبساتين العجيبة، والمناظر المرتفعة المشرفة على بسائط مراكش، ولها ثلاثة أبواب مختصة بها : باب البستان، وكان لايراه إلا خواص بني عبد المومن يفضي الى مكان يعرف بالبحيرة... والباب الثاني باب الوادي وهو في داخل مدينة مراكش، ينصرف منه إلى ما يحتاج اليه بالمدينة، والباب الثالث باب الرياض، أمامه رحبة عظيمة تحمل طراد الخيل... وبها قبة الخلافة الى جانب الباب؛ كان يخرج اليها خليفتهم بكرة كل نهار؛ ويكون بها الخدمة، وفي رحبة القصر دار الكرامة والأضياف، وفي هذه الرحبة المدرسة، وهي مكان جليل به خزائن الكتب... وفيها دار مخصوصة للوزارة المحلاة بوزير الجند، وتفضي هذه الرحبة الى باب السادة، وهو يفضي الى خارج مراكش، كان مخصوصا ببني عبد المومن؛ إليه ينتهون على خيلهم، وعليه سلسلة أمامها ينزلون، وهناك مقابر أكابرهم وجنائز الأعيان، وفي نهاية حسن المباني والغراس، وفي الرحبة باب السقائف، وهو باب كبير يخرج منه الى سقائف أهل الجماعة، وهي ذرية العشرة أصحاب مهديهم ابن تومرت، وسقائف أهل خمسين، وسقائف الطلبة؛ وهم أهل العلم والقرآن، وسقائف الحفاظ، وهم المقدمون على الأعمال لحفظها، وسقائف أهل الدار، وهم غلمان الخلافة، ثم يخرج من هذه الرحبة الى سقائف القبائل وأعيان الغز والجموع، ثم يفضي الى رحبة عظيمة فيها سقائف خنفيسة وجدميوة، والقبائل : هسكورة، وصنهاجة، وهؤلاء هم قبائل الموحدين، وبها موضع صاحب الشرطة وبإزائها الجامع المبني في تامراكشت؛ على صحنه شباك من الصفر الأندلسي، وهو في غاية الزخرفة والاتقان، ولا يبرح المنبر مستورا في بيت المقصورة، وهو والمقصورة مستوران الى يوم الجمعة، قرب الصلاة ترفع ستورهما، والنهر الذي جلبه المنصور يخترق قصوره، ثم يمر على السقائف والمرجات المقدمة الذكر، ثم يحدق بالجامع ثم يمر بين الأسواق قدر ميل الى أن يخرج على باب الصالحة من أبواب مراكش، وفي هذه الرحبة المقدمة الذكر باب الكحل، كان من دخول الموحدين، وأمامه فضاء عظيم يسع وقوف الخلائق وتصرفها، وباب لايدخل هذا النوع إلا منه، لاحتمال أن مدخل المدينة حجر، وبها الصهريج الكبير، والصهريج في مصطلح أهل المغرب البركة، وهي بركة عظيمة عليها سور

* مواضع البياض في هذه النبذة لم تتبين كتابتها في نسختي المنقول عنها.

وباب، يصب فيها النهر الثاني الداخل إلى مراكش، وفيها توزع بقياس معلوم على قصور الناس، ثم ينحدر بقية الماء في نهر يشق المدينة من جهة أخرى في وسط الأسواق وما بعد، وفيها بركة تصب فيها المياه، وفي هذه الرحبة باب الشريعة أمام مصلى العيدين، وبينهما فسيح عظيم به سوق الخيل، وللسلطان به قصر مطل عليه، ويليه باب نفيس يخرج منه الى بلد نفيس؛ المفضلة المياه والأعناب، وقدامه بركة اقنا؛ يتعلم فيها الصبيان العوم، ويليه باب مخزن السلطان كان به، وإلى جانبه قصر أمة العزيز، وقصر ابن جامع؛ لايعلم كم غرم على كل واحد منهما ؛ حتى قال ابن سعيد في المغرب عن قصر ابن جامع وهو أحد وزارء بني عبد المومن : إنه كان في داره ساحة يلعب فيها خمسمائة جارية على خيل الخشب وتتطاعن، ويلي ذلك باب مسوفة يفضي الى المقابر، وباب دكالة، وهو مفض الى المنزهات، ويليه باب الرخاء، ويليه باب تاغورت، ويليه باب فاس؛ وهو مفض الى فضاء يفضي الى نهر كبير، لا يخاض إلا في زمان الصيف، وعليه بستاين جليلة ومنتزهات، ويليه باب الدباغين، ويليه باب ستان، ويليه أيلان، ويليه باب أغمات، وأمامه منازل المجذومين لأنها وغم بالحضرة، ويليه باب الصالحة، وخارجه مقابر وبساتين...

الى هنا انتهت هذه النبذة الفريدة التي تنشر كاملة لأول مرة (فيما أظن) *، وهي مليئة بالشواهد عما كان لبعض عظماء الموحدين، وبخاصة يعسوبهم يعقوب المنصور؛ من الاهتمام بالبنيان والتشييد.

وبعد هذا نختم هذا البحث ببيان أن مواد البناء لهذا العهد كانت في منتهى الجودة، وكانت تعتمد في كثير من المباني على الأحجار الصلبة، كما كانوا يستعملون الطابية في مبان أخرى، حسبما هو مشاهد فيما بقي ماثلا من آثارهم حتى الآن.

صناعة جر المياه

وهي من ملحقات البناء، وقد بلغت إذ ذاك شاوا بعيدا؛ يدل لهذا ماجروا من مياه على مسافات بعيدة، وما شيدوا لها من هياكل عالية، من أجل أننا لم نقف على تفاصيل اعتنائهم بهذه الصناعة؛ نذكر جملة مما وقفت عليه من آثارهم الناشئة عن براعتهم في هذا الشأن، حتى يمكن أن نستدل بتلك الآثار على ازدهار هذه الصناعة.

وأول ما يذكر من آثارهم في هذا الصدد أن يعقوب المنصور هو الذي قام ببناء الأقواس الممدوة عليها قنوات المياه الموجودة بالمدن المغربية، بناها بأمره المسيحيون الذين أتى بهم قواد المنصور عند غزوه لجزيرة الأندلس، (مقدمة الفتح 129).

* أعيد نشرها ضمن نص أوسع من مسالك الأبصار بالعدد الأول من مجلة البحث العلمي.

ومن آثارهم الأخرى في هذا الميدان جرهم المياه لكثير من المدن والجهات بالمغرب، ومن المدن التي جهزوها بالماء مدينة الرباط؛ جلبه لها ـ عام 545 ـ الخليفة عبد المومن، وأتى به من عين غبولة في مادة ممدودة من نحو عشرين ميلا، (المصدر 42 و139 ـ 140)، ومدينة مكناس أجروا لها الماء من عين تاكما على بعد ستة أميال، (الروض الهتون) واسفي ادخل لها الماء يعقوب المنصور، ورفع اليه ساقية عظيمة غاية في الاتقان من الوادي الأخضر بتساوت، ولا تزال تحفظ باسم الساقية اليعقوبية، ويوجد أثرها في بلاد الرحامنة الى أرض دكالة الحمراء (أنظر اسفي : وما إليه 172). وسلا جره عبد المومن لها من الرباط بواسطة قنطرة مائية، (تاريخ الأندلس (2) 254) ومراكش أجروا فيها مياه كثيرة لم تكن فيها قبلهم، (المعجب 240).

كذلك جلب الناصر الماء لجامع الأندلس من عين خارج باب الحديد من فاس، (الأنيس 45 ـ 46 : زهرة الآس 82) وجلب عبد المومن لبستانه الذي غرسه خارج مراكش الماء من أغمات، واستبط عيونا كثيرة، (الحلل 110).

ذلك ما أمكن ذكره من آثار الموحدين في هذه الناحية، ومن غير شك أنهم ما تأتى لهم ذلك إلا بواسطة صناع ماهرين، الأمر الذي يدل على مدى رقي هذه الصناعة حينئذ.

صناعة السفن

وهذه الصناعة كانت مزدهرة بالمغرب إلى حد كبير، بل إن المغرب حينئذ تفوق فيها تفوقا بز به من قبله ومن بعده، جاء في المقدمة 222 أنه «لما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة، وملكوا العدوتين، أقاموا خطة الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد... وانتهت أساطيل المسلمين حينئذ في الكثرة والاستجادة، إلى مالم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه»، ومن الشواهد الأخرى على ذلك التفوق ـ ولكن على المعاصرين فقط ـ أن صلاح الدين الأيوبي ملك الشرق العظيم؛ تقدم للملك المغرب يعقوب، يطلب منه أن يمده بالأساطيل، (المصدر 222). وأدفونس الاسبان، هو الآخر كتب للمنصور يطلب منه أن يرسل اليه أساطيله، ليعبر عليها الى المغرب، (القرطاس 140. الاستقصا (1) 176)، كذلك أثبت يوسف أشباخ (2) 247 : إنه في عهد يوسف نشبت عدة مواقع بحرية بين الموحدين والقطلونيين على مقربة من طرطوشة، وأحرز أمير البحر الموحدي كثيرا من ضروب التفوق، كما أنه في حصار المهدية ـ التي كان يحتلها النورمانيون أصحاب صقلية ـ قدم من صقلية أسطول نصراني من مائتي سفينة؛ ليحاول انقاذ المدينة فهاجمه أمير البحر الموحدي عبد الله بن ميمون، وكان لديه أسطول كبير من السفن الأندلسية والمغربية، ونشبت بين المسلمين

والنصارى معركة بحرية كبيرة، لم تغن فيها براعة النورمانيين في البحر شيئا، وأحرز المسلمون عليهم نصرا باهرا، وأحرقوا وأغرقوا جانبا من سفنهم، واستولوا على جانب آخر منها، هذا كله كلام يوسف أشباخ.

مصانع السفن

وكانت لتلك الأساطيل مصانع متوافرة، منبثة على طوال مراسي المملكة الموحدية، وكانت الواحدة من هذه المصانع تعرف بدار الصناعة، وقد امتدت من مرسى سلا الى المهدية، وطنجة، وسبتة، وبادس، والريف، الى بلاد تونس، ووهران، وهنين ـ عنابة ـ الى الأندلس، وكانت هذه المصانع تنشابها الأساطيل البحرية. والمراكب الجهادية، (القرطاس 127. الاستقصا (2) 11)، كما كانت هناك مصانع أخرى لانشاء سفن النقل، ومنها دار الصناعة بقصر مصمودة، التي كانت تنشابها المراكب والحراريق : التي يسافر عليها الى بلاد الأندلس، (نزهة المشتاق). ومنها أيضا دار الصناعة بالموضع المعروف بالحبالات من أرض بني عبودة؛ التي بقرب ملتقى ووادي فاس كان الغالب عليها أن تنشابها القوارب والسفن الصغار، (انظر : زهرة الآس 27 والجذوة 23).

أنواع القطع البحرية

وهذا ما وقفت عليه من أنواع القطع البحرية لهذا العهد : 1. المراكب. 2. الشواني. 3. الطرائد. 4. المسطحات. 5. الحراريق. 6. الزوارق (1).

صناعة السلاح

وكما كان المغرب متفوقا في صناعة السفن، كذلك كان متقدما جدا في صناعة السلاح، وكانت معامله توجد في جميع جهات الموحدين، وكانت هذه المعامل تنتج يوميا مقدارا عظيما من السلاح؛ حسبما يوخذ كل هذا مما جاء في القرطاس 127 وغيره : أن عبد المومن أمر سنة 557 بضرب السهام في جميع عمله، فكان يضرب له منه كل يوم عشرة قناطير أو نحوها، فجمع من ذلك ما لايحصى (2).

صناعة الورق

وهذه الصناعة هي الأخرى بلغت شاوا كبيرا لهذا العهد، وكانت لها معامل كثيرة تنتج ورقا جيدا، ومن مدن المغرب التي كانت مشتهرة في هذا الشأن مدينة سبتة، ومدينة

1) أنظر القرطاس 140 ونزهة المشتاق.
2) أنظر تاريخ الأندلس 248.2.

فاس، وهذه الثانية بلغت فيها معامل انتاج الورق حسبما مر بنا : (400)، معمل، وذلك أيام المنصور والناصر 580 ـ 610 = 1184 ـ 1213.

ومما يستحب أن يلفت اليه النظر، إنه بينما كان المغرب في هذا التاريخ بلغت فيه نهضة صناعة الورق ذلك المبلغ؛ كانت بلاد أوربا كلها ـ باستثناء اسبانيا ـ ليس بها إذ ذاك ولا معمل واحد للورق، وإنما دخلت اليها هذه الصناعة بعد هذا الوقت بزمن، وللتدليل على هذا ننقل كلاما نفيسا للعلامة (اسكورو) في كتابه الكاغد وفيه يقول :

«وأنشيء أول معمل باسبانيا (الأندلس) في مدينة شاطبة حواي سنة 1150 م في ولاية بلنسية، ويرجع عهده بايطاليا الى أواخر القرن الثالث عشر، وفي سنة 1390 انشيء معمل للكاغد بمدينة نورمبيرغ بالمانيا، وأما بفرنسا فأقدم المصانع قد أنشيء في منتصف القرن الرابع عشر باحواز (طروي) وضواحي (ايسون)، أما بانكلترا فأول المصانع يرجع الى عهد الملكة : اليزابيط سنة 1588 م» (3).

ولا شك أنه بمقابل هذه الأرقام مع الأرقام الأخرى التي كانت فيها معامل فاس وحدها تبلغ (400) يظهر مدى تفوق المغرب؛ وسبقه لكل بلاد أوربا النصرانية في هذه الناحية.

صناعة الصفر

وكانت لها إذ ذاك نهضة فائقة، ومما بقي لنا من آثارها قطعتان نفيستان؛ ناطقتان بما وصلت اليه هذه الصناعة إذ ذاك من الرقي، وأول هاتين القطعتين الثريا الكبرى بجامع القرويين العامر. قال في زهرة الآس 59 : وفيها من الصنعة ما يعجز عنه الآن : أما الثانية فهي الثريا الكبرى بجامع مكناس الأعظم؛ كتب في دائرتها السفلى صنعت هذه الثريا بمدينة فاس حرسها الله، لجامع مكناس شرفه الله بذكره، وكان الفراغ من عملها في العشرين من شهر ذي القعدة، عام أربعة وستمائة.

صناعة السكة

وكان بها لهذا العهد اعتناء كبير، وكانت عاصمتها فاس؛ التي كان فيها بمدينتي القرويين والأندلس دارا سكة، فنقلها الناصر الى دار أعدها بقصبة فاس. حين بناها سنة ستمائة، واعد بها مودعا للأموال المندفعة بها ولطوابع سكتها، واتقن ثقافها على كل حال وأتمه، وغالب ما كان يسبك بها الذهب، وأما الدراهم فكانت ترد من جميع الآفاق مختلفة السكة والوزن، وكان الناس يتعاملون بكل سكة منها، (الدوحة المشتبكة (خ)).

3) من مقال نشره الأستاذ عثمان الكعاك في مجلة المباحث التونسية عدد 25 من السلسلة الجديدة.

ولأجل أن نلم ببعض المعلومات عن مسكوكات هذه الصناعة التي كانت تقوم على أساس الدينار والدرهم؛ اذكر أن ما وقفت عليه مما ورد عرضا في مصادر متعددة؛ يفيد أن دار السكة لم تكن تضرب عملة متحدة الوزن طوال هذا العصر، وإنما ضربت عملات اختلفت بتعاقب غير واحد من ملوك الموحدين، ومن هذه العمل عملة عبد المومن التي كانت تنسب اليه فيقال : الدينار المومني والدرهم المومني؛ أخذا مما سنقتبسه عن رحلة ابن جبير والمعجب. ومنها عملة يوسف بن عبد المومن. قال ابن خلكان في ترجمته (2) 491 : والدنانير اليوسفية المغربية منسوبة إليه، كما أن يعقوب المنصور أدخل تغييرات على نظام العملة؛ فأحدث دينارا ضخما؛ أشار له ابن عذاري في الجزء المخطوط من تاريخه الذي نقلت عنه بواسطة في بحث الآداب كذلك ضرب دراهم جديدة ذكرها في المعجب 190، وكانت العملة الموحدية الى أيام المامون مربعة الشكل؛ حسبما أمر بها المهدي ابن تومرت؛ الذي سن تربيع السكة لأول مرة كما في الدوحة المشتبكة.

وعندي ــ ضمن مجموعة النقود القديمة ــ قطعتان مختلفتا الوزن من هذه العملة الموحدية المربعة، وقد كتب داخل دائرتهما المربعة من أحد الوجهين في ثلاثة سطور : لا إله إلا الله، الأمر كله لله، لاقوة إلا بالله. وفي الوجه الآخر في سطور ثلاثة أيضا : الله ربنا، محمد رسولنا، المهدي امامنا، ولما غير المامون تقاليد الموحدين وعاداتهم كان منها ابطال تربيع السكة؛ وجلعها مدورة ومحو اسم المهدي منها؛ كما بالقرطاس 161 وغيره.

وبعد هذا هل يمكننا أن نعرف مقادير هذه العمل الموحدية ونقف على وزنها ؟ إنني لم أعثر على نص يكشف عن هذه الناحية كشفا تاما، وكل ما وقفت عليه عبارات وردت عفوا تفيد ــ في الجملة ــ مقدار عملتي عبد المومن ويعقوب، وهذا ما وقفت عليه على ما في بعضه من الاجمال : يذكر في المعجب 148 عن الدرهم المومني انه نصف درهم النصاب، ويوخذ من رحلة ابن جبير صفحات 12، 19، 25 : ان الدينار المومني يعادل نصف الدينار المصري في ذلك التاريخ : أيام صلاح الدين الايوبي.

ويثبت ابن القطان في مقالته : انه وجد زنة الدينار اليعقوبي ــ نسبة الى يعقوب المنصور ــ من حب الشعير الوسط (أربعا وثمانين حبة)، وان الدينار يزن ثلاثة دراهم مربعة موحدية، الدوحة المشتبكة (خ).

ذلك ما استطعت أن أقف عليه الآن مما يتعلق بمسكوكات دار السكة ومقاديرها، أثبته هناكنواة لدراسة هذا الموضوع دراسة ضافية.

صناعة استغلال المناجم

وكانت لهم اعتناء بهذه الصناعة، ويوسف منهم عنى عناية خاصة باستغلال مناجم الذهب والفضة في افريقية والأندلس، (تاريخ الأندلس (2) 254)، وظهر أن هذا ناشيء عن معرفتهم إذ ذاك لبعض المعادن، ويدل لهذا أيضا بل ويدل على وفرة المناجم حينئذ : إن المراكشي ذكر آخر المعجب 232، 241، 242 عددا مما كان معروفا إذ ذاك بالمغرب والأندلس من معادن الذهب، والفضة، والحديد، والكبريت، والرصاص، والزئبق، وغير ذلك بكل دقة وضبط.

ومن غير شك أن الموحدين اكتشفوا بدورهم لأول مرة بعض تلك المعادن، ومن هذا معدن حصن (زكندر) بالسوس، فإنه اكتشف على عهدهم حسبما يوخذ هذا من قول الأنيس 135 لدى حديثه عن هذا المعدن : إنه ظهر هناك، ومن الأدلة الأخرى على اعتنائهم باستغلال المعادن ما جاء في الأنيس 135 حوادث عام 578 أنه في هذه السنة خرج يوسف من مراكش لبناء حصن (زكندر)، وبناه على المعدن الذي ظهر هناك، فانظر بنيان يوسف على هذا المعدن وخروجه بنفسه من عاصمته للوقوف على بنائه.

ويذكر المراكشي في المعجب 241 عن هذا المعدن أنه كان يسكن بحصنه العمال الذين يشتغلون في استخراج خيراته... وإنه لم يزل يعرف السفار من التجار وغيرهم يقصدونه.

ولا شك أن من المعادن التي كانت معروفة حينئذ معتنى بها معدن (عوام)، فقد بلغ من اعتنائهم به إلى أن سموا جهته به، ونصبوا فيها قاضيا على حدة، يدل لهذا ما ذكره في التكملة رقم 868 في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان السرقسطي؛ المتوفى سنة 598 : إنه ولي قضاء معدن (عوام) بمقربة من فاس. وبعد هذا أختم هذا البحث بكلام المعجب عن المعادن التي كانت معروفة لهذا العهد بالمغرب والأندلس؛ قال ص 242 :

«وقد تقدم ذكر معدن الكبريت الذي بين برقة وطرابلس : وإنه بالقرب من حصن يدعى (طلميثة)، وفيما بين سبتة ووهران موضع قريب من ساحل البحر يسمى (تمسامان) فيه معدن حديد، وفيما بين سلا ومراكش قريبا من ساحل البحر الأعظم بمقدار يوم أو أكثر قليلا موضع يدعى (إيسنتار) فيه معدن حديد أيضا، وليس هذا الموضع على طريق السفار، إنما يقصده من أراد حمل الحديد منه، وبالقرب من مكناسة الزيتون على ثلاث مراحل منها حصن يدعى (وركناس) فيه معدن فضة، وقد ذكرنا معدن (زجندر) الذي بسوس، غير أن فضته ليست هناك، وأعني فضة معدن زجندر.

وبسوس أيضا معدنان للنحاس، ومعدن توتيا وهي التوتيا التي يصبغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفر، فهذه جملة ما بالعودة من المعادن، وبجزيرة الأندلس معادن أيضا، فمنها معدن فضة ببلاد الروم في الجهة المغربية بموضع يدعى (شنترة)، وعلى أربع مراحل من مدينة قرطبة؛ موضع يسمى (شلون) فيه معدن زئبق منه يفترق الزئبق على جميع المغرب.

وفي أعمال المرية وعلى يوم ونصف منها بموضع يعرف (بدلاية) فيه معدن رصاص، وفي أعمال المرية أيضا على يوم ونصف منها موضع يسمى (بكارش) فيه معدن حديد أيضا، وما بين دانية وشاطبة موضع يسمى (أوربة) على نصف يوم من دانية فيه معدن حديد، فهذه جملة ما بالأندلس من المعادن»، هذا كلام المعجب، وينبغي أن يضاف لمعادن العدوة معدن عوام الآنف الذكر، حيث تصير جملة المعادن التي كانت معروفة إذ ذاك بالمغرب والأندلس أربعة معشر معدنا.

الصناعات الميكانيكية

وزيادة على تلك الصناعات الوفيرة الراقية؛ كذلك نهضت الصناعات الميكانيكية، وظهرت في كثير من المظاهر، وفوق ما مر بنا في مبحث علمي الهندسة والتنجيم من مقصورة مراكش وساعتها الميكانيكيتين، وفوق مظاهر أخرى لها في بعض الصناعات السالفة؛ فوق ذلك كله ظهرت صناعات ميكانيكية أخرى، وتمثلت في تركيب بعض أوعية مصحف عثمان، ووضع بعض القناطير المديدة، وصنع بعض الأعتدة الحربية : مثل الدبابات، والمجانيق والبارود، وفيما يلي استعراض لهذه المصنوعات الميكانيكية.

أوعية مصحف عثمان

سنذكر عن هذا المصحف الكريم أنه صنعت له أغشية بعضها من السندس، وبعضها من الذهب والفضة، واتخذ للغشاء محمل بديع، واتخذ للمحمل كرسي، ثم اتخذ للجميع تابوت يصان فيه؛ كما سنبسط هذا في مبحث التزويق.

ونريد أن نثبت هنا أن كلا من صوان الذهب والفضة والمحمل أدخل في تركيبها شيء غير قليل من الصنعة الميكانيكية، حسبما يوخذ من المصدر الآتي، أما التابوت فقد كانت قطعة فنية ناطقة بما كان لهذه المهنة حينئذ من الرقي العظيم، وفيما يلي وصف لهذه الناحية في تابوت المصحف الكريم؛ بقلم شاهد عيان هو الامام الكبير : أبو بكر ابن طفيل في رسالته في هذا الصدد قال :

وله ـ تابوت المصحف ـ في أحد غواربه باب ركبت عليه دفتان؛ قد أحكم ارتجاجهما، ويسر بعد الابهام انفراجهما. ولانفتاح هذا الباب وخروج هذا الكرسي من تلقائه،

وتركب المحمل عليه ما دبرت الحركات الهندسية، وتلقيت التنبيهات القدسية، وانتظمت العجائب المعنوية والحسية، والتأمت الذخائر النفيسة والنفسية، وذلك أن بأسفل هاتين الدفتين فيصلا فيه موضع قد أعد له مفتاح لطيف يدخل فيه، فإذا أدخل المفتاح فيه، وأديرت به اليد انفتح الباب بانعطاف الدفتين الى داخل الدفتين من تلقائهما، وخرج الكرسي من ذاته بما عليه الى أقصى غايته.

وفي خلال خروج الكرسي يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة، مقترنة بحركة يأتي بها من مؤخر الكرسي زحفا الى مقدمه، فإذا كمل الكرسي بالخروج وكمل المحمل بالتقدم عليه، انغلق الباب برجوع الدفتين الى موضعهما من تلقائهما، دون أن يمسهما أحد، وترتيب هذه الحركات الأربع على حركة المفتاح فقط دون تكلف أي شيء آخر، فإذا أدير المفتاح الى خلف الجهة التي أدير إليها أولا انفتح أولا الباب وأخذ الكرسي في الدخول، والمحمل في التأخر عن مقدم الكرسي الى مؤخره : كل إلى مكانه انسد الباب بالدفتين أيضا من تلقائه، كل ذلك يترتب على حركة المفتاح، كالذي كان في حال خروجه، وصحة هذه الحركات اللطيفة على أسباب ومسببات غائبة عن الحس في باطن الكرسي، وهي مما يدق وصفها، ويصعب ذكرها (1).

قنطرة بين الرباط وسلا

اقتضب المراكشي وصفها آخر كتابه : المعجب 240، وتبسط في وصفها صاحب الاستبصار (خ)، وذكر انها مركبة في ثلاث وعشرين معدية؛ مدت عليها أوصال الخشب، وصلبت عليها الألواح والفرش الوثيق الذي لايؤثر فيه الحافر، تجوز عليها العساكر والمسافرون... ويمد البحر فترتفع القنطرة فتغطي الجسر، فتعوم عليه المراكب وترسي دونها الاجفان الكبار.

قنطرة نهر الوادي الكبير باشبيلية

ذكرها المؤرخ يوسف أشباخ في تاريخ الأندلس (2) 254 وقال : إن يوسف هو الذي انشاها من السفن، وإنها تثبت فيها السفن معا بالسلاسل.

آلات حربية أو دبابات موحدية

وبالاسم الأول وردت في (مجموع رسائل موحدية)، ووصفها ص 105 ـ 107 بأنها لما صنعت من الأخشاب العظيمة الأجرام وكملت، قدمت الى الأعداء، وانتهت الى حفيرهم،

1) النفح 1.288.

واستعلت على أسوارهم. كما ذكر عنها ص 205 أنها لما تمت وشحنت بضروب الأسلحة، وسترت بأنواع الخيش الواقية، قربت الى الأعداء لردم حفيرهم. وظاهر أن هذه الأوصاف تنطبق على الدبابات ذات الأبراج التي كان المسلمون يستعملونها في حروبهم، واستعملها قبلهم كثير من الأمم ويذكر المصدر 105 انهم صنعوا من تلك الدبابات عددا في أقرب وقت، وهذا يدل على البراعة في الصناعة، كما يذكر 107 ـ 108، 206، إنها كانت تعجل القضاء على الاعداء، وهذا يدل على جودة تلك المصنوعات. وقد استعمل هذه الدبابات كل من عبد المومن ويعقوب المنصور في فتح مدينة قفصة من افريقية، وكانت تحمل اسم : (البرج المبارك)، كما بالمصدر المذكور 205.

المجـانيـق

كذلك استعمل عبد المومن ويعقوب المجانيق في الفتحين المذكورين؛ أخذا من المرجع المشار له 105،204،205. وقد كانت هذه المجانيق ـ كما يصفها المرجع المذكور ـ تبلغ في نكاية الأعداء المبالغ، وتحل بهم القواصم والدوامع، وتنهك أسوارهم، وتهدم ديارهم، وتعفي آثارهم.

البـــارود

أما هل عرف الموحدون البارود ؟ فأمر يشك في صحته، ويؤيد الأستاذ يوسف أشباح في تاريخ الأندلس (2) معرفتهم لهذا السلاح الجديد ص (58) : بأن خلفاء عبد المومن من الموحدين؛ هم الذين نقلوا استعمال البارود في القرن الثالث عشر من افريقية الى اسبانيا، كما يؤكد ذلك ص 246 ـ 247 بأنه لم يمض قليل على زمن الموحدين ـ أعني أواخر القرن الثالث عشر، وأوائل القرن الرابع عشر ـ حتى شاع بين مسلمي افريقية استعمال الآلات القاصفة التي تقذف الكرات الملتهبة. ووصف هذه الآلات لايدع مجالا للشك في أن هذه الكرات كانت تقذف بواسطة البارود.

صناعة التصوير

وبصفة خاصة ظهر أثر طابع الدولة الديني في التصوير، فلم يستعملوه ويعتنوا به إلا في دائرة الحاجة الدينية أو العلمية، وإلا في ميدان اللهو المباح. وأبرز الأمثلة للتصوير في هذا العهد ما سلف لنا ص 251 عن دار الوزير ابن جامع بمراكش الجديدة، من أنه كان بها ساحة تلعب فيها خمسمائة جارية على (خيل الخشب) وتتطاعن. ومن الأمثلة الأخرى ما مر بنا أنهم صوروا حول إحدى نوافذ صومعة حسان بالرباط ـ جهة البحر ـ (سيفين عظيمين)

مصلتين، رأساهما الى السماء؛ ارهابا للعدو المهاجم، ورمزا الى التهيء له والاستعداد، ومّما يلحق بهذا أن ابن رشد الثاني قدم لاحد خلفاء الموحدين كتابه في الحيوان؛ الذي يحتوي على (صور جميع الحيوانات)، كتاب الفنون الجميلة 195.

هذا إلى أنهم كانوا يصورون التصميمات لبعض المباني، ومن ذلك أن حسان ــ الذي أضيف له فيما يظهر جامع حسان ــ عمل الشكل الهندسي لاستخراج القبلة للمنصور بمراكش، (مقدمة سوق المهر (خ))، وأخيرا لاننسى أن نذكر القاريء في هذا الصدد بالكرة والخريطة الادريسيتين؛ وقد مرتا في مبحث الجغرافيا.

صناعة الطرز

كذلك فن الطرز تأثر إبان عظمة الدولة بذلك الطابع، لذلك لم يستعملوه إلا في بعض الرايات، أخذا من تاريخ الأندلس (2) 87، وإلا في بعض الستور، أخذا من تاريخ التمدن الاسلامي (1) 167 الذي رسم صورة لستارة موحدية، على أنهم آخر دولتهم التفتوا لهذه الناحية وأسسوا دار الطراز الخاصة بهم، على ما يوخذ من المقدمة 232.

صناعة التزويق

وكان الموحدون أول نشأتهم معادين لهذا النوع من الفنون، حتى أن فقهاء وأشياخ فاس اضطروا أن يستروا النقش والزخرف الواقعين فوق محراب جامع القرويين لما علموا بزيارة عبد المومن له، وخافوا من انتقاده عليهم، كما في القرطاس 35، هكذا كان موقفهم ــ أول الأمر ــ ضد هذا اللون من الزينة، ولكن لم يكد يستتب الأمر لعبد المومن ثم لخلفائه من بعده حتى أصبحوا من أنصار التزويق والزخرفة، وأكبر مظهر ظهر فيه هذا الصنف من الفن هو المباني والكتب.

أما المباني فلا زالت منها لحد الآن لمحة شاهدة بالأثر فيها بقي قائما من المباني التي زخرفوها، ناطقة بذوق الموحدين في هذه الزخرفة؛ التي تجمع الى رقة الأندلس فخامة الشرق، وتنطق باللطف والقوة.

وأما الكتب فإن تزويق بعضها مثل المصاحف ــ صحائف وأغشية ــ بلغ جانبا كبيرا من اعتناء القوم، وممن حافظ عليه التاريخ من أسماء المزوقين في الكتب لهذا العهد : أبو الحسن يحيى بن محمد القيسي القرطبي، ثم الفاسي مستوطنها، المعروف بابن الاشبيلي. ترجمه في التكملة 2767 والصلة 358، ووصفه الأول بأنه كان بارع الخط، مذهبا صناعا، وعبارة الثاني : كان من أهل الخط والتذهيب.

وهذه بعض الأمثلة لزخرفة الكتب حينئذ :

زخرفة أوعية مصحف عثمان

يصف ابن طفيل في رسالة المصحف الكريم هذه الزخرفة التي أمر بها عبد المومن بما يلي :

«مما صنع للمصحف العظيم من الاصونة الغريبة، والأحفظة العجيبة، انه كسي كله بصوان واحد من الذهب والفضة؛ ذي صنائع غريبة من ظاهره وباطنه، لايشبه بعضها بعضا، قد أجري فيه من ألوان الزجاج الرومي ما لم يعهد له في العصر الأول مثال، ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال...

ونظم على صحيفته وجوانبه من فاخر الياقوت، ونفيس الدر، وعظيم الزمرد، ما لم تزل الملوك السالفة والقرون الخالية تتنافس في أفراده، وتتوارثه على مرور الزمن وترداده، وتظن العز الأقعس والملك الأنفس في ادخاره وإعداده، وتسمى الواحد منها بعد الواحد بالاسم العلم لشذوذه في صنعه واتحاده، فانتظم عليه منها ما شاكله زهر الكواكب في تلألئه واتقاده، واشبه الروض المزخرف غب سماء أقلعت عن أمداده، وأتى هذا الصوان الموصوف رائق المنظر، آخذا بمجامع القلب والبصر، مستوليا بصورته الغريبة على جميع الصور. يدهش العقول بهاء، ويحير الألباب رواء، ويكاد يعشي الناظر تالقا وضياء...

وتلطف في تتميم هذا الغرض المعتمد، وكسى المصحف العزيز بصوان لطيف من السندس الأخضر، ذي عظيمة خفيفة؛ تلازمه في المغيب والمحضر... وصنع له محل غريب الصنعة؛ بديع الشكل والصبغة... مغشى كله بضروب من الترصيع، وفنون من النقش البديع؛ في قطع من الأبنوس والخشب الرفيع، لم يعمل قط في زمن من الأزمان، ولا انتهت قط الى أيسره تواقد الأذهان، مدار بصنعة قد أجريت في صفائح الذهب، وامتدت امتداد ذوائب الشهب، وصنع لذلك المحمل كرسي يحمله عند الانتقال، ويشاركه في أكثر الأحوال، مرصع مثل ترصيعه الغريب، ومشاكل له في جودة التقسيم وحسن الترتيب، وصنع لذلك كله تابوت يحتوي عليه احتواء المشكاة على أنوارها، والصدور على محفوظ أمكارها، مكعب الشكل، سام في الطول، حسن الجملة والتفصيل، بالغ ما شاء من التتميم في أوصاله والتكميل، جار مجرى المحمل في التزيين والتجميل». (1).

زينة راحلة المصحف

وكان خلفاء الموحدين يحملون هذا المصحف الكريم بين أيديهم أنى توجهوا على ناقة حمراء، عليها من الحلي النفيس وثياب الديباج الفاخرة ما يعدل أموالا طائلة، وقد جعلوا تحته

1) النفح 287.1 — 288

بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها، وعن يمينه ويساره عصيان عليهما لوآن أخضران، وموضع الأسنة منهما ذهب شبه تفاحتين. (المعجب 166).

حلية مصحف ابن تومرت وراحلته

ويكون خلف تلك الناقة في مواكبهم بغل محلى أيضا، عليه مصحف آخر، يقال إنه بخط المهدي ابن تومرت، دون مصحف عثمان في الجرم محلى.بفضة مموهة بالذهب. (المصدر 166).

تذهيب موطا ابن تومرت

ويحفظ حتى الآن في مكتبة القرويين بفاس هذا الموطا، وهو مكتب في رق غزال، مذهب.

صناعة الخطاطة، أنواع الخط

كان الخط الشائع لهذ العهد هو الأندلسي، أخذا من المقدمة 367، وكان الى جانب هذا الخط العام يوجد نوعان من الخط الخاص؛ أحدهما يكتب به في السكة والطراز وما إليهما، وكان آخذا من الخط الأندلسي والخط الشرقي؛ حسبما هو مشاهد على المعروف من ذلك الصنف، والآخر خط العلامة الموحدية : ـ الحمد لله وحده ـ وكانوا يكتبونها بيدهم بخط الثلث في راس المنشور، كما يذكر هذا المؤرخ ابن الوكيل في اختصار نفح الطيب؛ ورقة 164 نسخة كاتب السطور، وهناك نوع رابع من الخط وهو شكل إمضاء الموثقين، وهل كان موجودا لهذا العصر ؟ هذا سؤال أضعه بين يد القاريء الكريم.

نهضة الخطاطة

والآن وقد ذكرنا أنواع الخطوط، أذكر أن مهنة الخطاطة حينئذ بلغت غايتها من الجودة والاتقان، بما كان لغير واحد من ملوك الموحدين من الاهتمام بهذا الشأن. ولا شك أن في طليعة هؤلاء الملوك : عبد المومن الذي جعل من بنيه قدوة حسنة في الاهتمام بالخط، فنشأهم ثلاثة عشر كلهم حفاظ (خطاطون) المصدر 114.

وقد كان بعض هؤلاء الأبناء يمتدحون بجودة الخط؛ مثل السيد عمر بن عبد المومن؛ مدحه الشاعر الأندلسي الكبير ابن مجير، ووصف خطه بهذين البيتين :

تبث يمناه زهرا في الطروس ولا نكر على السحب أن ينبثن أزهارا

خط هو السحر لاكنا ننزهه ونجعل القلم النفاث سحارا
زاد المسافر ـ 10

وأخيرا نذكر أن عمر المرتضي من أواخرهم كان له حظ وافر من براعة الخط، (حلل 126)، ومن منتسخاته مصحف قرآني كريم في عشر مجلدات سنلم بالحديث عنه فيما بعد.

الخطاطون

ولقد كان من أثر ذلك الاهتمام بالخطاطة أن نشأ حينئذ خطاطون بارعون؛ نذكر منهم أسماء النخبة الآتية : **1**. عبد الله بن محمد بن عيسى التادلي الفاسي تـ 597، التكملة 1491. الجذوة 236، و **2**. أبا حفص عمر بن عبد الله السلمي الأغماتي نزيل فاس، حدود 530 ـ 603، التكملة 1831.الجذوة 286، و **3**.عبد الرحمن ابن يوسف الأزدي الزهراني؛ المعروف بابن الملجوم الفاسي 535 ـ 605، التكملة 1652. الجذوة 254. و **4**. عقيل بن عطية القضاعي المراكشي 549 ـ 608، زوائد التكملة 1946، و **5**. أبا الخطاب عمر ابن الحسين بن علي بن دحية الكلبي السبتي؛ يعرف بابن الجميل، 547 ـ 633، التكملة 1832، و **6**. محمد بن يحيى بن صاف؛ المعروف بابن المواق المراكشي ثم الفاسي 583 ـ 642، الاعلام (3) 141، و **7**: أبا القاسم عبد الكريم بن عمران القصري تـ 643، المصدر (3) 103، و **8**. محمد بن أحمد بن عمر السلمي الفاسي، المصدر (3) 144 ـ 196، ونختم أسماء الخطاطين حينئذ بـ **9**. أبي الحكم بن غلندة : وهو وإن كان أندلسي الأصل؛ فإنه استوطن آخر عمره بمراكش وتوفي ودفن بها، وقد امتاز في خطاطته بأنه كان يكتب بخطين أندلسيين، طبقات الأطباء (2) 79.

الناسخون

كذلك احترف غير واحد من الخطاطين بمهنة النساخة وهذه زمرة كريمة منهم :

☐ عتيق بن علي الصنهاجي الحميدي المكناسي ثم الفاسي : 595.

من السابقين الأولين في هذه الصناعة، كتب بخطه علما كثيرا، التكملة 2433. الجذوة 278.

☐ محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق التغمري السبتي كان حيا 596

كتب بخطه كثيرا، وكان صاحب اتقان وضبط، التكملة 1061، 2133.

☐ محمد بن جرير المعروف بابن تاخميست الفاسي : 608

كان له خط حسن؛ ينسخ المصاحف بيده؛ ويدفعها لمن يراه أهلا لها ابتغاء الثواب، الذخيرة السنية 41 ـ 42، القرطاس 175، الجذوة 137 ـ 138.

□ محمد بن أبي عمران موسى بن المعلم الفاسي : 611
ممن اشتغل بهذه المهنة، وكان يتعيش منها، القرطاس 43 ـ 44.
□ أحمد بن يوسف بن فرتون السلمي الفاسي : 660
كتب بخطه كثيرا. الجذوة 56 ـ 57.
□ محمد بن علي بن العابد الأنصاري الفاسي : 662
نساخ بارع مواظب، نسخ بيده كبار الدواوين، ولم يفتر قط من قراءة أو درس أو نسخ أو مطالعة ليله ونهاره، البغية 77. الجذوة 144. النيل 254.

صناعة الوراقة

وهي من توابع الخطاطة، وتزيد عليها بأنها تشمل حتى تجليد الكتب وسائر الأمور الكتبية، وكانت ناهضة لهذا العهد، ومن مشاهير أهلها : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ابن الصقر الأنصاري الخزرجي المراكشي؛ تـ حدود 590، كان جيد الخط سريع الكتابة؛ تعيش دهرا طويلا بالوراقة؛ وكتب بخطه الكثير واتقنه. الاعلام (3) 65. وعيسى بن واصل المراكشي؛ تـ حدود 637، كان بارع الخط، جيد الوراقة، كتب بخطه دواوين عدة في فنون شتى، الصلة 96، ومحمد بن أحمد السبائي؛ المعروف بابن الطراوة المراكشي؛ تـ 659، بارع الخط أنيق الوراقة، الاعلام (3) 148 ـ 149.

تذييل

إن الحديث عن الخطاطة والوراقة يحفزنا أن نذيل بالكتابة عن نهضة المكتبة المغربية؛ وما كان يوجد بداخلها؛ وحتى في غيرها من الذخائر والآثار.

المكتبة المغربية لهذا العهد، عمارتها

تضخمت المكتبة المغربية لهذا العهد، وامتلأت بنفيس الدفاتر والذخائر، وصارت تقارب في بعض مظاهرها المكتبة الأندلسية إبان ازدهارها، ومن الشواهد على عظمة المكتبة المغربية حينئذ أن قسم الفلسفة من مكتبة يوسف اجتمع فيه قريب مما اجتمع للحكم بالأندلس، المعجب 155، وكان بمدينة مراكش وحدها من دكاكين الكتبيين مائتا دكان لبائعي الكتب المخطوطة؛ كانت بجوار جامع الكتبيين؛ ومكتبة واحدة، هي مكتبة بعض بني الملجوم بفاس، بيعت أوراق كتبها التي هي غير مجلدة بل متفرقة بـ 6000 دينار. (النفح (1) 574).

اهتمام الموحدين باقتناء الكتب

وقد جاءت تلك الكثرة الفائقة من العناية الكبرى التي كانت للمغاربة، وفي مقدمهم الخلفاء الموحدون؛ الذين كانوا مضرب الأمثال في الاهتمام باقتناء الكتب وتملكها، وإن هؤلاء بلغ بهم الاعتناء والاهتمام بهذه الناحية الى حد ان كانوا ينتزعون ملكية المكاتب ممن يخشى ضياعها عنده لأجل صيانتها في مكتبتهم؛ ويعوضون أصحابها عنها التعويضات السنية، ومن أمثلة هذا ما رواه المراكشي في المعجب 155 ـ 156 عن أبي محمد عبد الملك الشدوني قال :

كنت في زمن شبيبتي استعير كتب هذه الصناعة ـ يعني صناعة الأحكام ـ من رجل كان عندنا بمدينة اشبيلية اسمه يوسف يكنى أبا الحاج؛ يعرف بالمراني ـ بتخفيف الراء ـ كانت عنده جملة كبيرة منها : وقعت الى أبيه في أيام الفتنة بالأندلس، فكان يعيرني إياها في غرائر، أحمل غرارة واجيء بغرارة من كثرتها عنده؛ فأخبرني في بعض الأيام أنه عدم تلك الكتب بجملتها، فسألته عن السبب الموجب لذلك، فأسر الى أن خبرها أنهي الى أمير المومنين ـ يوسف ـ فأرسل الى داري وأنا في الديوان لا علم عندي بذلك، وكان الذي أرسل كافورا الخصي مع جماعة من العبيد، وأمره أن لايروع أحد من أهل الدار، وأن لايأخذ سوى الكتب... وولوه بعد أخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه.

ولعل هذه القصة تكفينا لبيان مقدار اهتمام القوم بالكتب ومدى شغفهم بتحصيلها.

يوم كنا ولا تسل كيف كنا نتهادى من العلى ما نشاء

اقتراحهم تأليف الكتب

وان همة الموحدين في هذا الميدان لم تقف عند حد اقتناء الكتب الموجودة؛ بل كانوا يقترحون تأليف الكتب من جديد لفائدة المكتبة العربية؛ فشروح ابن رشد الثاني على كتب أرسطو إنما كانت بهمة يوسف حسبما مر بنا في مبحث الفلسفة ـ نقلا عن المعجب 159، كما أن شرحه الآخر على الفية ابن سينا كان باقتراح السيد أبي الربيع بن أبي محمد بن عبد المومن؛ كما يؤخذ من طالعة الشرح المذكور.

إهداء الدفاتر والذخائر لمكاتبهم

وعرف الناس منهم ذلك الاهتمام باقتناء الكتب، فتقدموا لمكاتبهم بإهداء الكتب؛ فعل هذا ابن رشد المذكور، وقدم لخزانة أحد الخلفاء الموحدين كتابه في الحيوان، (الفنون الجميلة 195). وبعض الأيمة الذي رفع لخزانة المرتضى الموحدي تآليفا يتضمن التوشيح (أزهار الرياض

(2) 230). بل إن الاهداء لمكاتبهم كان حتى من عظماء الملوك خارج مملكتهم، ومن هذا أن السلطان الشهير صلاح الدين الأيوبي أهدى لمكتبة الخليفة يعقوب مصحفين كيمين منسوبين (الاستقصا (1) 174.

مقام خطة المحافظة على الكتب

ومما يندرج في هذا الباب اعتناؤهم بخطة المحافظة على الكتب، وكانوا يعتبرونها من الخطط الجليلة؛ التي لايعين لها إلا علية أهل العلم وأكابرهم، كما يقول هذا في الديباج 49.

ومن تولاها في هذا العهد : أبو العباس ابن الصقر صاحب المكتبة الآتية الذكر، جاء **في ترجمته من المصدر المذكور 49 : وتولى أحكام مراكش والصلاة بمسجدها، ثم أحكام بلنسية؛ فكان بها قاضيا، ولما صار الأمر الى أبي يعقوب بن عبد المومن الزمه خدمة الخزانة العلمية، فانظر نقله من القضاء الى المكتبة، وناهيك بذلك دليلا على علو الوظيفة عند القوم.**

تأسيس المكاتب العامة

ولم يقف اعتناؤهم بالكتب عند حد اقتنائها وما يتبع هذا الاقتناء؛ وإنهم فوق ذلك اهتموا بتسبيلها ووقفها على العموم، ويقال : إن أول ما وقع وقف الكتب بالمغرب كان في هذا العهد، ولتحقيق هذا الموضوع انقل كلاما في هذا الصدد أثبتته في كتابي. (سالف المكتبة المغربية) تحت عنوان : أول مكتبة عامة بالمغرب، وهذا نصه :

يقولون ان ابتداء تأسيس المكاتب العامة بالمغرب كان في أواخر العهد الموحدي وإن الذي أسس أول مكتبة عمومية بالمغرب هو أبو الحسن الشاري، المولود والمتوفى 579 ـ 649، فإنه أوقف بسبتة خزانة مدرسته الشهيرة، وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم، كما يقول ذلك محمد بن القاسم السبتي في كتابه اختصار الأخبار.

وانا مع احتفاظنا بهذا النص، نستبعد أن يتأخر تأسيس المكاتب العامة بالمغرب الى هذا العهد الأخير من الدولة الموحدية، من غير أن يكون على الأقل في أولها؛ ومن غير أن يكون لعبد المومن وأبنائه أثر في هذا الميدان، لما علم من اهتمامهم بهذا الشأن، واشتهر من ابتنائهم (بيت الطلبة)، وتأسيسهم الكثير من المدارس بالمغرب وغير المغرب، وكل هذه المؤسسات لاتستغني عن كتب ومكاتب تكون بجانبها مباحة للعموم، فالظاهر أن ابتداء

تأسيس المكاتب العامة بالمغرب كان قبل هذا العهد أوائل العصر الموحدي على الأقل؛ وإنه أسست إذ ذاك مكاتب عامة؛ أهملها التاريخ فيما أهمل، فقاتل الله الاهمال.

هذا ما أثبتته أولا مع بعض حذف يسير، ثم وقع الى قسم كبير من كتاب : (المسالك والممالك) لابن فضل العمري، فاكتشفت به خزانة عامة أسسها يعقوب المنصور بمراكش، قبل أن يؤسس الشاري المكتبة العامة بسبتة.

فبعدما ذكر ابن فضل يعقوب المنصور بنى قصر الخلافة وسط المدينة التي اختطها خارج مراكش خاصة به وبخواصه، بعد هذا قال : وفي رحبة القصر ـ قصر الخلافة ـ دار الكرامة والأضياف، وفي هذه الرحبة المدرسة، وهي مكان جليل به **خزائن الكتب**.

هذا كلام ابن فضل، وكيفما فسرنا عموم هذه الخزائن، وكيفما ذهبنا في فهمه، فإنه يفيدنا أن الخزانة الشارية ليست أول مكتبة عامة بالمغرب، وأنها مسبوقة لاسابقة وبعد هذا فإني لأأقصد أن هذه الخزائن ـ التي أسسها يعقوب ـ هي أول خزانة عامة بالمغرب، وإني أعود فأؤكد انني لازلت استبعد أن يتأخر تأسيس المكاتب العامة با لمغرب؛ ولو إلى هذا العهد من الدولة الموحدية.

المكاتب، أوعية الكتب

لم أقف على صفة أوعية الكتب عند المغاربة حينئذ، وإنما وقفت على وصف موجز لبعض أوعيتها لدى الاندلسيين، وبما أنه لايبعد أن تكون ظروف الخزانة المغربية على غرار أوعية اختها الأندلسية، أثبت هنا أبياتا تصف بإيجاز تلك الأوعية الأندلسية؛ التي يغلب أن تكون مثل شكل الخزانة المغربية، وهذا نص الأبيات : *

ووعاء عود للعلوم صيانة ... حملت ذخائرها قوائم أربع
محفوظة الأشكال مما قد حوت ... فالعلم يحفظ ما حواه ويمنع
خشب كلون التبر يشرق فوقها ... حلي حكى لون اللجين ويسطع

الكتابة على الخزائن

وكانوا يكتبون على بعض الخزائن الجليلة، ويوجد في ديوان السيد أبي الربيع بيتان اثنان؛ أمر بهما أن يكتبا على خزانة كتبهم المباركة.

* من قطعة شعرية للأديب لاشاعر أبي عبد الله محمد المعروف بربيب الحشى الجزيري كان حيا سنة 587. وقد وردت في ترجمته من كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها (خ).

أسمـاء لخزائـن

تأسست على هذا العهد مكاتب عديدة؛ عامة، وملكية، وخاصة ونذكرها على هذا الترتيب فيما يلي :

المكاتب العامة

☐ مكاتب مدرسة المنصور بمراكش

سلف لنا آنفا الحديث عن هذه المكاتب، ولم أقف بعد على شيء زائد على ذلك.

☐ المكتبة الشارية بسبتة، مؤسسها، قيمتها

وهي منسوبة لمؤسسها أبي الحسن علي بن محمد الغافقي السبتي المعروف بالشاري الآنف الذكر، كان شغوفا بجمع الكتب مغرما بتملكها، فكون مكتبة عظيمة، جمعت من الأعلاق النفيسة وأمهات الدواوين شيئا عظيما، ولقد نافس فيها، وغالى في أثمانها، وربما رحل في ذلك حتى حصل منها ما لم يكن عند أحد من أبناء عصره، ولا تحصل عند كثير ممن تقدمه : التكملة 1922. صلة الصلة 300. جذوة الاقتباس 308. ودفع أبا الحسن الشاري شغفه بالعلم وحبه لأهله، أن أوقف خزانته هذه على أهل العلم بالمغرب، وجعل مقرها بالمدرسة المنسوبة إليه، التي ابتناها من ماله بسبتة، (اختصار الأخبار). وقد استمرت هذه المكتبة قائمة الى قريب من عهد سقوط سبتة، أعادها الله الى عز الاسلام، فصاحب اختصار الأخبار الذي فرغ منه سنة 765 أشار الى أنها بقيت موجودة الى زمنه. وابن الخطيب المتوفى سنة 776 ذكرها في مقاماته؛ (معيار الاختبار) وسماها : (خزانة كتب العلوم). وكذا زارها بل مكث بها ثمانية أعوام أبو يعقوب يوسف الأعصاوي المتوفى سنة 802 حسبما ذكر هذا عنه ابن غازي في ذيل فهرسته (خ).

☐ المكتبة الملكية

الخزانة العلمية بمراكش، مؤسسها، قيمتها

كذلك سماها في الديباج 49، ومؤسسها هو يوسف، ولقد كانت عامرة؛ وعامرة جدا، يدل لهذا ما جاء في المعجب 155 لما تكلم على اعتناء يوسف بتعلم الفلسفة قال : إنه أمر بجمع كتبها (الفلسفة) فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي، فتأمل قوله : قريب مما اجتمع للحكم، وتذكر أن الحكم كان مغرما بالفلسفة الى حد بعيد، وأن كتبها كانت تكون قسما كبيرا من مكتبته العظيمة؛ التي كانت تشتمل ـ فيما يقال ـ على 400.000 مجلد كما في النفح (1) 184، ثم لاحظ بعد هذا وذاك أن مكتبة يوسف لابد

أن تكون مشتملة على كتب كثيرة غير كتب الفلسفة... فإذا اعتبرت ذلك كله؛ تعلم ما بلغت إليه هذه المكتبة من العمارة والضخامة.

وينبغي أن لاننسى الجهود الجبارة التي بذلها يوسف في جمع شتات مكتبته حتى من البلدان القاصية، وقد مر بنا شيء من هذا. وكان القيم عليها : هو أبو العباس ابن الصقر الأندلسي كما مر بنا : الديباج 49.

مكـاتـب الأفـراد

☐ مكتبة عبد الرحيم ابن الملجوم بفاس 524 604

وصاحبها هو الراوية، عبد الرحيم بن عيسى الازدي الزهراني المعروف بابن المنجوم الفاسي، كونها من مكتبة والده عيسى الذي كان جماعة للدواوين العتيقة، والدفاتر النفيسة، ومن مكتبة استاذه أبي عبد الله محمد بن أحمد الخزرجي الجياني، ومما أضاف لهذه وتلك؛ حيث صارت مكتبة حافلة بالنفائس والذخائر، التكملة 1674،1930 الجذوة 267، 281،262.

☐ مكتبة عبد الرحيم ابن الملجوم بفاس 535 605

أسسها الشيخ عبد الرحمن بن يوسف ابن الملجوم؛ من قرابة السابق، وجمع لها من الكتب والدواوين شيئا عظيما، حتى صارت أكبر مكتبة بالمغرب لذلك العهد، يقول عنها في التكملة 1652. والجذوة 253 : وكانت له (عبد الرحمن) خزانة دفاتر جليلة الشأن لم يكن لأحد من أهل عصره مثلها، ويقول عنها في الذخيرة السنية 47 : وخزانة كتبه (عبد الرحمن) كانت المشهورة في المغرب، بيعت خرمها بعد وفاته بستة آلاف دينار، وهذه الفقرة الأخيرة من كلام الذخيرة تفسر لنا إجمال ما سلف من أن أحد بني الملجوم بيعت أوراق كتبه التي غير مجلدة بـ 6000 دينار، وتبين أنه هو صاحب هذه المكتبة : عبد الرحمن ابن الملجوم. وكان مصير هذه المكتبة العظيمة أن تصدق بها مؤسسها على ابنة له لم يترك عقبا غيرها؛ حيث تفرقت شذر مذر، التكملة 1652 الجذوة 253.

☐ مكتبة المسوفي بفاس 609

كونها أبو عبد الله محمد بن يحيى بن تاكعت المسوفي؛ والي أعمال فاس آخر عمره، قال في ترجمته ـ من كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها ـ كان معتنيا بالكتب؛ جمع منها ما لم يجمع غيره، وانتفع به شيخنا الأستاذ أبو محمد، فإن كان ينبهه عليها فيعتني بها حتى يحضرها، فينتفع الأستاذ بها أما بنسخ أو بمقابلة.

☐ مكتبة المومناني بفاس 639

من تأسيس الامام الكبير؛ محمد بن عيسى بن معنصر المومناني الفاسي، وكانت عظيمة جدا : بحيث كان فيها من الكتب مالم يكن عند أحد (كتاب بعض فقهاء مالقة وأدبائها (خ).

☐ مكتبة ابن الطراوة بمراكش 659

جامعها هو الامام المؤرخ أبو عبد اللّه محمد بن أحمد السبائي المراكشي، عرف بابن الطراوة، كان مهتما باقتناء الأصول التي بخطوط أكابر الشيوخ. أو عنوا بضبطه، وجمع منها جملة وافرة. شديد المحافظة على كتبه، مثابرا على الاعتناء بتصحيحها، نسابة لخطوط المشايخ، الاعلام (3) 148.

☐ مكتبة ابن الصقر بمراكش 502 569

وهي من إنشاء الحافظ المكثر؛ أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الخزرجي الغرناطي؛ نزيل مراكش يعرف بابن الصقر، وكانت مكتبة عظيمة طافحة بالذخائر والنفائس، يقول عنها في الديباج 49 ـ 50 : إنه اقتنى من الكتب جملة وافرة سوى ما نسخ بخطه الرائق، وكان معه عند توجهه لمراكش خمسة أحمال كتب، وجمع منها بمراكش شيئا عظيما. ولقد نكب فيها بضروب من المحن؛ كالغرق؛ والنهب خلال فتنة كانت وقعت أيام مقامه بغرناطة، وكذلك نهبت كتبه بمراكش حين دخلها عبد المومن، الديباج 49.

☐ مكتبة ابن غلندة بمراكش 581

من جمع الطيب الأديب أبي محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن غلندة الأموي مولاهم السرقسطي؛ مستوطن مراكش، وكان بهذه المكتبة كتب كثيرة، طبقات الأطباء (2) 79.

☐ مكتبة القيسي بمراكش 653

جمعها المحدث الراوية؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي الرندي؛ نزيل مراكش ودفينها، وكان جماعا للكتب وفوائد الشيوخ، نسابة لخطوط العلماء، الاعلام (4) 377.

الذخائر والآثار في هذا العصر

بعد الحديث عن المكتبة المغربية أذكر قلا من كثر من الذخائر والآثار؛ التي كانت شائعة لهذا العهد، محفوظة بالخزائن المغربية وغيرها.

☐ المصحف العثماني

سلف الحديث عنه في غير موضع من هذا الكتاب، ونذكر هنا أن هذا المصحف ـ علي ما يقال ـ أحد المصاحف التي بعث بها عثمان الى الأمصار، كان بمسجد قرطبة من الأندلس؛ ونقله عبد المومن الى مراكش عام 552 حيث بقي عند الموحدين موضوع تجلة واحترام، الي أن صار أواخر أيامهم لخزائن بني عبد الواد ملوك تلمسان، ثم استخلصه منهم أبو الحسن المريني، وكان آخر العهد به أن تلف في البحر سنة 750 عند غرق أسطول أبي الحسن في جادثة تونس الشهيرة، (1)، (النفح) (1) 283

☐ مصحف ابن تومرت

وهو مصحف يقال أنه بخط المهدي تومرت، وقد سلف الحديث عنه، المعجب 166. النفح (1) 288.

☐ مصحف المرتضى

هذا المصحف خطه بيده عمر المرتضى من أواخرهم في عشر مجلدات، وكان يوجد تاما بمكتبة جامع ابن يوسف بمراكش الى عام 1140، حيث استعاره في هذا التاريخ محتسب مراكش، وحوالي سنة 1352 بقي من هذا المصحف أربع مجلدات، ولم يبق منه اليوم

ـ قارن من هنا مع دراسة بعنوان : «مركز المصحف الشريف بالمغرب» مجلة «دعوة الحق» ص 11 ع 3.

ولا مجلد واحد في هذه المكتبة. وقد رأيت بمتحف الرباط بعد مجلدات هذا المصحف. معروضة هناك منوها بها في الجملة (2).

☐ النعال النبوية

ويزعم بعض من تكلم على النعال النبوية الشريفة الموجودة حتى الآن بفاس واحدة منها، إنها كانت عند بني عبد المومن الى انقراض دولتهم؛ إهداها لهم بعض من رام التقرب لهم. انظر النشر المخطوط.

☐ خريطة قبلة مراكش

وهي عبارة عن الشكل الهندسي الذي وضعه المهندس الشهير حسان لاستخراج قبلة مراكش، وقد كانت محفوظة بالخزانة الموحدية.

☐ قراضة الذهب في ذكر لئام العرب

مؤلفه الامام النظار؛ مالك بن وهيب الأندلسي؛ ضمنه لئام العرب في الجاهلية والاسلام، وضم الى ذلك ما يتعلق به من الآداب؛ فجاء الكتاب لانظير له في فنه، وقد رآه عبد الواحد المراكشي في خزانة بني عبد المومن. المعجب 119

☐ دراهم قديمة

قص خبر هذه الدراهم ابن القطان في مقالته. وذكر أنها وجدت في كنز ورفعت للناصر الموحدي، وأعطى منها لوالد ابن القطان قطعة. وهي فضية مستديرة الشكل، مكتوب عليها أمر بضرب هذه الدراهم أمير المومنين عبد الملك بن مروان. (الدوحة المشتبكة).

☐ مد أبي محمد صالح

كان هذا المد عند أبي محمد صالح الدكالي، وقد كيل بمد زيد بن ثابت (ض) بسند صحيح مكتوب عنده شاهده عنده وعايره الامام الرجراجي الفقيه الشهير. (شرح الحطاب على المختصر (2) 366.

☐ عباءة عبد المومن

وهي عباءة حرب سوداء من مخلفات ومن كانت من مدخرات خلفاء الموحدين الآخرين. وكانوا يرتدونها في الحروب أخذا من تاريخ الأندلس (2) 118.

2) تتمة هذا الموضوع في دراسة بعنوان تاريخ **تاريخ المصحف الشريف بالمغرب** مجلة معهد المخطوطات، القاهرة ماية 1969.

إحياء علوم الدين في منظور الغرب الاسلامي أيام المرابطين والموحدين

مدخل

روى عن أبي حامد الغزالي أن ليقه مجموعة من الراحلين من الغرب الاسلامي إلى المشرق الاسلامي، ومن نماذجهم :

1 ـ عباد بن سرحان بن مسلم المعافري الشاطبي نزيل طنجة وفاس، قال إبن بشكوال (1) «توفي بالعدوة ي نحو سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة» «48 ـ 1149».

2 ـ أبو بكر بن العربي (2) : محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الاشبيلي تـ 1148/543.

1) «الصلة» نشر العطار 1374]1955 : رقم 973. وترجمته ـ أيضا ـ عند الضبي في «البغية» ط. مدريد 1884 رقم 1199.

وهو من أشياخ أبي بكر بن خير، فيروي عنه ستة من مؤلفاته : خمسة منها ص 253، وفهرسته ص : 436، حسب «فهرسته إبن خير» الطبعة الثانية 1382 / 1963.

ومن مروياته عن عباد بن سرحان «كتاب الفصول الجامعة، فيما يجب على آل الذمة من أحكام الملة» عن مؤلفه أبي بكر أحمد بن على بدران الحلواني : المصدر ص 259.

وهذ الرواية تكشف ابهاما وقع ـــ في إسم ابن سرحان ـــ عند الونشريسي، فقد ساق جوابا له معبرا عنه ببعض أصحاب أبي بكر إبن العربي، وضمن الجواب يرى التصريح بروايته لكتاب الفصول الجامعة عن مؤلفة الحلواني، مع التأكيد بانفراده ـــ بين المغاربة والأندلسيين ـــ بروايته عن مؤلفه، وهو نفس السند عند ابن خير في روايته للفصول الجامعة عن إبن سرحان عن مؤلفه، وهو نفس السند عند ابن خير في روايته للفصول الجامعة ان إبي سرحان عن مؤلفه، مع «فهرسة بن خير» ص 259.

ومن مؤلفات ابن سرحان بالخزانة المغربية «تأليف صغير في الأذان وما يتعلق به» خ.ع.د. 1588 ضمن مجموع.

2) ترجمته وبعض مصادرها ومراجعتها عند عياض في «الغنية» أصلا وتعليقا، دار المغرب الاسلامي ـــ بيروت : رقم 10.

ومن جهته وسابقه عباد بن سرحان يسند إبن خير روايته لمؤلفات الغزالي (3) ومن طريق ابن العربي يروي مرتضى الزبيدي إحياء علوم الدين (4).

3 ــ ومن الذين كان لهم لقاء مع الغزالي ابن حنين : علي بن أحمد بن أبي بكر الكتامي الطليطلي ثم القرطبي، نزيل فاس سنة 503 أو نحوها، ت 569/«73 ــ 1174»، لقيه بمكة المكرمة (5).

4 ــ ابن حرزهم : صالح بن محمد بن عبد الله الأموي العثماني الفاسي تاريخ وفاته غير مذكور، لقيه في بيت المقدس (6).

5 ــ يضاف للأخذين عن الغزالي اسم خامس : سعد الخير بن محمد بن سهل الأنصاري البلنسي : ت 1156/541، فيذكر ابن عبد الملك أنه تفقه على الغزالي، حسب الذيل والتكملة : السفر الرابع رقم 43.

ولا يبعد أن يكون ابن العربي من أول الجالبين لكتاب الأحياء عند عودته من الرحلة الشرقية عام 495/ «01 ــ 1102» (7).

وهناك مغربي من مدينة مراكش حج عام 1004/497، وصار يتوفر على نسخة من نفس الكتاب، وهو ميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتوني (8) على أن نسخا منه كانت ــ بالمنطقة معروضة للبيع واشتريت ــ قبل تاريخ إحراقه عام 1109/503 (9).

واقع إحياء علوم الدين أيام المرابطين :

ومن هنا نتبين أن الفترة ما بين وصول الكتاب وإحراقه امتدت نحو ثمان سنوات، وكانت كافية لتداوله بين المهتمين، غير أن رؤيتهم لمحتواه تباينت، ومع مر الزمن تطور الخلاف حول إحياء علوم الدين إلى ثلاث اتجاهات خلال العصر المرابطي.

3) «فهرسة إبن خير» ص 446.

4) «اتحاف السادة المتقين» المطبعة الميمنية بمصر 1311 هـ : 1%47.

5) ابن الأبار في التكملة 6. مدريد 1886 رقم 1865 إبن القاضي في «جذوة الاقتباس» دار المنصور بالرباط 1974 : رقم 539، والذي حدد مكان اللقاء في مكة هو أن عبد الكريم في «المستفاد» قطعة من مخطوطة خاصة في فكيك.

6) إبن الزيات في « التشوف» مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء 1984/1404 رقم 8. «وجذوة الاقتباس» رقم 377.

7) سنة 495 : حددها تاريخا لعودته الى المغرب في كتابه «العواصم من القواصم» الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر : الجزء الثاني من كتاب «أراء أبي بكر العربي الكلامية» تأليف الدكتور عمار طالبي : ص ــ 290.

8) أشار ابن القطان الى نسخة ميمون الصنهاجي، ونسخة أبي بكر ابن العربي حسب «نظم الجمان» قطعة من السفر (13) : المطبعة المهدية بتطوان دون تاريخ : ص 15 وترجمة ميمون الصنهاجي عند إبن الأبار في «التكملة» رقم 1337 وابن عبد الملك في «الذيل والتكملة» السفر الثامن مطبعة المعارف ــ الرباط رقم 186، ومن المصدرين ــ معا ــ يؤخذ تاريخ حجته.

9) في «نظم الجمان» ص : 16 : «وتوالي الاحراق ــ على ماالشيء منه (الاحياء) ــ ببلاد المغرب بقية ذلك العام».

وكان الانجاه الرسمي ياتي في الطليعة، ويمثله عدد من فقهاء الأندلس والمغرب، يتقدمهم قاضي قرطبة محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي، تـ 1114/508 (10)، وهو الذي تزعم الطعن على الغزالي والفتوى بإحراق الاحياء (11)، وذلك ما يشرحه ابن القطان (12) في هذه الفقرة :

«في أول عام ثلاثة وخمسامئة (1109) عزم علي بن يوسف عن إجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وفقهائها : على إحراق كتاب أبي حامد الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ المسمى بالاحياء، فأحرق في رحبة مسجدها على الباب الغربي على هيئته بجلوده بعد إشباعه زيتا، وحضر لذلك جماعة من اعيان الناس، ونفذت كتبه إلى جميع بلاده آمرا باحراقه حيثما وجد، وأخذت منه نسخ من أيدي اصحابها كان معول الغزالية عليها، منها كتاب ميمون بن ياسين، توعده علي بن يوسف على إحضاره فأحضره له، وفقد الكتاب المذكور، ومنها كتاب إبن العربي : حمله مع نفسه إلى الجزيرة الخضراء، ثم أمر بحله في الماء، فحل معظمه وفقد سائره، وتوالى الاحراق ـ على ما اشتري منه ـ ببلاد المغرب بقية ذلك العام».

هذه فقرة إبن القطان، وهي واضحة في أن عملية الاحراق كانت تتجه إلى إحياء علوم، وفي تعبير يوسف إبن طملوس (13) تعميم لكتب الغزالي دون تخصيص :

«... فأحرقت كتب الغزالي... وخاطب الأمير ـ إذ ذاك ـ جميع أهل مملكته يامرهم بحرقها، ويعلمهم أنه هو الذي أدى مملكته يامرهم بحرقها، ويعلمهم أنه هو الذي أدى إليه نظر العلماء، وقرئت مخاطبته على المنابر، وشنع الأمر بذلك تشنيعا عظيما، وامتحن من كان عنده منها كتاب، وخاف كل إنسان على نفسه أن يرمى بأنه قرأ منها كتابا أو اقتناه، وكان من الوعيد مالا مزيد عليه».

ونفس التعميم عند المراكشي : (14).

10) ترجمته وبعض مصادرها ومراجعها عند عياض في «الغنية» أصلا وتعليقا : رقم2

11) يقول ابن عطية عن ابن حمدين : «قرأت عليه رسالته في الرد على أبي حامد... الغزالي»، «فهرس ابن عطية»، دار الغرب الاسلامي ـ بيروت 1980/1400 : ص 85

وفي تعبير عياض : «قرأت عليه بعض رسائله وردوده على الغزالي، وسمعت بعضها، «الغنية» ص 46.

وعند الصفدي «وأول ما دخل (الاحياء) الى الغرب أنكروا فيه أشياء، وصنفوا عليه «الاملاء في الرد على الاحياء» «الوافي بالوفيات»، دار النشر، طهران إيران 1961/1381 : 275/1، فهل هذا الرد من تأليف ابن حمدين ؟

وهذه الردود غير معروفة الان، بعد ما كان الذهبي وقف على بعضها واقتبس منها في «سير النبلاء»، حسب عبد الرحمان بدوي : «مؤلفات الغزالي»، الطبعة الثانية 1977، وكالة المطبوعات ـ الكويت : ص 534 ـ 535

12) ص 15 ـ 16.

13) «كتاب المدخل لصناعة المنطق» : المطبعة الأفريقية ـ مدريد 1916 : ص 12.

14) المعجب، مطبعة الثقافة ـ سلا 1938/1357 : ص 104.

«... ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ المغرب : أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدم بالوعيد الشديد ـ من سفك الدماء واستئصال المال ـ الى من وجد عنده شيء منها، واشتد الأمر في ذلك».

ومرة ثالثة يأتي التعميم في رسالة من تاشفين بن علي عام 1143/538 :

«ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة، وخاصة، ـ وفقكم الله ـ كتب أبي حامد الغزالي : فليتتبع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها، ويبحث عليها، وتغلظ الايمان على من يتهم بكتمانها» (15).

وفي موازاة هذه الادانة لمع موقف المدافعين عن «إحياء علوم الدين»، والمناهضين لاحراقه، ويبدو أنهم كانوا جماعة متميزة في العصر المرابطي، وقد رأينا ابن القطان ـ وشيكا ـ يسمهم بلقب الغزالية»، والمعروف ـ الان ـ من هؤلاء ينيفون على ستة سماء :

ويأتي في مقدمتهم مؤلف لم يذكر اسمه، وورد التنديد به عند ابن حميدين (16) كإحدى الحيثيات لفتواه ضد «الاحياء» فيشير الى فقيه أندلسي اعتنق اتجاه الغزالي، وألف كراسة في الانتصار لاحياء علوم الدين».

ثم أبو الحسين البرجي : علي بن محمد بن عبد الله الجدامي (17) المري، تـ 509/«15 ـ 1116»، قال عنه ابن الأبار : «وهو الذي أوجب في كتب أبي حامد الغزالي حين أحرقها أبو عبد الله بن حمدين... تأديب محرقها، وتضمينه قيمتها، لأنها مال مسلم، وقيل له : أتكتب بما قلته خط يدك، قال سبحان الله : كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون، ثم كتب السؤال في النازلة وكتب فتياه بعقبه، ودفع الى أبي بكر عمر بن أحمد بن الفصيح، وأبي القاسم بن ورد، وغيرهما من فقهاء المرية ومشايخها، فكتب كل واحد منهم بخطه : وبه يقول فلان، مسلمين لعلمه وزهده، فغاظ ابن حمدين ذلك لما بلغه، وكسر منه، وكتب الى قاضي المرية... بعزله عن خطة إن كانت بيده، فأخبر بزهادته وانقباضه عن أهل الدنيا...

وفي فاس كان يسكنها ـ أيام هذه الأزمة ـ أبو الفضل ابن النحوي : يوسف بن محمد بن يوسف التوزري الأصل، القلعي القيرواني، تـ 513/«1119»، فوصل الى هذه

15) حسين مؤنس : «نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين»، مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد»، العدد الثالث 1955/1374 ص 113.

16) في الفقرة التي اقتبسها منه الذهبي، حسب عبد الرحمان بدوي ص 534.

17) «المعجم في أصحاب القاضي الامام أبي علي الصدفي»، مطبعة روخس مدريد 1885 : رقم 253.

واختصر القصة ابن الأبار في «التكملة رقم 1841 ثم ابن عبد الملك في «الذيل والتكملة» : السفر 5 مطابع سميا بيروت 1965 : رقم 604.

المدينة كتاب علي بن يوسف بالتحريج على كتاب «الأحياء»، وتحليف الناس بالايمان المغلظة أن ليس عندهم، فانتصر أبو الفضل لأبي حامد، وكتب إلى أمير المسلمين في ذلك، وأفتى بأن تلك الايمان لاتلزم، وانتسخ كتاب الاحياء في ثلاثين جزءا، يقرأ كل جزء منه في يوم من رمضان، وقال ورددت أني لم أنظر في عمري سواه (18).

وفي تعبير أبي الحسن علي بن حرزهم : «... لما وقع هذا ذهبت الى أبي الفضل أستفتيه في تلك الايمان، فأفتاني بأنها لاتلزم، وكانت في محمله أسفار فقال لي هي من الاحياء، وودت أني لاأنظر في عمري سواها» (19).

والى هذا كتب أبو الفضل ابن النحوي فتوى يدافع فيها عن الاحياء أجاب بها فقهاء تلمسان (20).

ـ وفي ناحية مراكش نشير الى أبي محمد عبد الله الرجراجي الهليجي ثم الأغماتي الأوريكي، تـ قبل 540/«45 ـ 1146»، يذكر عنه ابن الزيات (21) : «لما أفتى الفقهاء بمراكش بإحراق كتب الاحياء للغزالي، فأحرق بصحن جامع السلطان : سأل أبو محمد عن الذين أفتوا بإحراقه، فكان كلما سمي له واحد منهم دعا عليه...».

□ □ □

وبين هذا الاتجاه وسابقه موقف ثالث يحدد المواضع المنتقدة من الاحياء، دون التورط في الموافقة على إحراقه.

وأول أصحاب هذا الاتجاه هو الطرطوشي : محمد بن الوليد بن محمد الفهري نزيل الاسكندرية، تـ 520/ «1126». ألف في معارضة الاحياء كتأبا مطولا أشار له الضبي دون أن يذكر اسمه : «وله كتاب كبير يعارض به كتاب الاحياء، رأيت منه قطعة يسيرة»، غير أن جمال الدين السيال (23) ينفي أن يكون للطرطوشي تأليف في هذا الاتجاه.

18) «التشوف» : رقم 9.
أحمد النقاوسي : الأنوار المنبلجة، من أسرار المنفرجة» مخطوطة خاصة : عند المقدمة. «جذوة الاقتباس» رقم 643.
19) «التشوف» رقم 9.
«جذوة الاقتباس» رقم 643.
20) «مؤلفات الغزالي» ص 113.
21) «التشوف» الترجمة رقم 33.
23) أبو بكر الطرطوشي»، أعلام العرب 74، دار الكاتب العربي ـــ القاهرة 1968 : ص 80.

ولحسن الحظ ظهر السفر الأول من كتاب الطرطوشي هذا، أثناء العمل في خزانة خاصة بمدينة مراكش عام 1983/1403، وتبين أن عنوانه هو «الأسرار والعبر» على بتر بآخر هذا السفر، حيث يشتمل على 177 ورقة، وفي مقياس 129/185 مم، مسطرة مختلفة، خط مشرقي نسخي واضح عتيق.

وللتعريف بكتاب «الأسرار والعبر»، نذيل على هذا العرض بملحق يشتمل على أهم فقرات المدخل الذي يحدد فيه المؤلف أغراض الكتاب.

وللطرطوشي رسالة صغيرة في نقد الاحياء بعث بها الى من سماه بعبد الله بن مظفر، وهي منشورة (24).

الثاني المازري : محمد بن علي بن عمر التميمي المهدوي، تـ 536/«1141». ألف في الاتجاه ذاته «كتاب الكشف والانباء عن كتاب الاحياء»، ولا تعرف نسبته له إلا من خلال إشارة المقري (25).

كما أن كلا من الذهبي (26) والسبكي (27) أثبت ملخصا لجواب المازري لمن سأله عن واقع كتاب أبي حامد.

الثالث ابن الالبيري : محمد بن خلف بن موسى الأنصاري الأوسي نزيل قرطبة، تـ 537/«1143»، ذكر له ابن الأبار (28) كتاب «الأمالي في النقض على الغزالي».

الرابع : أبو بكر ابن العربي سابق الذكر، فيقول (29) عن نقده للاحياء ومؤلفات أخرى للغزالي : «يعلم الله وتشهد لي كتبي ومسائلي وكلامي مع الفرق : بأني جد بصير

24) نشرها وعلق عليها الدكتور التونسي سعد غراب، بعد تصديرها بتقديم جيد بعنوان «حول احراق المرابطين لاحياء الغزالي» : فصلة ص 158 — 163، ووردت — أيضا — عند الونشريسي في «المعيار» 186/12 — 187.

25) «أزهار الرياض» مطبعة فضالة المحمدية 1980/1400 : 166/3، ويلاحظ عن هذه النسبة أن المقري إنفراد بها، على تأخره عن عصر المازري، والذهبي الذي ذكر «الكشف والانباء» نسبه للمازري دون تحديد إسمه، («مؤلفات الغزالي» ص 533)، وبعد ذلك ذكر جواب المازري محددا اسمه بمحمد بن علي الصقلي المازري، المصدر ص (540 — 541)، فهل يشير هذا التردد الذهبي في نسبة «الكشف والانباء» بين المازري المهدوي والمازري الذكي : محمد الفرج أو أبي الفرج، على أن هذا الأخير خلت ترجمته من الاشارة الى تأليف في الرد على الاحياء وإنما ذكر طعنه في الغزالي حسب ترجمته بالمصادر التالية :

«إنباء الرواة» للقفطي، مطبعة دار الكتب المصرية 1955/1374 : 73/3 — 74

«الوافي بالوفيات» للصفدي : 320/4 — 321.

«ومعالم الايمان» للدباغي وإبن ناجي، مطبعة الشركة التونسية 1978 : 202/3 — 203.

«بغية الوعاة للسيوطي»، مطبعة السعادة بمصر 1326 هـ : ص 90.

26) «مؤلفات الغزالي» ص 540 — 541.

27) «طبقات الشافعية الكبرى» المطبعة الحسنية المصرية بالقاهرة 1324 هـ 122/4 — 123.

28) «التكملة» رقم 607.

29) «قانون التأويل».

بأغراض القوم ومقاصدهم، فإن معلمي كان فحلا من فحولهم عظيما من عظمائهم، وتالله كنت محتشما له، غير راض عنه، **وقد رددت عليه فيما أمكن**، واحتشمت جانبه فيما تيسر». وبين كتبه التي ناقش فيها الغزالي : «العواصم من القواصم» و«سراج المريدين»...

الخامس : عياش بن موسى بن عياش اليحصبي السبتي، تـ 544/«1149». ينقل عنه الذهبي فقرة من كتابه : «معجم أبي علي الصدفي»، وورد فيها : «والشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعة، والتصانيف العظيمة، غلا في طريقة التصوف، وتجرد لنصر مذهبهم، وصار داعية في ذلك، وألف فيه تآليف مشهورة، **أخذ عليه فيها مواضيع**...» (30).

إحياء علوم الدين أيام الموحدين

وإلى هنا ينتهي عرض ملامح من واقع «الاحياء» أيام المرابطين، حتى إذا جاء عصر الموحدين تنفرج الأزمة، ويزول التحجير على كتب الغزالي وبينها «إحياء علوم الدين»، وهي المبادرة التي يشيد بها يوسف ابن طملوس (31) في هذه الفقرة :

«... ثم لم تكن تمتد الأيام إلا قليلا وجاء الله بالامام المهدي رضي الله عنه، فبان به للناس ما كانوا قد تحيروا فيه، وندب الناس الى قراءة كتب الغزالي رحمه الله، وعرف من مذهبه أنه يوافقه، فأخذ الناس في قراءتها، وأعجبوا بها وبما رأوا فيها من جودة النظام، والترتيب الذي لم يروا مثله قط في تأليف، ولم يبق في هذه الجهات من لم يغلب عليه حب كتب الغزالي، إلا من غلب عليه إفراط الجمود من غلاة المقلدين، فصار قراءتها شرعا ودينا، بعد أن كان كفرا وزندقة».

1 ـ وفي ظل هذا الانفتاح عن الغزالي عكف على الاشتغال بالاحياء زمرة من المهتمين، فكان من يسمى بعمور البطاط يعقد حلقة لتدريسه، ويتكلم عليه بكلام القوم، حسب تعبير المصدر المعني (32).

2 ـ ونفس العمل يقوم به ابن الرمامة : محمد بن علي بن جعفر القيسي القلعي قاضي فاس، تـ 567/«1172»، فيضطلع بتدريسه بأحد مساجد فاس (33).

3 ـ ومن تونس محمد بن محيو الهواري، وقد اعتكف على كتاب الغزالي حتى حفظه (34).

30) «مؤلفات الغزالي» ص 531.

31) «كتاب المدخل لصناعة المنطق» ص 12.

32) قطعة من «المستفاد» لابن عبد الكريم، مخطوطة في خزانة خاصة، بفكيك.

33) «المصدر» وترجمته عند إبن الأبار في «التكملة» رقم 1054 وابن عبد الملك في «الذيل والتكملة» : السفر 8 رقم 123.

34) «التشوفة» رقم 56.

4 ــ ومن أغمات محمد بن اسماعيل الهواري تـ 581 «1185» فيدرس منه موضوعات الأذكار وما إليها، ويستعملها في تحنثه (35).

5 ــ وكان يعاصره أبو مدين : شعيب بن الحسين الأندلسي دفين قرية العباد غرب تلمسان سنة 1198/594، وكان ملازما لقراءة كتاب الأحياء عاكفا عليه (36).
وفي اتجاه خدمة الاحياء بالتأليف كان ابن الرمامة سابق الذكر صنف مختصرا له (37).

6 ــ وألف أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي كتابا في علم التذكير، سماه «التفكير فيما تشتمل عليه السور والآيات، من المبادىء والغايات». قال الغبريني (38) : «وهو كتاب جليل، سلك فيه مسلك أبي حامد في كتاب الاحياء، وبه سمي أبا حامد الصغير».

7 ــ وفضلا عن هؤلاء نشير للعاهل الموحدي عبد المومن بن علي، فيبدو أنه قرأ إحياء علوم الدين قراءة معمقة، فأفاد منه في الأنظمة التي سار عليها في تربية تلاميذ الموحدين، فيضيف الى مواد الدراسة تدريبهم على الحركات الرياضية، فيأخذهم يوما بتعلم الركوب، ويوما بالرمي بالقوس، ويوما بالعوم في بحيرة مراكش، ويوما يتدربون في البحيرة ذاتها على ركوب القوارب وما إليها (39).

ومن الواضح أن هذه الأعمال ترتبط ــ في مبدئها ــ بتوصية الغزالي (40) التربوية : «ويعود (الصبي) في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لايغلب عليه الكسل...». ومرة أخرى يتأثر به منهاج عبد المومن في فرج الأدب بالعطاء، تجاوبا مع المصدر ذاته (41) لما يقترح : «ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه، ويجازي عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس...».
ومن الناسخين لاحياء علوم الدين محمد بن محيو الهواري التونسي (42).

35) «المصدر» رقم 118.
36) إبن صعد في «النجم الثاقب» مخطوط خ.س 2491، ونقله المقري في «نفح الطيب» دار صادر ــ بيروت 137/1968/1388.
37) «صلة الصلة» لابن الزبير : القطعة المخطوطة بدار الكتب المصرية رقم 850 تاريخ : قسم الخزانة التيمورية.
38) «عنوان الدراية» ط. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1970/1389 : ص 67.
39) «الحلل الموشية» تونس ص 114.
40) «احياء علوم الدين» المطبعة العثمانية المصرية 1933/1352 : 63/3.
41) «المصدر» 63/3.
42) «التشوف» رقم 56.

ومحمد بن اسماعيل الهواري الأغماتي (43)، وقد تقدم ذكره وسابقه بين الذين كان لهم اهتمام بكتاب أبي حامد.

8 ـ ابن الصقر : محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري الغرناطي، قال ابن الأبار (44) : «وكتب علما كثيرا منه «إحياء علوم الدين».

9 ـ أم العلاء : سيدة بنت عبد الغني بن علي العبدري الغرناطي، تـ 647/«1249»، دخلت لفاس وتونس، ونسخت «إحياء علوم الدين» من الأصل الذي ورد به أبو زكرياء الدمشقي المعروف بالأصبهاني (45).

ونستنتج من هذه النماذج التسعة أن الاهتمام بكتاب الاحياء ـ في الغرب الاسلامي ـ ظهر أغلبه بين أوساط رجال التصوف، ويضاف لهذه الظاهرة شهادات تقديرية للكتاب من نفس الجهة : وصدر أولها عن أبي مدين سابق الذكر، فيقول : «طالعت كتب التذكير فما رأيت مثل كتاب الاحياء» (46).

10 ـ وفي تعبير ابن الزيات (47) عند مقدمة «التشوف» : «وجردت هذا الكتاب من علوم التصوف، واقتصرت على إيراد أخبار الرجال، فإن إحياء علوم الدين... هو المنتهى في ذلك».

11 ـ وفي ارتسامة أبي الحسن الشاذلي : «كتاب قوت القلوب يورثك النور، وكتاب إحياء علوم الدين يورثك العلم» (48).

وستأتي شهادة الشاذلي هي الحادية عشرة من شواهد اهتمام المنطقة بإحياء علوم الدين، وفي مواجهة هذا التقدير نتذكر فقرة ابن طملوس الواردة صدر هذا العرض الموحدي، وفيها تنديد بفئة المناهضين ـ في العصر ذاته ـ لكتب الغزالي، وفيما يتصل «بالاحياء» لم نقف ـ الآن ـ إلا على نقد صدر عن سليمان الأندلسي نزيل بجاية، والمعروف بكثير، فكان يقول عن كتاب الاحياء : «ومتى ماتت العلوم حتى تحيى علوم الدين، وما زالت حية ولا تزال» (49).

43) «المصدر» رقم 118.
44) «التكملة» رقم 874.
45) «المصدر» رقم 2129.
«الذيل والتكملة» السفر 8 رقم 261.
46) «عنوان الدراية» ص 56، وعند إبن الزيات : «نظرت في كتب التصوف فما رأيت مثل الاحياء للغزالي»، «التشوف» ص 214.
47) «المصدر» الاخير ص 36.
48) إبن عطاء الله في «لطائف المنن»
49) «عنوان الدراية» ص 239.

وموقف ثان صدر عن أبي محمد الفشتالي، وتناول كتب الغزالي دون تحديد، فينقل عنه القباب : «كتب الغزالي يجب أن تقبل حيث يتكلم في المسائل الفقهية، فهو فيها إمام متفق على تقديمه، وما وراء ذلك من غوامض العلوم المتعلق بالعالم الغائب ينبغي للضعيف أن يعزل سمعه عنها...» (50).

ملحق

يشتمل على أهم فقرات المدخل لكتاب «الأسرار والعبر»

على جمعه أنني كنت في الأرض المقدسة في المسجد الأقصى... فعند اختتام المجلس قبض على يدي شيخ دهري قد سقطت حاجباه من الكبر، وقال لي : يا بني إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يأمرنا أن نلقاه بمذهب مالك والنووي وأبو حنيفة والشافعي، وإنما أمرنا أن نلقاه بالتقوى فقال : «ولقد وصينا الذين أوتو الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله» فبالله أقسم قسما حقا لقد ضعضع جثماني... فشرعت في تصنيف كتاب في التقوى وحقيقته وأقسامه، وهل هو من أعمال القلوب أو من أعمال الجوارح أو كليهما.

فصل : واعلم أنه قد صنف المصنفون في هذه الأبواب كتبا تفوت الحصر، فالدواوين الكبار الجليلة، منها مثل كتاب «حلية الأولياء» لأبي نعيم الاصبهاني، وكتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وكتاب «دليل القاصدين» لأبي بكر بن السمنطاري المغربي، وكتاب «اللوليات» لمكحول، وكتاب «النصائح الكبير» لأبي إسحاق المغربي، وكتاب «الرعاية» للمحاسبي، وكتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي الطوسي، وهو أكثرها علما، وأقواها حجة، إلا أنا كرهنا منه خلالا خمسة.

احداها : أن فيه (51) من الرسول عليه السلام، ولعمري ما يقصد (52) مع ألف ديوان بكذبة واحدة على رسول الله عليه السلام، إلا أن الرجل لم يتعمد منها كلمة إن شاء الله،

50) نقلة الونشريسي في «المعيار» دار الغرب الاسلامي بيروت 1401/1981 : 11/121. وأبو محمد الفشتالي : هو عبد الله بن موسى بن مالك، كان بقيد الحياة أواسط ق 13/7، ويقول عنه ابن الاحمر : «كان فقيها مفتيا مدرسا بفاس، صالحا ورعا زاهدا مكاشفا، وكان من الدين والصلاح في المحل الذي لايخفى، ومكاشفاته وعلو منزلته أكثر من أن تحصى». حسب تعبير «نثير جمان» ط. مؤسسة الرسالة. بيروت 1396/1976 : ص 358 ـــ 359.

وللمنوه به موقف متشدد أكثر إزاء كتب الغزالي، حيث نقل ذلك كل من ابن القاضي والتنبكتي عن «كتاب الحلال والحرام» للأمام راشد الوليدي، حسب «جذوة الاقتباس» ص 196 ـــ 197 و«نيل الابتهاج» المنشور بهامش الديباج، مطبعة المعاهد بمصر 1351 هـ : ص 117.

51) غير واضح القراءة

52) غير واضح القراءة

وإنما نقل من كتب لامعرفة له بها، وقد اعتذر الرجل على ذلك فقال : بضاعتي في الحديث مزجاة.

واعلم أن من رأى حديثا في كتاب لايعرف صحته : لايجوز له أن يقول : قال رسول الله عليه السلام، وهذه مسألة قد أوضحتها في أصول الفقه، وبينت فيه اختلاف العلماء في كيفية رواية الحديث وإيراده...

والخصلة الثانية : أنه لما نوع العلوم اعترضه علم التوحيد، فجعل ينقل فيه كلمات عن رجال من العلماء من أهل القرن الثالث : مثل مالك والشافعي وأحمد، وأن فلانا ذمه، وفلانا مدحه، وقد جاء فيه بطامة، لأن علم التوحيد ومعرفة الله ـ تعالى ـ هو شرط في سائر علوم الدين، وجميع علوم الدين مبنية عليه، وإنما هي فروع ونتائج لهذا الأصل، والخطأ في أكثرها (53) بل المخطىء فيه ماجور، وهذا العلم فرض على أعيان الأمم، فالعامد والجاهل والمخطىء فيه غير معذورين، فكيف يجوز على ذي لب أن يعمد الى قطب الدين وأساس الاسلام يغض من منصبه، ويحيل فيه على ما قيل وقال...

والخصلة الثالثة : مذاهب شنيعة نقلها من «رسائل إخوان الصفا»، وهم قوم باطنية كفار يتأولون القرآن على غير تأويله، ويحرفون الكلم عن مواضعه.

والخصلة الرابعة : إباحة الغناء والسماع.

والخصلة الخامسة : ما ذكر في كتاب الأطعمة من الحكايات التي لاتليق بالكتب الدينية.

مع أنه ناقص الأبواب عما اشتمل عليه علوم المقاومات والأحوال : مثل كتاب معجزات الأنبياء، وكتاب كرامات الأوليات، وكتاب البكاء.

وكذلك مثل ما ذكر فيه أشياء لاأصل لها عند العلماء : مثل الأوراد المقسطة على ساعات الليل والنهار، واختصاص كل ساعة منها بنوع من الذكر، واختصاص كل يوم بنوع من الصلوات غير ما ذكر في اليوم الاخر وليلته : كل هذا كذب مختلف، وإنما أدخله صاحب القوت، وقد ذكرت في كتاب إحياء الليل فأورد فيه.

فانتخب غرر هذه الدواوين وأنظارها، وجمعت حكمها ومحاسنها، وغصت فيه على أسرار القرآن جواهره، واستخرجت الكثير من دقائقه وعجائبه، ولم آل جهدا في الاعتصام بالقرآن وصحيح السنة والاثار، وإن كان لايجد بدا من ينصف في هذه الأبواب من إدخال الحديث اللين، لأن كثيرا من السلف قد كانوا يستجيزون ذكر الحديث اللين سنده إذا كان خارجا عن الحلال والحرام. متعلقا بالسير والمواعظ.

53) غير واضح القراءة

وأودعت فيه من سير الأنبياء وحكمة الحكماء ونكث العلماء وإشارات الأصفياء وأخلاق الأولياء : مالم يحوه كتاب جامع، وأربيت فيه على من صنف في هذه الأبواب بفوائد عجيبة لم يذكروها. فارتفع الكتاب بذلك عن الكتب الموضوعة في الوعظ المحض، وفارق به الكتب الموضوعة للعلم المحض دون العمل، فاحتوى على العلم والعمل.

فلعمري لو اقتصر عليه المريد... (54) لقرع به باب الجنة، وغلقت دونه أبواب جهنم واستغنى به عما سواه، لأن السعادة منوطة بحرفين : أحدهما أن تعرف الله، والثاني أن تعرف خطابه إليك فتعمل به، وهذه الخلال موثوقة في هذا الكتاب، مسدودة بمسامير التحقيق...

واعلم أنه لايجمع العلماء في هذه الأبواب إلا ما فرقه أبو عبد الله الحرث بن أسد المحاسبي، فله في هذه الفنون نحو من أربعمائة تصنيف.

وأما تجربته فجزيته على أربعة أرباع : الأول ربع المعارف، والثاني : ربع العبادات، والثالث : ربع المعاملات، والرابع : ربع الأحوال والمقامات، ثم اتبعته بالكتاب الجامع، يحتوى على كتب في فنون شتى شذت عن تراجم الأرباع، ومبلغ جميعها مائة كتاب.

معالم ثقافية في مراكش الموحدية *

عرفت مراكش الموحدية منشئات تعليمية ذات أقدمية، غير أنها أغفلتها المصادر التاريخية الموضوعية، بينا حافظت على ملامحها وثائق أو نصوص دفينة.

وهدف هذا التدخل الكشف عن تلك المنشئات من خلال الاشارات الغميسة، والمعني بالأمر ثلاث مدارس، وأربع خزائن، مع القبة المنصورية، وخارجا عن مراكش : المسجد العتيق بتينمل، والروضة المقدسة بتينمل.

أولا : المدارس الموحدية

وكما تبينا فهي ثلاثة : اثنتان منها بالقصبة الموحدية أو المدينة المنشية، وهي التي شادها يعقوب المنصور جنوب مراكش العتيقة، أما الثالثة فكانت بمراكش القديمة.

1. ويعود الفضل في الحفاظ على خبر المدرسة الأولى : الى العمري، فيذكر عند مادة مراكش من مسالك الأبصار (1) : الرحبة الكبرى أمام باب الرياض : الباب الثالث للقصبة، ويعقب قائلا : «وفي هذه الرحبة المدرسة، وهي مكان جليل به خزائن الكتب».

والغالب، أن هذه المؤسسة، هي التي يوضح الوزان الفاسي (2) معالمها وهو يصف قصور مراكش الجديدة، فيأتي ـ خلال ذلك ـ بهذه الارتسامة : «ويوجد ـ أيضا ـ بعيدا من هناك قصر جميل آخر، كان يستعمل مدرسة لأبناء الملك وأبناء أسرته، ترى فيه قاعة مربعة في غاية الحسن، يحيط بها ممر، مع نوافذ رائعة ذات زجاج ملون، وحول القاعة خزانات كثيرة...»

1) محمد المنوني : «ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، مطابع الاطلس ـ الرباط : ص. 302 ـ 303.
2) «وصف افريقيا» : الترجمة العربية، دار الغرب الاسلامي في بيروت، الطبعة الثانية 1983 : 133/1.

2. والى هذه المدرسة الخاصة : كان في قصبة مراكش مدرسة عامة، وكانت أولى إشارة لها، سجلت في فقرة قصيرة يحتفظ بها مخطوط من نفس العصر، وجاءت صياغتها كالتالي : «حبس على المدرسة بقصبة مراكش حرسها الله»، وقد رسمت هذه الوقفية ـ بخط عتيق ـ أول كتاب «الانجاد في أبواب الجهاد...» لابن أصبغ الأزدي، في نسخة كتبت برسم ادريس الواثق آخر الحكام الموحدين، ثم صارت الى مكتبة ابن يوسف، حيث تحفظ بها تحت رقم 216.

ولتأكيد استمرار هذه المدرسة الى أواسط القرن 14/8 : تأتي وقفية العاهل المريني أبي عنان، الكتاب «مشارق الأنوار» للقاضي عياض، وهو في نفس المكتبة رقم 1/284، فيبتدي الباقي من الوثيقة العنانية هكذا : «... الكائنة بالمدرسة التي بجوف (أي شمال) جامع المنصور بمراكش».

وستفيد هذه الفقرة ـ أيضا ـ تحديد موقع المدرسة عند شمال جامع المنصور، بعدما عرفتنا بوجودها الى أواسط القرن 14/8.

على أن الوزان الفاسي، يفيد بقاء المدرسة الى عصره : عند القرن 16/10، ويضيف وصفها (3) كالاتي : «وفي القصبة ـ أيضا ـ مدرسة في غاية الحسن، أو على الأصح مؤسسة معدة للدراسة وسكنى في الطبقة الأرضية كانت تعطى فيها الدروس فيما مختلف الطلبة، تحتوي على ثلاثين حجرة، وقاعة سبق، وكان كل طالب مقبول في هذه المدرسة ينفق عليه، ويكسى مرة في السنة، ويتقاضى الأساتذة مرتبا قدره مائة أو مائتا مثقال، حسب نوع الدروس المطوقين بالقائها، ولم يكن «يقبل في هذه المدرسة إلا من كان يعرف مبادىء العلوم معرفة تامة».

وهكذا يصف الوزان الفاسي، الوضع الدراسي في هذه المؤسسة إبان ازدهارها،ويقدمها كمدرسة عليا، ولا ينخرط فيها إلا الطلبة الحاصلون على درجة تامة في معرفة مبادىء العلوم.

ومن هنا ينتقل المصدر (4) ذاته الى الوصف المادي للمدرسة هكذا : «وهذه البناية مزخرفة بالفسيفساء البديعة، وحيث لاتوجد فسيفساء تغطى الجدران الداخلية بزليج من الطين المشوي اللماع : المقطع على شكل أوراق رقيقة، أو بمواد أخرى بدل الفسيفساء، وذلك على الأخص في قاعة الدروس والممرات المسقوفة.

وفناء المدرسة المكشوف كله مفروش بالزليج اللماع، كالذي يستعمل في اسبانيا، وفي وسط المدرسة فسقية منحوتة من المرمر الأبيض في غاية الجمال، لكنها منخفضة على عادة الأفارقة».

3) «المصادر» 132/13ا.
4) 132/1.

ويختتم الوزان بوصف حاضر المدرسة قائلا : «وكان بالمدرسة قديما ـ حسبما سمعت ـ عدد كثير من الطلبة، لكنهم اليوم لايتجاوزون خمسة طلاب، مع أستاذ جهاه بالفقه فاحش، ليس له سوى معرفة سطحية غامضة بالآداب، وأقل من ذلك بعلوم أخرى».

وعند هذا التعليق : ينتهي وصف مدرسة جامع المنصور بالقصبة، ومنه نستفيد ـ أيضا ـ الشكل المعماري للمدرسة الموحدية، وهي فائدة مهمة، وستسمح لنا بأن نستنتج أن المرينيين لم يبتكروا تصميم مدارسهم، وإنما قلدوا الموحدين مع زيادة إضافية.

3. ونصل ـ الان ـ الى ثالثة المدارس بمراكش الموحدية، وهي التي كانت بالمدينة القديمة، والمصدر الذي حافظ عليها، هو وثيقة مكتوبة على السفر الرابع من كتاب «التمهيد» لابن عبد البر، من مخطوطات مكتبة ابن يوسف رقم 460، حيث تتضمن وقف السفر المشار له من جهة العاهل الموحدي عمر المرتضي، أواسط القرن 13/7، وجاء في الوقفية أن العاهل المنوه به، حبس السفر الرابع من كتاب «التمهيد» على من يقرأ فيه من المسلمين ـ وفرهم الله تعالى ـ بمدرسة العلم بالجامع المرتضي ـ شرفه الله تعالى ـ من حضرة مراكش... ثم تؤرخ الوقفية في غرة شعبان، عام ثمانية وخمسين وستمائة/ (1260).

ونفس الوقفية. أعيدت كتابتها بأول السفر الثامن من كتاب التمهيد، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 927، على خروق في عدد من كلمات الوثيقة.

ومما يؤكد أن هذه المدرسة كانت بمراكش القديمة، وليست هي مدرسة المدينة الجديدة : وجود وثيقة ـ سيأتي الاستناد لها ـ تفسر الجامع المرتضي بجامع السقاية، ومن المعروف أن هذا هو نفس جامع ابن يوسف.

ولا يبعد أن يكون موقع هذه المدرسة، هو مكان مدرسة ابن يوسف الحالية، وقد يكون يعقوب المريني جددها، أو بنى مدرسة على انقاض المدرسة الموحدية.

ونعقب ـ الان ـ بأن مصادر المدارس الثلاث، تتضمن إشارات ـ ولو أنها مقتضبة ـ الى الخزائن الموحدية التي كانت بالمدراس.

4. وأولاها : خزائن الكتب الواردة عند العمري، حيث تبينا ـ سلفا ـ قولته : «وفي هذه الرحبة المدرسة، وهي مكان جليل به خزائن الكتب».

وهذه الخزانة ذكرها ـ أيضا ـ الوزان الفاسي (5)، بعد فقرة المدرسة الملكية سابقة الذكر، وهو يقول عنها : «... وحول القاعة خزانات كثيرة، مصنوعة من الخشب المزخرف بنقوش مذهبة، طليت مختلف أجزائها بطلاء الذهب، وبالازوردي الرفيع».

5) «المصدر» 133/1.

وإذا سايرنا المصدر الأخير، فإن هطه الخزانة كانت تابعة للمدرسة الملكية، فتكون خاصة.

5. وتأتي بعدها وقفية كتابي الانجاد ومشارق الأنوار، حيث أفادنا ذلك ــ وشيكا ــ بوجود مدرسة جامع المنصور، ثم نستفيد ــ الان ــ وجود خزانة هذه المدرسة.

6. وهذا ــ أيضا ــ هو شأن وقف المرتضي لكتاب التمهيد، على مدرسة جامع ابن يوسف.

فيبدو من طبيعة هذه المدرسة ومدرسة جامع المنصور : أن الخزانتين ــ بهما ــ كانتا عامتين، ومما يؤيد هذا العموم : فقرة من تحبيس المرتضي للتمهيد، فيذكر فيها وقفه على من يقرأ فيه من المسلمين. ويضيف : «متى أرادوا القراءة فيه من ليل أو نهار، من غير إخراج له عن المدرسة».

وإلى الان لايعرف مصدر يتحدث عن مآل الخزانتين، أما خزانية المدرسة الملكية، فقد انحدرت الى مصير مذهل خلال القرن 16/10، وذلك ما يسجله الوزان (6) في هذه الارتسامة المؤسفة : «... والقصر الذي كانت فيه خزانة الكتب استعمل جناح منه للدجاج، واخر للحمام، وأصبحت الخزانات التي كانت توضع فيها الكتب اقفاصا لهذه الطيور».

والى هذه الخزائن، كان بمراكش القديمة خزانة عامة من طراز آخر، وهي خزانة المصاحف الشريفة في جامع ابن يوسف، وقد كان عمر المرتضي كتب ــ بخطه ــ ربعة قرآنية من عشرة أجزاء، وحبسها جميعها على جامع ابن يوسف الذي جدده، فيوجد بالجزئين الأول والرابع ــ من الربعة المنوه بها ــ وثيقة يوقفها من جهة، ناسخها على الجامع العتيق المرتضي، ويوضح هنا بأنه هو جامع السقاية، الذي بناه الوافق بحضرة مراكش، على أن يكون استقرار الربعة القرآنية، بالبيت (7) المعين للمصاحف المحبسة قبلها (8) بالقبلة، المتصل بالمحراب، ثم تؤرخ الوثيقة في الثاني من رجب عام ستة وخمسين وستمائة/ (1258) : الجزء الأول من مكتبة ابن يوسف رقم 432، والجزء الرابع من متحف الأوداية بالرباط رقم 470/754.

6) «المصدر» 134/1.

7) في كتاب «مراكش» لديفردون 569/1 ــ 570ــ : «والقاعة الكبرى التي خصصت للكتب بجامع ابن يوسف، بناها مولاي الحسن (1) الذي امر بجمع كل الذخائر الباقية في جوامع المدينة، وهي قاعة كبرى مرتفعة، تقع وراء حائط القبلة من الجانب الشرقي»

فهل بنيت هذه القلعة مكان بيت المصاحف المرتضي ؟

8) الفقرة تشير الى مصاحف شريفة موقوفة بالبيت ــ المنوه ــ قبل ربعة المرتضي

والى هنا تبينا سبع مؤسسات تعليمية ــ منوعة ــ بمراكش الموحدية، ويضاف لها ــ الآن ــ «القبة المنصورية»، وقد كان يعقوب المنصور ــ وهو على فراش الموت ــ أوصى بالطبة (اللقب الذي كان يعرف به العلماء) أن يكون لهم موضع لخاصتهم يشتغلون فيه بالمذاكرة (9).

ونتصور أن هذا الموضع هو الذي بني من بعد وصار يحمل اسم «القبلة المنصورية»، ويمدنا ابن عبد الله باسمها وتحديد موقعها، وجاءت المناسبة عند ترجمة عالم أندلسي نزل بمراكش، وكان بارعا في العدد والهندسة، حسن النظر في الطب صناعة وعلاجا، فيقول عنه في «الذيل والتكملة» : «وانتصب لافادة ما كان له من المعارف «بالقبة المنصورية»، إزاء الجامع الأعظم المنصوري بمراكش، وهي القبة الكائنة بمقربة من الزاوية، الملتقي عليها الخطان الشرقي والشمالي بانحراف يسير منهما، مقابلة القيسارية هناك».

وكان العالم المشار له هو أبو جعفر بن منعم : أحمد بن ابراهيم بن علي العبدري الداني، نزيل مراكش ودفينها عام 626/ (28 ــ 2229).

ويمكن أن هذه القبة هي التي يذكرها ابن عذاري (11) ــ عرضا ــ باسم القبة المعروفة لجلوس العلماء.

ولا يبعد أن تكون هي بيت الطلبة؛ الذي امتحن فيه ابن عات في صحيح مسلم (12).

والآن : نبتعد عن مراكش بمائة ميل وميل واحد، وبالضبط عند المسجد العتيق أو مسجد المهدي بن تومرت بتينمل، فيذكر مؤلف «رحلة الوافد» (13) هذه الفقرة : «... وكان يأتي من عدوة الأندلس ــ من العلماء ــ فقيه وأستاذ لتدريس العلم بمدينة تينمال»، وهي قولة أرسلها هذا المصدر، دون أية إحالة على مستندها.

ولحسن الحظ تؤكد هذه القولة في الجملة، إشارة من ابن عبد الملك (14) عند ترجمة ابن مضاء : «أحمد بن عبد الرحمن بن محمد القرطبي الجياني الأصل، فيذكر عنه أنه لحق

9) ابن عذاري : «البيان المغرب» : الجزء الموحدي ط. تطوان : ص. 208 ــ 209.
10) دار الثقافة ــ بيروت 60/1.
11) «البيان المغرب» ص. 319.
12) الغبريني : «عنوان الدراية»، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر : ص. 230، وتعليقا على بيت الطلبة بمراكش: يبدو أنه كان بين التقاليد التي نقلها الحفصيون الى تونس، فترد ــ عند ابن الطواح ــ هذه الفقرة : «... فرفعها للامام المستنصر، فأمر بادخاله بيت الفقهاء» : حسب «سبك المقال»: مخطوط خ.س. 105/ص. 157.
13) مصورة خ.ع.د. 1607 : لوحة 447 :
14) الذيل والتكملة 218/1 ــ 219.

بجبل تنمل، فاستقر به مدرسا للعلم، ناشرا ما لديه من المعارف، وذلك في عشر الأربعين وخمسمائة، وفي دولة عبد المومن... فأخذ عنه هناك أهل ذلك الموضع وغيرهم».

ونعود — مرة أخرى — الى مؤلف «رحلة الوافد» (15) وهو ينوه بمسجد ابن تومرت : «ومن رأى شغل بنيان مسجده العتيق الذي بتينمال، وأسفار خزانته الموضوعية فيه لتدريس العلوم...

ونختم هذا العرض بالاشارة الى صيغة وقفية على جزء من مصحف اشبيلية في مكتبة ابن يوسف بمراكش رقم 429، فيوجد عليه تحبيس للقراءة على القبر الذي بالروضة المقدسة في تينمال، بتاريخ رمضان 649/(1252).

ويمثل هذا الجزء السادس عشر — تجزئية 20 — من ربعة قرآنية شريفة، وجاء في آخره : «كمل الجزء السادس عشر من المصحف الكريم... وكان كماله بمدينة اشبيلية... في العشر الاخر من شهر ذي القعدة، سنة اثنتين وثلاثين وستمائة».

المصادر والمراجع

ويأتي ترتيبها حسب عصور مؤلفيها، أو حسب تاريخ نشرها في مؤلفات وأبحاث المعاصرين.

I المخطوطات

1) **فهرس القاضي عياش**، مخطوط خاص

2)تعليق ابن رشد الحفيد على الفية ابن سينا في الطب. مخطوط خاص

3) **نظم العقود ورقم الحلل والبرود** اسم ديوان السيد أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المومن الموحدي. مخطوط خاص.

4) **الاكمال والاعلام، في صلة الاعلام، بمجالس الاعلام. من أهل مالقة الكرم** اسم كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها، ابتدأ تأليفه ابن عسكر : محمد بن علي بن خضر الغساني المالقي، وكمله ابن أخته ابن خميس : محمد بن محمد بن علي مخطوط خاص.

5) **روض الأندلس، ونزهة النفس** تأليف صالح بن شريف الرندي : السفر الأول. مخطوط خاص.

6) ولنفس المؤلف **الوافي في نظم القوافي** مخطوط خاص.

7) **رحلة العبدري** محمد بن محمد الحبحي، مخطوطة خ.ع.د 1012.

8) **منهاج الطالب في تعديل الكواكب** لابن البنا. مخطوط خاص.

9) **الدوحة المشتكة في أحكام دار السكة** تأليف علي بن يوسف الحكيم الكوفي المدبوني. مخطوطة خاصة.

10) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** للعمري أحمد بن يحيى بن فضل الله القرسي الدمشقي : قسم الممالك. مخطوط خاص.

11) **شرح روضة الأزهار**، للجادري، تأليف المواسي أحمد بن محمد بن عيسى الفاسي. مخطوط خاص.

12) **مشاهير أعيان فاس في القديم** المنسوب لأبي الوليد ابن الأحمر : اسماعيل بن يوسف بن محمد الأنصاري الغرناطي نزيل فاس، مخطوط العالم الجليل محمد بن أبي بكر التطواني.

13) **ذيل فهرس** ابن غازي : محمد بن أحمد بن محمد العثماني المكناسي نزيل فاس. مخطوط خاص.

14) **الجمان في أخبار الزمان** للحاج الشطيبي محمد بن علي بن محمد الصقلي ثم الأندلسي البرجي، نزيل مدشر تازغدرة من قبيل بني زرول. مخطوط خاص.

15) **شرح مورد الظمئان** تأليف ابن عاشر عبد الواحد بن أحمد بن علي الأنصاري الأندلسي ثم الفاسي. مخطوط خاص.

16) **تغريد العندليب، على غصن الأندلس الرطيب** اسم مختصر نفح الطيب للمقري : تأليف ابن الوكيل الميلوي : يوسف بن محمد القاهري. مخطوط خاص في حوزة البعض.

17) **نشر المثاني** للقادري محمد بن الطيب الفاسي، مخطوط المكتبة الأحمدية بفاس.

18) **الخبر المعرب عن الأمر المغرب، الحال بالأندلس والمغرب،** لأبي رأس المعسكري : محمد بن أحمد بن عبد القادري الجليلي الجزائري. مخطوط خاص.

19) **تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب،** للزياني أبي القاسم بن أحمد بن علي نزيل فاس. مخطوط خاص.

20) **الاشراف على بعض من بفاس من مشاجير الأشراف** لابن الحاج محمد الطالب بن حمدون بن عبد الرحمن السلمي المرداسي الفاسي. مخطوط خاص.

II المطبوعات : التاريخ وما إليه

21) **مجموع أخبار المهدي ابن تومرت،** ط دار كوتنر بباريس 1928.

22) **زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر** جامعه : صفوان بن ادريس بن ابراهيم التجيبي المرسى، بيروت 1939/1358 دون ذكر المطبعة، واختصاره زاد المسافر.

23) **رحلة ابن جبير** محمد بن أحمد الكناني البلنسي، مطبعة السعادة بمصر 1908/1326.

24) **المعجب في تلخيص أخبار المغرب،** للمراكشي عبد الواحد بن علي التميمي، مطبعة السعادة بمصر 1324، واختصاره : المعجب.

25) **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم،** لابن حماد محمد بن علي، مطبعة جول كربونل — الجزائر 1346 هـ.

26) **إخبار العلماء بأخبار الحكماء** للقفطي علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني المصري، مطبعة السعادة بمصر 1326 هـ.

27) **التكملة لكتاب الصلة** لابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي نزيل تونس، مجريط 1886 ـــ 1889 : في سفرين، واختصارها التكملة.

28) **زوائد التكلمة** لنفس المؤلف، مدريد 1915.

29) **التكلمة** لنفس المؤلف : القسم الضائع من مطبعة مجريط، نشر المطبعة الشرقية ـــ الجزائر 1920/1338.

30) **عيون الأنباء في طبقات الأطباء،** لابن أبي أصيبعة أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي الشافي، المطبعة الوهبية بالقاهرة 1882/1299 : في سفرين، واختصارها طبقات الأطباء.

31) **وفياء الأعيان...** لابن خلكان أحمد بن محمد بن ابراهيم اليرمكي الأربلي، مطبعة بولاق بالقاهرة 1399 هـ : في سفرين، واختصارها وفيات الأعيان.

32) **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات الشيخ أبي محمد صالح،** للماجري أحمد بن ابراهيم بن أحمد، المطبعة المصرية 1933/1352، واختصاره المنهج الواضح.

33) **صلة الصلة** لابن الزبير أحمد بن ابراهيم الثقفي العاصمي الجياني ثم العرناطي : القطعة المنشورة في المطبعة الاقتصادية بالرباط 1938، اختصارها صلة.

34) **عنوان الدراية...،** للغريني : أحمد بن محمد بن عبد الله البجائي، المطبعة الثعالبية بالجزائر 1910/1328، واختصارها عنوان.

35) **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية،** مؤلفها غير مذكور، مطبعة جول كربونل ـــ الجزائر 1920/1339. اختصارها الذخيرة السنية.

36) **المختصر في أخبار البشر،** لأبي الفداء : اسماعيل بن علي بن محمود الكردي أمير حماة، دار الطباعة بالقسطنطينية 1286 هـ : في سفرين : اختصاره تاريخ الى العداء.

37) **الأنيس المطرب بروض القرطاس،** لأبن أبي زرع، المطبعة الحجرية الفاسية للقادري. اختصاره قرطاس.

38) **مسالك الأبصار...** سابقة الذكر عند رقم 10 : السفر الأول المنشور في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1924/1342.

39) **خريدة العجائب...،** لابن الوردي : عمر بن مظفر بن عمر الكندي المعري السوري، مطبعة الحلبي بمصر 1341 هـ.

40) **جنى زهرة الأس. في بناء مدينة فاس** لعلي الجزنائي، ط الجزائر 1922. اختصارها زهرة الأس.

41) **رحلة ابن بطوطة** : محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي، نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر 1958/1377.

42) **طبقاء الشافعية الكبرى** للسبكي : عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الدمشقي، المطبعة الحسينية المصرية 1324 هـ : في ستة أجزاء.

43) **الاحاطة في أخبار غرناطة**، للسان الدين ابن الخطيب : محمد بن عبد الله سعيد السلماني الغرناطي، مطبعة الموسوعات بمصر 1319 هـ : جزءان منها، اختصارها الاحاطة.

44) **شرح أرجوزة رقم الحلل في نظم الدول** المتن والشرح كلاهما لنفس المؤلف، المطبعة العمومية بتونس 1317 هـ.

45) **معيار الاختيار، في ذكر المعاهد والديار**، للمؤلف ذاته، مطبعة أحمد يمني بفاس 1325.

46) **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، لأبي عبد الله بن أبي المعلى بن سماك، وطبع منسوبا ـــ غلطا ـــ للسان الدين ابن الخطيب، مطبعة التقدم الاسلامية بتونس 1328 هـ. اختصارها حلل.

47) **الديباج المذهب...**، لابن فرحون : ابراهيم بن علي بن محمد اليعمري المدني، مطبعة المعاهد بمصر 1351 هـ. اختصاره الديباج.

48) **المقدمة** لابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي التونسي، المطبعة البهية بمصر دون تاريخ.

49) **الوفيات** لابن قنفد : أحمد بن حسن بن علي القسنطيني، ط. بمصر دون ذكر المطبعة وتاريخ النشر.

50) **صبح الأعشى...**، للقلقشندي : أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القاهري، المطبعة الأميرية بالقاهرة 1331 ـــ 1913/1338 ـــ 1919 : في 14 سفرا.

51) **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، للأنصاري : محمد بن القاسم السبتي، مطبعة الريف ـــ تطوان 1940/1359، اختصاره : اختصار الأخبار.

52) **بغية الوعاة في طبقاء اللغويين والنحاة**، للسيوطي : عبد الرحمن بن محمد الخضيري القاهري، مطبعة السعادة بمصر 1326 هـ، اختصارها : بغية.

53) **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، لنفس المؤلف، المطبعة الشرفية بمصر 1327 هـ.

54) **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، لابن غازي، سابق الذكر عند رقم 13، المطبعة الحجرية الفاسية، اختصاره الروض الهتون.

55) **جدوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، لابن القاضي : أحمد بن محمد بن محمد الزناتي الفاسي، المطبعة الحجرية الفاسية 1309 هـ، اختصارها جذوة.

56) **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تأليف باب السوداني : أحمد بن أحمد بن أحمد (ثلاثا) الصنهاجي التكروري، منشور بهامش «الديباج المذهب»، في مطبعة المعاهد بمصر 1351 هـ. اختصاره نيل.

57) **نفح الطيب**... للمقري : أحمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني، نزيل فاس ثم دمشق فالقاهرة، المطبعة الأزهرية المصرية 1302 : في أربعة أسفار، اختصاره نفح.

58) **أزهار الرياض**... لنفس المؤلف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1939/1358، صدر منه ثلاثة أسفار.

59) **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مؤلفه حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله التركي، مطبعة العالم بالاستانة 1310 هـ.

60) **شذرات الذهب**...، لابن العماد : عبد الحي بن أحمد بن محمد الدمشقي الحنبلي، نشر مكتبة القدسي بالقاهرة 1350 ــ 1351 هـ : 8 أسفار. اختصارها : شذرات.

61) **بيوتات فاس الصغرى**، للفاسي : عبد الرحمن بن عبد القادر بن علي الفهري، المطبعة الحجرية الفاسية دون تاريخ، ونسبت ــ غلطا ــ لمحمد بي عبد القادر الفاسي أخي المؤلف.

62) **الدر النفيس**... للحبلي : أحمد بن عبد الحي نزيل فاس، المطبعة الحجرية الفاسية 1314 هـ.

63) **نشر المثاني**... للقادري سابق الذكر عند رقم 17، المطبعة الحجرية الفاسية 1310 هـ : فير سفرين.

64) **دائرة المعارف** للمعلم بطرس البستاني.

65) **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، تأليف بيرم الخامس محمد بن مصطفى بن محمد التونسي، المطبعة الاعلامية بالقاهرة 1302 هـ : في خمسة أسفار.

66) **خلاصة تاريخ العرب**، لعلي باشا مبارك المصري، هذب بها ترجمة كتاب سيديو الفرنسي، مطبعة مصطفى محمد بمصر 1309 هـ.

67) **الاستقصا**...، للناصري أحمد بن خالد بن حماد السلوي، المطبعة المصرية 1312 هـ في أربعة أسفار.

68) **تاريخ سوريا**، للمطران يوسف الدبس، المطبعة العمومية ــ بيروت 1893 ــ 1902 : 8 أجزاء.

69) **تاريخ الأداب العربية**، تأليف جرجي زيدان، مطبعة الهلال 1911.
70) **المختصر في تاريخ آداب اللغة العربية** لنفس المؤلف، مطبعة دار الهلال بمصر 1947.
71) **تاريخ التمدن الاسلامي** لنفس المؤلف، مطبعة الهلال 1931 : 5. أجزاء.
72) **الفنون الجميلة قديما وحديثا** (التصوير)، تأليف أحمد يوسف، مطبعة المعاهد بمصر 1922/1341.
73) **دائرة معارف القرن الرابع عشر هـ**... لمحمد فريد وجدي، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر 1925/1343 : عشر أسفار.
74) **مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح** لبوجندار : محمد بن مصطفى الرباطي، مطبعة الجريدة الرسمية بالرباط 1345 هـ. اختصارها مقدمة الفتح.
75) **سلوة الأنفاس**...، للكتاني محمد بن جعفر الحسني الفاسي، المطبعة الحجرية الفاسية 1316 هـ : ثلاثة أسفار. اختصارها سلوة.
76) **الفكر السامي**...، للحجوي محمد بن الحسن الفاسي، ابتدىء طبع الجزء الأول في مطبعة إدارة المعارف بالرباط عام 1340 هـ، وكمل بمطبعة البلدية بفاس 1345 هـ، وباقي الأجزاء بتونس وفاس : أربعة أجزاء.
77) **النظام في الاسلام** لنفس المؤلف.
78) **التراتيب الادارية**... للكتاني : محمد عبد الحي بن عبد الكبير الحسني الفاسي، المطبعة الوطنية، بالرباط 1346 هـ : سفران.
79) **فهرس الفهارس**...، لنفس المؤلف، المطبعة الجديدة بفاس 1346 — 1347 — 1927 — 1928 : سفران.
80) **إتحاف أعلام الناس**... لابن زيدان : عبد الرحمن بن العلوي الاسماعيلي المكناسي، المطبعة الوطنية، الرباط 1347 — 1929/1352 — 1933، صدر منه خمسة أسفار.
81) **أسفي وما إليه** للكانوني : محمد بن أحمد العبدي الأسفي، مطبعة مصطفى محمد بمصر 1935/1353
82) **الاعلام بمن حل بمراكش وأعمات من الأعلام**، لابن ابراهيم العباس بن محمد السملالي المراكشي، المطبعة الجديدة بفاس 1355 — 1936/1358 — 1939، صدر منه خمسة أسفار، اختصاره، الاعلام.
83) **دائرة المعارف الاسلامية** : النص العربي.
84) **سوق المهر الى قافية ابن عمرو**، للسائح محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن

الأندلسي، ثم الرباطي، المطبعة الاقتصادية بالرباط 1938/1357، اختصاره: سوق المهر.
85) **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين،** تأليف يوسف أشباخ، تعريب محمد عبد الله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1940/1359 : سفران : اختصاره، تاريخ الأندلس.
86) **مجموع رسائل موحدية...** نشر لبفي بروفنصال، المطبعة الاقتصادية بالرباط 1941.
87) **أمراؤنا الشعراء** تأليف كنون : عبد الله بن عبد الصمد نزيل طنجة المهدية بتطوان.
88) **الرحالة المسلمون،** لزكي محمد حسن، مطابع دار المعارف بمصر 1945.
89) **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية** تأليف الأمير شكيب أرسلان، المطبعة الرحمانية بمصر ومطبعة الحلبي بمصر 1355 ــ 1936/1358 ــ 1939، صدر منها ثلاثة أسفار.
90) **حضارة العرب** تأليف غوستاف لوبون، تعريب عادل رعيتر، الطبعة الثانية، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة 1948/1367.
91) **المستشرقون** لنجيب العقيقي، الطبعة الأولى، ددار المعارف بمصر.

III مصادر أخرى

92) **إحياء علوم الدين،** للغزالي : محمد بن محمد بن محمد (ثلاثا) الطوسي، المطبعة العثمانية المصرية 1933/1352 : في أربعة أسفار.
93) **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال،** لابن رشد الحفيد. ط. مصر.
94) **الفتوحات المكية...** لابن العربي الحاتمي : محمد بن علي بن محمد المرسي نزيل مكة المكرمة ثم دمشق، ط. مصر 1329 هـ في أربعة أسفار.
95) **القوانين الفقهية،** لابن جزي : محمد بن أحمد بن الكلبي الغرناطي مطبعة النهضة بتونس 1926/1344.
96) **رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة،** لأبي القاسم البتي : محمد بن أحمد الحسني، مطبعة السعادة بمصر 1344 هـ.
97) **المعيار المعرب...** للونشريشي : أحمد بن يحيى التلمساني نزيل فاس، المطبعة الحجرية الفاسية 1315 هـ : 11 سفرا.

98) **الفتاوي الحديثية** لابن حجر الهيتمي أحمد بن المكي، مطبعة التقدم العلمية بمصر 1346 هـ.
99) **مواهب الجليل**... اسم شرح المختصر الخليلي للحطاب : محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني المكي، مطبعة السعادة بمصر 1328 : في ستة أسفار.
100) **القانون** لليوسي : الحسن بن مسعود، المطبعة الحجرية الفاسية 1310 هـ.
101) **تاج العروس**... اسم شرح القاموس للزبيدي : محمد مرتضر بن محمد بن عبد الرزاق نزيل مصر، المطبعة الخيرية بمصر 1306 هـ : في عشرة أسفار.
102) **برنامج خزانة القرويين بفاس**، عمل بعض علمائها، المطبعة البلدية بفاس 1917.

VI **نشرات منوعة**

103) **التقويم الجزائري** لسنة 1912/1330. الجزائر.
104) مجلة **المقتطف**، مجلد 74. ج. 5. القاهرة.
105) مجلة **الرسالة** المصرية، مجلد 2. إعداد 64 ـــ 66 القاهرة.
106) جريدة **المباحث** التونسية : السلسلة الجديدة. أعداد 25، 39، 42 ـــ 43. تونس
107) مجلة **الثريا**، السنة الأولى : العدد 11، مع العدد الممتاز الخاص بالمغرب. تونس
108) جريدة **المغرب** عدد ممتاز. سلا.
109) الملحق الثقافي لجريدة **المغرب** : العدد 9. سلا.
110) مجلة **الثقافة المغربية**، السنة الأولى العدد 4 ـــ 5 سلا.
111) مجلة **رسالة المغرب**، السنة الأولى : العدد 8، مع السنة 6 : العدد 4. الرباط.
112) مجلة **المستمع العربي**، السنة 3 : العدد 15. لندرة.
113) مجلة **الأنوار** عدد جمادى الأولى 1367 ـــ مارس 1948. تطوان.

فهرس

لقد هجم الأُستاذ المنوني على موضوعه ولم يتناوله من ذيوله ولا من أطرافه، بل قصد إلى اللّب والصميم، وترك اللّف والدّوران وإن كان قد قدم بين يديه مقدمات فإنها مما يرتبط بمادته تمام الارتباط ويكون كالإطار الجميل المحيط بالصورة والمتمم لمنظرها البديع. ثم هو قد رتبه ترتيباً طبيعياً فتناول العلوم ثم الآداب ثم الفنون، وهذه أيضاً تناولها بالنظام الكامل والتّرتيب الواجب اتباعه في كل منها، فالسلسلة متتابعة الحلقات، والأفكار متسلسلة لا يجد القارئ أدنى عنت في الرّبط بينها بل إنها في ذلك النّظام والترتيب لتغريه بالمطالعة والاسترسال في القراءة حتى يفرغ من كل بحث وقد أحاط به علماً تصورياً وتصديقياً في زمن يسيرٍ وجهدٍ غير كثير.

على أن جوهر الموضوع ومادة البحث في كل باب من هذه الأبواب الثلاثة، قد استوفى استيفاء تاماً بالنّسبة لما هو موجود ومعروف في المصادر حتى الآن. فلم يترك شاذة ولا فاذة إلاّ أحصاها وحصلها ولا شاردة ولا فاردة إلا تتبّعها وقيدها، وهذا جهد المقل الذي يستوجب الشّكر الكثير.